

داخل المكان..
خارج الزمان



مذكرات

سلام السباعي

A-Ferzat 2021

داخل المكان.. خارج الزمان

مذكرات

داخل المكان..
خارج الزمان



سلام السباعي



دار عشتار للثقافة والنشر والتوزيـع

داخل المكان.. خارج الزمان - (مونولوج داخلي)
تأليف: **سلام السباعي**
الطبعة الأولى: **2023**

ISBN: **9781990723056**
لوحة الغلاف: الفنان السوري أسعد فرزات

تصميم الغلاف: فينوس الزهوري

دار عشتار للثقافة والنشر والتوزيـع
Ishtar House for Culture, Publishing and Distribution
Toronto - Canada تورونتو -كندا

www.ishtarhouse.ca
Info@ishtarhouse.ca

إهداء :

الى كل الناشطات والناشطين - المرابطين على ثغور مقاومة الفساد والإفساد والاستبداد وثقافة الموت والخوف والتهميش - الذين بذلوا حيواتهم أو بعض أعمارهم في السجون والمعتقلات من أجل الفوز بالكرامة والحرية وحقوق البشر بوطن حر وشعب سعيد!

تنويه وتبرير

كلما هَممتُ بالكتابة انكفأتُ... أقرأ فاستذكرُ وأهتزُّ، فأعتزم الكتابة ثم أعدل، إلى أن قررتْ إحداهن مؤخراً تحريض الجميع على الكتابة من دون استثناء؛ من مكثت في (بطن الغولة) سنةً أو شهراً أو يوماً، وأنا مكثت سنوات. أحسست أن الأمر يعنيني أكثر من أي وقت مضى، وأنّ الكتابة قد ترفع بعض همومي وحمولاتي، فالأمر ليس شخصياً أبداً، فهو منسوج من حيواتٍ بشرية بكلفة باهظة على البلاد والعباد، ولا بد أن يهتم بها أحدٌ غيري أيضاً .

كنتُ قد سطَّرتُ رؤوس أقلامٍ جافة على أورقٍ مسروقة حرصت على إخفائها، فبدت حين أخرجتها من كتب أطفالي القديمة رطبةً وصفراء، وإذ شرعت بالاطلاع عليها فهمت أن عليَّ أن أغمضَ عينيَّ وأن أعيد صياغتها لأسلّط ضوءاً على ما قبل، بعد، في "بطن الغولة" أي التوقيف أو السجن السياسي بلا محاكمة. حين فرغتُ من ذلك تنازعتني رغبتان: الأولى إيجاد مخبأ أمين للأوراق المكتوبة، والثانية الإسراع بتأمين منفذ معقول لنشرها. اعذروني فبعد سنوات عديدة من الإفراج والزواج والأطفال يخبو كل شيء وتخبو أعمارنا معه .

وفي لحظة ضعف كدت أقع للمرة المائة في شركِ إغراء الرغبة الأولى، لو لم أعِ فجأةً أنني وإن كنت قد خرجت من (بطن الغولة) رسمياً، فأنا ما

زلت أسيرة حقلها الشاسع، وإنْ ترددت الآن في مغادرته فإني لن أُطِلَّ أبداً من علٍ على (جوف الجب) أبداً، ولا على الجدران العالية التي حبستْ أجسادنا وأرواحنا وعقولنا؛ وأكون كمن وقَّعَ صَكَ إذعانٍ جديد على ما تبقى من عمري وعمر أولادي.

أنا لست قاصةً ولا أديبةً ولا كاتبة تسجيلية، ولن أحاول أن أكون إحداهن، لذا يمكن فهم ما كتبته على أنه بوحٌ لراحة الجسد والعقل والروح والذاكرة.

***

المونولوج

كان قصراً.. وغدا قفصاً

نحن في سجن النساء منذ أكثر من عامين. بدأت حملة الاعتقالات التي طالتنا مؤخراً منذ أكثر من ثلاث سنوات. قضينا قرابة عام قبلها في فروع أمنية مختلفة ومعتقلاتٍ مرحلية متفرقة في محافظات القطر. أعتقد أن اعتقال الجميع تمَّ بلا استثناء؛ من دعا إلى مظاهرة ضد الغلاء، ومن وزع أو قرأ منشوراً أو من كان عنوانه أو رقم تليفونه في حوزة أحد هؤلاء. فقد مررنا جميعنا تقريباً بالمراحل كلها: (كمين، اعتقال، تعذيب، تحقير، ترغيب، عزل، تقاطع معلومات، مقابلات، مواجهات، مساومات).. ازدادت إضبارتانا الرقيقة سماكةً مع الأيام، فغدت بدينةً بعكس أجسادنا التي رقَّت حتى غدونا خيوطاً متحركة أو خيالاتٍ كرتونية. كان العام الأول مرعباً بكل المقاييس، بدءاً بالأجواء المشبعة بعيون المسلحين ورشاشاتهم وسياراتهم الخفيفة أو الشاحنة وتعليمات الضباط المقتضبة وأصوات الأفراد الحاسمة المستعدة والحريصة على دقة التنفيذ المشوب بإيحاءات تبعث في النفوس شؤماً مقيماً، وينتهي بالوصول إلى الأبنية الأمنية المنتشرة وسط الأحياء السكنية والمجهّزة لاستقبال أعداد القادمين مهما عظُمتْ ومهما ضاقتْ بهم المساحات؛ فاجأنا تعدد ألوان الطيف السياسي الذي اتسعت له المعتقلات والسجون واستعدادات المحققين والسجانين والجلادين وحِرفية

إعدادهم وتأهيلهم وانسجامهم المهني وتقبلهم الشخصي لمهامهم الغريبة القائمة على استباحة الآخر إلى درجات غير مسبوقة في تاريخ البلاد السياسي والعسكري والاجتماعي؛ في هذه الأمكنة التقت العقائد والجنسيات والتابعيات لبلدان أخرى شقيقة أو أجنبية من أقصى اليسار الماركسي أو الشيوعي إلى أقصى اليمين الديني وإلى التنظيمات الإسلامية العادية، المتشددة أو التكفيرية، والمسيحية المحلية أو الخارجية. حاولنا ذات مرة إحصاء الحركات السياسية التي ضمت السجون والمعتقلات السورية أبناءها أو أعضاءها خلال أعوام الثمانينات المجنونة، فأذهلنا الرقم الذي احتوى فيما احتوى على أجنحة بعثية أُطلقتْ عليها تسميات مختلفة من وحي الروح الخصمية الإقصائية التي تُكرِّس الأنا المحقة أبداً، وتنفي الأنا الأخرى الجديرة -إلى جانب الموت- بكل الصفات الرخيصة. التقينا في المعتقلات، حيث حططنا رحالنا لفترات قَصُرتْ أو طالتْ بموقوفات وموقوفين من فلسطين والأردن ولبنان والعراق على خلفيات سياسية مختلفة.

في فرعيّ (التحقيق وفلسطين) الكبيرين بسمعتهما واتساعهما، تبدَّت قدرة السجن القطري الواحد (الفرع الأمني) على احتواء أجسادٍ متنوعة في سجنٍ قوميٍ واحد قادر على استيعاب الأمة[1].

بدا الاكتظاظ في جميع المعتقلات عنواناً لتأففِ الجميع، سجناء وسجانين ومسؤولين، ضباط وأفراد ومخبرين؛ لا يمكنني تأكيد ما سمعته على لسان أحدهم، قال: "إن أحد الفروع الأمنية في العاصمة استقبل في أحد أعوام الثمانينات المجنونة خمساً وسبعين ألف شخص؛ استُدعيَ البعض لساعات، وآخرون مكثوا فيه سنوات طوال بلغ بعضها

[1] من تقرير رقيب الشرق الأوسط لعام /1990/ الصادر عن منظمة العفو الدولية تحت عنوان (أنواع التعذيب في سورية) (38) نوعاً، وأنا تعرضت لثمانية هي الأخفّ في تسلسلها

أكثر من عقدين من الزمان"، الجميع في المعتقلات هنا بلا حيثيات نيابية أو قضائية أو وثائقية رسمية، بلا شهود ولا محامين ولا قضاة وحتى بلا شرطة رسمية أو محضرين رسميين أو مذكرات توقيف... أو... أو... وجميع الموقوفين بلا استثناء هنا نكراتٍ بلا تسميات أو هويات، كانوا أحياءً معروفين وغدوا أحياءً مجهولين إلى حين أو مفقودين إلى الأبد، قيل: (الداخل مفقود والخارج مولود)، كوادر هذه المعتقلات أو قواها العاملة مئة بالمئة ترتدي اللباس المدني بدءاً من النفر وصولاً إلى العميد. أنتَ في هذه الأمكنة مذ وَطْئت قدمك عتبة المدخل إلى ما قبل خروجك منه بخمس دقائق -إذا قُيِّض لك الخروج حياً- وهذا وارد بنسبة عالية مع التحفظ على مدة مكوثك ونوعيتها وكيفيتها (مهجعية، مزدوجة، منفردة، نوع التعذيب... إلخ)، فقد تكون ساعات أو أياماً أو شهوراً أو سنيناً قد تبلغ عدة عقود (أحدهم قضى ثلاثين عاماً)، ستكون مداناً ومهاناً وموصوفاً بكل ما يخطر على بال محققكَ أو سجانكَ، فأنت حقير ووضيع وخائن وعميل وموّتور وحاقد وطائفي ومتآمر وعصبوي وضد الوحدة والحرية والاشتراكية والتقدم والعروبة. لماذا استثنيتُ الدقائق الخمس الأخيرة ما قبل الإفراج؟ لأنها تكرِّر لازمة واحدة مفادها: "أن القيادة الحكيمة والشجاعة قررت إكرامك -نظراً لوطنيتك وحبك لبلادك- بالإفراجِ عنك شرط عدم ممارسة أي عمل سياسي، والالتفاف الأكيد حول القيادة الصامدة بوجه الإمبريالية والصهيونية والرجعية". في فروع الأمن المختلفة صادفنا صبايا وعجائز وأطفالاً رضَّع وتلقَّفنا بهلع أو فضول أخبار الفروع والسجون الأخرى المتمايزة (شدةً، حداثة، بناءً، خشونة، تعذيباً، زيارات... إلخ). كان الابتعاد عن الأماكن المدينية يرعبنا وحدود الرعب القصوى انصبَّت على أجسادنا ومعنوياتنا خصوصاً عندما بدأتْ أخبار السجن الصحراوي البعيد تتسرَّب إلى أقفاصنا حاملةً طرق استقبال المعتقلين (التشريفة)، أي الجلد وهي خمسمائة جلدة للإسلاميين وبعث العراق، ومائتا جلدة

للشيوعيين والبعث الديمقراطي والاتحاد الاشتراكي والعمال الثوري، وما يطلق من أسماء الدلع على أدوات الجلد من السياط والكابلات الرباعية (تدللْ يا كايدهم، آكل لحوم البشر، نسيانك صعب أكيد)، وبلغ الهول أشده مع ورود أنباء المجزرة الجماعية والمحاكم الميدانية الدقائقية وابتزاز أهالي السجناء وانتشار الأمراض المعدية.

***

في جامعة حلب فقدوني...وفي جب حلب وجدوني!

نحن الآن في سجن النساء في دوما على بعد بضعة كيلومترات عن العاصمة، وقد وصلتُ إليه قبل أن يكتمل عامٌ على اعتقالي. بعد ستة وعشرين يوماً من البحث المضني في مدن الشمال والوسط والجنوب وجدني شقيقاي في فرع الأمن بـ (حلب). غريبٌ أمر أهلي! لماذا ذرعوا الطرقات وقطعوا المسافات، فجامعتي في (حلب)، وكان عليهم أن يفهموا أني موقوفة في (حلب)؛ فيما بعد عرفت حجم المعاناة التي رافقتهم على الطرقات والمدن والمكاتب والفروع ومنازل المسؤولين والضباط والواسطات التي بدأت بنكران وجودي الفيزيائي على أرض الشهباء، يبدو أن واسطة (ثقيلة) فتحت نافذتي ليطل منها أهلي، استُدعيتُ على عجل، خُيرتُ بين إغماض عينيّ طوعاً بصدق أو وضع (الطميشة) فاخترت الحالة الأولى، سرتُ حافيةً، طلبوا أن أرتدي بنطالاً آخر، وحين أبديت استغرابي، فاجؤوني بواحد أكبر من مقاسي وأقرب إلى (شروال)، سرت برفقة السجان مغمضةَ العينين، يمسك ذراعي ويؤكد إغماض عينيّ، توقفتُ، أشرتُ إلى أني حافيةٌ، توقف وتساءل بإقناع: "منين بدي جبلك شحاط تفوت فيه رجلك؟". كان محقاً، فقدماي متورمتان جداً، اقتربنا من غرفة، دخلنا، "افتحي عينيك"، هذا

صوت النقيب محمود، كان الوقوف لي صعباً والسير مؤلماً، كنت بحاجة للاضطجاع، فتحت عينيّ وفوجئت بشقيقَيَّ الأكبر والأوسط، كانا جالسين قبالتي تماماً، تسمَّرتُ ونسيتُ الألم، خلف المكتب المريح بدا النقيب محمود بمزاج عالٍ إلى درجة الابتسام، جلستْ إلى جانب المكتب امرأة ثلاثينية جميلة تحدثه بلهجة لبنانية، "جايين يطّمنوا عليكي... قعدي جنبن...". خطوتُ كمَن (ينقذ نقذاً).. ولاحظ شقيقي البكر ذلك، وقفا، تعانقنا وخنقتنا العبرات ثم سالت حتى شرقنا بها.

جلستُ بينهما، تحسست ذراعيهما، النقيب كان مشغولاً بمسامرة الجميلة اللبنانية وهي تسعى لإقناعه ببراءة زوجها بدلعٍ ظاهر ونظرات متمنِّية واعدة. بعد كلمة "كيفَك" سارعت إلى استغلال انشغال النقيب وتشتت انتباه العنصرين الأمنيين بمحادثة جانبية. همساً لخَّصت: "لا أستطيع السير بسبب الجَلْد، التعذيب شديد، حاولت الانتحار مرتين، ساوموني أربع مرات آخرها منذ نصف ساعة، وقّعي صك تعاون أمني واخرجي الآن". لحظتُ أني أريد رأياً واضحاً وصريحاً؛ شقيقي الذي مارس العمل السياسي سابقاً أصغى جيداً... بعد آخر كلماتي رفع صوته كمنٌّ يرد على أسئلتي العائلية، فأوضح أن والدي تجاوز الجلطة الدماغية، ولكنه فقد النطق الصحيح ووضعه الآن مقبول ولا يعلم باعتقالي، قدَّرت أن سؤالي فاجأة... النقيب محمود استمع إلى طرفٍ مما قاله شقيقَيَّ وتوجه إليهما: "اسألوها، لم نَهِنْ كرامتها، حينما كنا نضربها على قدميها، كنا نلبسها بنطالاً" سماني باسمي وأشهدني على صحة كلامه. ينتظر كلمة شكر. أخي الأصغر قال: "إنها مثل أختكم". علَّق النقيب بتهكُّم، قال: "وأعزا!". استطرد بأنه لا يرضى لأخته أن تكون بهذا الحزب الحقير والخائن واللا أخلاقي، ثم (شَكَلها) مشيراً: "بنتكم بنت ناس وحرام تقضي يوم واحد عنا". فهمتُ وفهم شقيقاي، وعاد محمود إلى كلامه الهمسي مع الحسناء، فسارع شقيقي إلى صياغة همسٍ واضحٍ وصريحٍ، قال: إنه يعرفني كما يعرف نفسه، فأمه تكبره بسبعة عشر عاماً وهو يكبرني بهذه

الأعوام بالضبط، وأنه ليس من أخلاقيات أحد في عائلتنا سلوكية تسيء إلى الذات أو الآخر، وقال إنه فهم أني حاولت الانتحار مرتين وفشلت، ولذا فهو متأكد أني إذا وقعت صك الإذعان والتعامل اليوم وخرجت الآن، فسأنجح بالانتحار بعد ثلاثة أيام على أبعد تقدير، أوضح أن أمي غير راضية عن مسيرتي السياسية التي أوصلتني إلى المعتقل أبداً، ولكن أمي بالذات ستتبرأ مني إن فعلتها، ليس من باب الإخلاص السياسي، وإنما من باب الوجدانية والانسجام مع الذات النظيفة. كان هذا ما أملتُ سماعه، فكلام شقيقي نزل على روحي برداً وسلاماً، وأحسست أني أقف على أرضٍ صلبة. انتهت الزيارة وسمح النقيب بمعانقة شقيقيَّ، وافترقنا. بعد ساعتين حظيت بفرصة يمكن إدراجها بمرتبة أعجوبة لكنها تسببت لي بـ (كركبة) نفسية استدعت غضبي ودموعي ويأسي الذي تحول إلى كآبة أبت الزوال، خفف من وقعها لقائي بـ (ميادة)، المرآة -الصدفة- التي كانوا ينقلونها إلى أحد المكاتب، توقفت قربي دقيقتين أتاحتا لي النظر إليها، ولكنهما لم تتيحا لي التعرف على ذاتي، الكدمات غطت الوجه والعنق، والزرقة علت عينيَّ المتورمتين وأنفي النازف غالباً، وشفتي المشرومة أكثر منها متشققة، أما هزالي فقد فاق تصوري، وهنا ارتددْتُ ببصري إلى باطن كفيَّ وظاهرهما لأتفحص ما فعله إطفاء السجائر بهما.

آلمني أن شقيقيَّ شاهداني على هذه الحال المزرية، وشدَّ أزري تعاطفهما، وتفهمت استكانتهما في هذا الجو المشبع بالرعب، كنت مطمئنة إلى أن صورتي هذه لن تُنقل إلى أمي، وسأعلم لاحقاً أن شقيقتيَّ علمتا بحالتي هذه بعد عام، وذرفتا دمعاً غزيراً ولم يحْتجْ زوجاهما إلى عناءٍ لإقناعهما بخطورة زيارتي عليهما وعلى عائلتيهما. بعد أيام بدأت رحلتي الجديدة لأجدني في فرع (فلسطين) لشهورٍ عدة، ثم تواصلت رحلات أشقائي الباحثة عني مجدداً حتى تأكدوا من وجودي في هذا الفرع؛ ليتمكنوا بعد سبعة أشهر من تأمين زيارة. دخلوا الفرع وسمعوا نتفاً من أخباري ولم يتمكنوا من رؤيتي، وسأعلم بهذا الأمر كله لاحقاً.

فاجأني كما فاجأ آخرين وأخريات مُسَّمّى الفرع الطريف، فلم يخطر ببال أحد كيف يمكن لأي عقلية مبتكرة أن تطلق اسم (فلسطين) السليبة على واحد من أكثر الفروع الأمنية رعباً لأبناء البلاد وحتى البلدان المجاورة لنا، اكتشفنا سريعاً سر التسمية، فالاكتظاظ الفلسطيني بدا عالياً، حيث شمل جميع الفصائل غير الموالية للنظام على الساحتين السورية واللبنانية، وتصدَّرته قوائم (فتح) من الرجال والنساء والشباب والمنفيين، مقاتلين أو مساندين، وجاء تصنيفهم الأمني (عرفاتية) نسبة إلى (ياسر عرفات). علّقت إحدى الموقوفات مشيرةً إلى أنها متأكدةٌ من أن المدرعات العربية ستنطلق من هذا الفرع بالذات حين تُقرع أجراس التحرير والعودة، وسنخضع الآن لدورة إعداد قتالي، لا بد بعدها من التوجه إلى ساحات القتال، وتنبَّأت موقوفةٌ أخرى بوجود فرعين أمنيين آخرين باسمَيّ (الجولان) و(الاسكندرون). قدُّرَ لنا فيما بعد لقاء معتقلين حاولوا تهريب أسلحة إلى مقاتلي الأرض المحتلة، فقضوا سنوات سجنية وطنية طويلة.

كنا نفكر بالبقاء أحياء، وكنا نرغب بالموت أحياناً، وعلى الرغم من هموم بعضنا الخارجية، فقد توضّعت هذه الهموم في مرتبة ثانية أو ثالثة أحياناً، خصوصاً عند العازبات غير المعيلات منا، رأيت شخصياً- احتمال خسارتين: الأولى شهادتي العلمية، والثانية عمري أو جزء من عمري.

أحسست فيما بعد بعمق الأزمة العائلية، فتاريخ عائلتنا السياسي لم يحتو على اعتقال نسائي. مُقدمٌ في الأمن السياسي في أحد الفروع قال: "أنا مستعد للمساعدة في أي أمر آخر، فصاحب الطلب غالٍ وموّان، لو القضية مخدرات، دعارة، قتل، لَتدخَّلَّ من دون حذر، وحلَّ الموضوع من أساسه وليس فقط معرفة المكان أو تأمين زيارة اطمئنان، هذا الأمر السياسي بالذات (تابو) فقد يكون سبب خراب بيته". واعتذر لواءٌ قائدٌ

لإحدى الكليات العسكرية بكل تهذيب عن أيّةِ "واسطة" وأشْهدَ ابنة عمته التي لم يتمكن من تأمين زيارة لابنها الوحيد الموقوف بالتهمة ذاتها، وعميدٌ (واصل لفوق) حذَّرَ من اللعب بالنار، فلا أحد بإمكانه مساعدة أحد؛ أسرَّ: أن ابن أخت زوجة الرئيس موقوف وأمه لا تزال تَأْمَلُ علماً أو زيارة.

بعد بحث دؤوبٍ في أوساط التجار والمتعهدين والمزارعين حُطَ الرحال في الساحل السوري في ريف اللاذقية، وتوصَّل شقيقيَّ إلى إحدى أهم عائلات الساحل من حيث المركز الديني والمالي والأصل والفصل... إلخ، ووسط بيارات الليمون والبرتقال والزيتون والساحات الخضراء والقصر وحديقته جرى استقبال الآتين من بعيد لأجل واسطة عند (أهل الخير)، وصاحب المكان الوجيه، المهذب والمهيب واللطيف قال: إنه فعلاً (يمون) على اللواء الآمر الناهي في هذه المسائل الأمنية، حيث جمعتهما الزمالة الدراسية، وأشار بيده إلى قريته في أعلى الجبل المطل على السهل، حيث قصره الأسطوري المضاء بشكلٍ مبهر، وعدَ أن يضيف اسمي إلى قائمة الفتيات التي حملها إليه ذووهنّ من القرى القريبة المجاورة واللواتي يعرف أهاليهن أباً عن جد، قال إنه سيعتبرني مثل أولاده السبعة، أقسم أنه سيولي هذه المسالة كلَّ اهتمامه، ولكنه بدا يائساً وعلق الأمر على رب العالمين وقدرته وحكمته ولطفه، وللغرابة فإنه أكّد ما قاله المقدم في معرض اعتذاره الذي أوردته سابقاً، يا إلهي، الجميع بلا استثناء يتحدثون عن تهمتنا القاتلة التي لا تُقارن بها أسوأ أنواع الجراثيم المُعدية... عجباً فوق عجب، فكيف نتفوَّق نحن أصحاب الرأي المعارض شباباً وشابات، جامعيين وجامعيات، أطباءً ومهندسين وحقوقيين، ونحن لا نحمل سوى أقلام مثلومة حارة وأيادي نظيفة، كيف نتفوق في خطورتنا على القتلة والمجرمين ومهربي المخدرات والمحتالين والمحتالات والقوادين والداعرات، وكل واحد من هؤلاء يجد من يستطيع الكلام بشأنه والتوسط له، بينما يتهيب الجميع

لفظ أسمائنا التي تنتمي إلى أحزاب يسارية مسكينة، كان حزب البعث ذات يوم واحداً منها، وذلك قبل أن يتسلَّم العسكر البلاد متوجاً بالقبضة الأمنية، فارضاً نمطاً جديداً لحياة جديدة شعارها (نعم)، من يقولها يجد مكاناً للعيش، ومن لا يقولها يجد مكانين لا ثالث لهما، القبر أو السجن لآجالٍ غير مسبوقة في تاريخ البلاد في المئة سنة أخيرة على أقل تقدير. هل طلبُ تحقيق عادل وقاضٍ ومحامٍ وبتٍّ بقضيتنا أمرٌ يُجابُ عليه بالسوط أو السخرية! "شو انتو بسويسرا؟"... لا، أنا أعرف أني أعيش في سورية، ووالدي عاش أيام الاحتلال الفرنسي وحدثنا عن القانون والمحاكم الفرنسية التي حاكمت القائد إبراهيم هنانو الذي قاتل الجنودِ الفرنسيين وبرأته، ولا تزال محاكمته تدَّرس في أهم كليات الحقوق في أوروبا، بل إن خمسينات القرن العشرين شهدت حقوق الناس المضمونة بالقضاة والمحامين والنيابة وسيادة القانون. جدتي لم تفتح باب (الحوش العربي) لـ (تحرية المكتب الثاني)[2] إلا بعد أن جلبوا معهم مختار الحارة ومذكرة تفتيش المنزل بحثاً عن المطلوب وهو زوج عمتي، كان هذا في ظل الديكتاتوريات الكريهة (حسني الزعيم، سامي الحناوي، الشيشكلي)، ماذا جرى للبلاد بعد عقدين فقط؟. وماذا جرى لحقوق البشر بالكلام والنقد والكتابة والتنظيم، والانتخاب والترشيح في ظل ما سُمِّي (الشرعية الثورية) المتقدمة على البرلمانية البرجوازية؟!.

نحن الآن خارج الحياة الطبيعية البشرية، نحن لسنا في منازلنا ولسنا مع أهلنا وأحبتنا، نحن خارج الزمن لأنه يطوينا، نحن أيضاً نرغب بطيه، فليتراكم الزمن فوق بعضه علَّه يعلو فوق أسوار سجننا العتيد.

نحن الآن في سجن النساء، عرفنا لاحقاً بعضاً من تاريخ قفصنا الحالي. طريفٌ حقاً بداية هذا البناء الذي كان قصراً، وطريفٌ ما آل إليه، أنا الآن

[2] عناصر البوليس السريّ.

سجينة، عمري اثنتان وعشرون عاماً وفي عامي الجامعي الأخير، أنا الآن أسيرةُ ومضات الماضي البعيد، تأتيني على شكل ما يسميه فنيو السينما والتلفزيون (لقطات الفلاش باك)، مُنعتُ من السفر إلى جامعتي في (حلب) بقوة ذراع شقيقي، قذف بوجهي حجتين دامغتين، فالوالد طريـح جلطته الدماغية ومرشح بقوة للانتقال إلى العالم الآخر، والثانية (حديدة القبضة الأمنية حامية ولن توفر أحداً)... أعتقد أن القدر ناداني بقوة كما نادى رفيقاتي تباعاً فتساقطنا كثمارٍ لا بد لها من سقوط، تذكرت أسطورة (أوديب) وقدره بقتل أبيه وزواج أمه، راوغت شقيقي، عانقت والدي، غافلتُ أمي، وغادرت إلى حيث اعتقلتُ بعد ست وثلاثين ساعة.

***

نحنا في دوما البلد...لا يدري بنا أحد!

في سجن النساء بدأنا تباعاً بالتعرف على المكان والناس والأسماء، وبعد حوالي ثلاثة أشهر بدا أن نصابنا السياسي سيكتمل، حيث تباطأ توريد المعتقلات الجديدات حتى توقف، تداعينا لاجتماعات تلتها اجتماعات، وبحثنا مواضيع عشوائية، سياسية وتنظيمية واجتماعية قبل أن نعيد تقويمها لتصبح ناظماً طوعياً في حياتنا السجنية الجديدة. سجننا هذا يتبع لقوى الأمن الداخلي (مصلحة السجون) ونحن أمانة لدى السجن من حيث الإقامة والأنظمة، ولكننا على ذمة فروع أمنية مختلفة من حيث التابعية، وحيواتنا بمجمل تفاصيلها وآفاقها ترتبط بالإدارات والإرادات الأمنية المزروعة في العاصمة، وقرارها المركزي -كما فهمنا بطرق ملتوية- ينبع من مجلس الأمن القومي.

السجن بحد ذاته صغير من حيث المساحة والبناء، ولكنه فاعل ومتنوع وممسوك جيداً؛ جدرانه تضم موزاييكاً فاقعاً من الاختلاف على كافة الصعد العقائدية والإجرائية والمسلكية.

ضم السجن نوعين من السجينات:

أ- السياسيات

ب- القضائيات

أ- السياسيات:

-1 شيوعيات: بعث ديمقراطي، بعث عراق عددهن /35/

-2 إسلاميات: إخوان، طليعة مقاتلة، أصوليات عددهن /40/.

ب- القضائيات:

جرائم قتل، مخدرات + حشيش، دعارة، احتيال، أمن اقتصادي عددهن /130. /

توضَّعت السجينات في مهجعين كبيرين نسبياً، ومهجعين صغيرين نسبياً وبضع غرف متفاوتة الصغر، وقد راعت إدارة السجن هذا التنوع بتوزيع سياسي واجتماعي على المهاجع والغرف ما أمكن ذلك، وتكفلت السيكولوجيا الجمعية والفردية والشللية بموضوع التقارب أو التباعد من حيث النوم والطعام والنظافة والحمام، إلخ...

ناقشنا السياسات التي قادتنا إلى هذه النهايات التراجيدية وتوصَّلنا إلى قناعات متفاوتة حول صواب صدامنا مع النظام، فسخر بعضنا من شعار إسقاط السلطة، ونعتَ بعضنا الصراع معها صراعاً ما بين نملة وفيل وأطلق البعض صفة (الدونكيشوتية) الحالمة بالتغيير على سلوكيتنا قبل الاعتقال وخلاله، وتوصَّلنا إلى اعتقاد مفاده: أن النظام فرض المعركة والتصفية بعد أن أمسك بخناق الدولة والمجتمع من خلال تحكمه بثروات الوطن ومن خلال أجهزته الأمنية (الديناصورية) التي لم تقرر إزالة الحركات الأصولية المسلحة وغير المسلحة وحسب، وإنما تصفية جميع التيارات والأحزاب والحركات السياسية ذات الوجه المستقل والكلمة الحرة، وتنزْعَ السياسة من المجتمع وتضعها بيد حزبٍ واحد هو قائد الدولة والمجتمع؛ ليتبين أن هذا الحزب واجهة تصفيقية مطواعة بيد القبضة الأمنية القادرة كالقدر، وبموجب قوانين الطوارئ

والأحكام العرفية تحوَّل الشعب السوري (المُسيّس) والمتعدد أبداً إلى قطيعٍ يؤخذ إلى المرعى أحياناً وإلى المسلخ أحياناً.

***

بع رفقاتك واشتر نفسك...وحاول بعدها ألّا تنتحر!

لا حاجة للبرهان على خسارتنا التنظيم، ولكننا قررنا أن لا نخسر قناعاتنا الفكرية والاجتماعية، وأهم من ذلك كله أن لا نخسر أنفسنا. ناقشنا بجدية عالية موضوع (المساومة)[3] المسلَّطة فوق رقابنا؛ رفضناها رفضاً قاطعاً، وأطلقنا عليها تعبيراً ساخراً محذِّراً (بع رفاقك واشترِ نفسك وحاول بعدها أن لا تنتحر)، ومساهمتي بصياغة هذا الشعار نبعت من لقائي الاستثنائي الخاطف مع أشقائي والحضور المعنوي لأمي في مطلع اعتقالي.

حياتنا الآن في سجننا الحالي تختلف عن الحياة في معتقلاتِنا التي مررنا بها، فلقد صار خلفنا التحقيق والتعذيب الجسدي والقلق على الذات والغير والرعب من الإعاقة أو فقدان الحياة؛ نمطٌ حياتي جديد، ولكنه أيضاً قد يعني أننا خلّفنا وراءنا الإفراج، وتأكَّدنا أن الأمل الذي سطع لعدة ساعات في نفوسنا أثناء التجهيز لترحيلنا الأخير قد خبا إلى غير عودة، ودخلنا مرحلة استقرار مضنٍ بلا نهاية؛ استمرار واستقرار دعته (رزان) استقرار المقابرِ حيث الأمان والاطمئنان واستمرار المكان وانعدام

---

[3] عرض الإفراج مقابل التعاون مع الأمن!

الزمان.

كيف سنعيش في السجن؟ سؤال برسم إجابات واجتهادات متباينة تباينَ معطياتِ وضعِنا حيث نحن هنا بلا تُهمٍ ولا قضاء ولا دفاع، وأعيننا لم تتكحَّلْ -ويبدو أنها لن تتكحَّلْ- إلا بوجوه رجال الأمن من مخابرات وشرطة وسجَّانين وسجّانات. وجميعنا يعلم أن كل القوانين والضوابط الوطنية العامة محجوبة عن الوطن والمواطنين بفعل حالة الطوارئ والأحكام العرفية، ولا تسري خارج المعتقلات والسجون أو داخلها سوى أحكام الإرادات الأمنية المدروسة أو المزاجية. وعلى هذا فإن احتمالين هامين مفتوحان بقوة: إفراج قد يكون غداً أو سجناً قد يطول أمداً. ما العمل؟. (جومانا) اقترحت أن نعيش أيامنا على أساس أن الإفراج قد يكون غداً أو بعد غدٍ وهذا ينعكس على صحتنا ونفوسنا إيجابياً، و(ميادة) التي التقت في فرع التحقيق العسكري لخمس دقائق عرضية الزعيم الشيوعي (رياض الترك) نصحها بتجاهل الزمن ونسيان الخارج وإشغال الذات بالعالم السجني الجديد، فكل أمل قد يعقبه فشل يقتل الروح، والأفضل لا أمل، لا فشل، قال لها: "نحن هنا أصفار، فلنحفظ صحتنا ونفوسنا وعقولنا وأرواحنا، فالفرج سيأتي من خارج الجدران". (هيفاء) تجاوبت وأوجزت: "فلنقاطع الخارج ولنعش كما (روبنسون كروزو)، بل إن الوضع هنا أفضل لأننا لسنا وحيدات ولا أرواحاً هائمة في الغابات".

بصوتٍ حنون أقرب إلى مناجاة الذات قالت (رزان): "إنها تريد أن تكون روحاً هائمة في الغابات حيث الأنهار والأشجار وحيث تغيب الجدران". كدنا ننكفئ لدواخلنا ونستدعي من أعماقنا أحزاننا لو لم تتدخل (هالة) بصياغة مدهشة مستندةً لقول (الإمام علي): "اعمل لدنياك كأنك ستعيش أبداً واعمل لغدك كأنك ستموت غداً". اتفقنا على قبولٍ يومي بالواقع وعدم فقدان الأمل بالغد.

بدأت الاحتكاكات مع السجينات الإسلاميات منذ وصولنا إلى السجن حيث سبقننا إليه، وهذه الاحتكاكات بدأت هادئةً وتحولت إلى عاصفة إشكالية تستدعي موقفاً، بدا واضحاً أن معارضة النظام هي كل ما يجمعنا وعدا ذلك فكل شيء يفرقنا، والمؤسف أننا بطرفينا لم نتمكن من فصل المعاملات والمعايشات عن السياسات والعبادات وحقوق الناس وحقوق الله، ولذا غدا طبيعياً تسرب التكفير أو التخوين إلى جميع المناقشات التي تكاد تنتهي بالاشتباك بالأيدي. بلغ الأمر حد تصريح إحداهن أنهن إذا أخذْنَ السلطة بأيديهن، فإنهن لن يترددن لحظة في إبادتنا عن بكرة أبينا، وسارعت (فاطمة) لترد القتلَ بقتل مثيل ومصير أسوأ.

اتفقنا بعد جدالات معقدة ونقاشات حامية على قصر علاقاتنا معهن على الحدود الدنيا المتاحة، وحين نفَّذنا ذلك بَدَوْنا كأننا نعيش في قريتين متجاورتين بينهما أسوار عالية في حين كنا قريبات ومتجاورات حتى حدود اللمس. درجت الأمور بيننا على مبدأ معرفة ما يزعجهن فنتجنبه، ومعرفة ما يزعجنا أو يستفزنا فيبتعدن عنه، ليس حباً أو تفهماً أو احتراماً، وإنما خشية إشكالات سيكون الجميع ضحاياها بمواجهة السجانين والشرطة ورجال الأمن، فنحن لا نزال على ذمة الفروع الأمنية صاحبة العلاقة.

إن المراقب الموضوعي الآن، وبعد مرور هذا الكم من السنين يستطيع من دون عناء الحكم على من في السلطة ومعارضيها في السجون وخارجها بالجنوح للاستبداد والإفراط باستخدام القوة، وأستغرب ضيق أفق الجميع في الثلث الأخير من القرن العشرين، وكأن الدنيا برمتها مبنية على (المثنوية الإلزامية) التي لا تتسع إلا لواحد، وتنتهي بـ (يا أنا، يا أنت)، أنا في السلطة، وأنت إما في السجن وإما على كرسي الإعدام، وأن اللون والرأي والفكر والحزب والزعيم، ينبغي أن يكون واحداً. وإن الخيانة أو

الكفر هما صفتان أكيدتان لكل من يرى غير ذلك... في خمسينيات القرن الماضي احتمل المجلس النيابي مكونات الشعب السوري السياسية من أقصى اليمين على أقصى اليسار، ومن التمثيل العشائري وحتى الديني، وذلك في ظل الجمعيات والنقابات والأحزاب الحرة وتحت مفاهيم وشعارات غائية وطنية وإنسانية مثل: (الدين لله والوطن للجميع)، (إني و إن كنت أخالفك الرأي، فإني أموت دفاعاً عن حقك في التعبير عن رأيك)، (لكم دينكم ولي ديني، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، (لا إكراه في الدين)، (القانون فوق الجميع)... كانت مؤسسة القضاء مستقلة وبعيدة عن التسيس والانتماء الحزبي، وغطت السلطة الرابعة ساحات البلاد بأكثر من مائة صحيفة حرة... هل تخلّفنا نصف قرنٍ من الزمان، وماذا يعني هذا في عصر الفضاء والاتصالات؟ أهي كارثة أم ناقوس خطر؟! وهل في الأفق ما يوحي بأمل؟

نوع آخر من السجينات، القضائيات، عَيِّنة أخرى مختلفة بالتأكيد، ولكنهن يمتْزنَ عنا بخضوعهن للقضاء؛ (محكمة، محامي، استئناف، طعن، إلخ.) موزاييك يعكس حالات المجتمع الفاقعة (قتل، دعارة، نصب، تهريب، تعاطي مخدرات، تهريب أو إتجار بالمخدرات، حشيش... إلخ) أولئك النسوة يُدْهِشنَكَ دائماً حين يُخيبنَ ظنك، أبداً لن تصيب في تخمينك، حين تتوقsع شراسةً تجد ليناً أو طواعيةً تذكّرك بنعجة، حيث تتوقع قباحةً ووقاحةً تفاجأ بجمالٍ داخلي غريب، وحين تستسلم للبساطة والسكينة والخجل تُشهَرُ في وجهك معطيات تقلب مفاهيمك وظنونك وموازينك. إجمالاً كان من الصعب الحكم على طبيعة هؤلاء النسوة أو إيجاد طريقة مناسبة للتعاطي معهن، الموقف منهن كان أيضاً موضوع نقاش واسع متعدد الوجوه بدءاً من (النظرة المتعاطفة إلى ضحايا المجتمع) إلى (التربية المنزلية)، وانتهاءً بالتشدد تجاه الانحراف والجريمة. لقد وجدْنَ أنفسهن بمعارضة المجتمع، كما وجدنا أنفسنا بمعارضة النظام السياسي.

رأينا فيما بعد أن التعامل مع هذه الشريحة من السجينات لا بدَّ منه فهن مشروع إطلالتنا على الخارج، فبعضهن كان يَخرج بعد شهور وبعضهن يَعُدْ بعد أسابيع، وقد كنَّ سوقاً لأعمالنا اليدوية السجنية التي نُسوِّقُها لهن أو عن طريقهن، فأحوالهن المادية كانت جيدة بصورة عامة، في حين ترنَّحتْ أحوالنا دائماً على الحافة بانتظار دعم الزيارات التي كانت شحيحة حتى انقباض النفس والسخط على الغير والذات، وسرعانَ ما تبيَّنَ أن العلاقة معهن بحاجة مستمرة إلى التقويم والتصحيح والتحديد. رأتْ إحدى رفيقاتنا ضرورة قطع أية صلة معهن بما فيها صلة التحية، وخصَّت بالذكر العاهرات والمحتالات والسارقات، فتساءلت (ميساء) بخبثٍ عما إذا كان التعاطي مع القاتلات والحشاشات والنصابات مسموح أو ممنوع أيضاً؟. توالتْ أسابيع كنا فيها عرضة لتجاذبات بشأن العلاقة مع القضائيات، ومع مرور الشهور أدركنا استحالة صياغة ضوابط أو قواعد تعايشية، فالأيام رفدتنا بأمثلة وبراهين عن غنى الحياة والنفوس البشرية وعمق المآسي ومراوغة الأقدار، وتحولَ القرف منهن إلى عطفٍ أو تعاطف. عبثاً حاولنا إعداد قوالب لا تفتأ تنكسَّر فتربكنا إذ ترينا وجوهاً أخرى للمسائل لا بد من أخذها بالاعتبار. باختصار توصلنا إلى ضرورة اعتماد العقلانية العفوية مع كل حالة على حدة مع الاحتفاظ بالحدود المرنة التي تحكم واقع السجين السياسي بواقع السجين الجرمي أو الجنحي، إلخ... هنَّ كنّ بالتأكيد منحرفات، مخطئات أو خطَّاءات أو مجرمات، ولكنهن بشر، والبشر يخطئون وقد يستحق بعضهن التفهم أكثر من الشجب والغضب، لكنَّ المهم جداً هُنا عدم السماح لهن -بأي حال- التطاول أو التمادي أو التعدِّي. اتفقنا على دحرهن، وفعلناها مرةً واحدة، ففهمن وعقلن ولم ينسين ردة فعلنا هذه حتى خروجنا. وعندما يقترب بعضهن منا لسبرنا، يبدو عسيراً عليهن تفهُم قَبول المغامرة بالحسب والنسب والأسرة والحياة ومقاربة الموت من أجل قيم ومبادئ وأخلاقيات وآمال وأحلام مجتمعية بالعدل والحرية. لم تتمكن هذه

المفاهيم والقناعات من الوصول لأذهانهن إلا مشوشةً لترسل عيونهن أو ألسنتهن استغراباً، دهشةً أو سخريةً مكبوتة.

في يومٍ ما، في وقتٍ ما، أعلنت (أم مازن) المحكومة بجرائم قتل أنها قد تغامر بحياتها لأجل مليون ليرة، ولكنها أبداً لن تغامر بسنة من عمرها من أجل تحقيقٍ ما تقرأه في جريدة سرية أو كتاب ثوري وتحلم بأن يتحقق ما فيها من أجل الشعب، تضحك بعمقٍ وعفوية: "شو دخلني أنا وشو دخلكن أنتو بالشعب"، (أم مازن) أنصفتنا على الأقل، لم تُغفل ملاحظة أننا بنات خلق وناس، "والنعم والسبع تنعام..." أما (فائزة) الراقصة الفولكلورية في فرقة مطرب محلي لمعَ وانطفأ، فقد رغبت أن تكون مطربةً ثم قبلت أن تكون راقصةٍ، "صوتي حلو وجسمي حلو"، والمخلوقة صادقة فعلاً، ولكنها لم تحظَ سوى بفرصة (راقصة) في فرقة تضم مجموعة فتيات، رقصت وسهرت قبل أن تقودها قدماها إلى دهاليز تُقسم أنها تأباها، تقول إنها لا تفهم السياسة، ولكنها تحبنا كلنا وتستثني ثلاثاً من رفيقاتنا القاسيات معها ومثيلاتها، تؤكد أنها تود لو قرأت وَوَعت مثلنا، ولكنها لا تريد أن تدخل السجن لسنوات، ولا تريد فقدان أحبةٍ بجريرة كتب أو مبادئ أو أحزاب... وجدتْ نفسها من دون أن تدري متلبسةً بتهمة دعارة (مبكّلة) حيث ينتظرها همان: أولهما القضاء الذي اطمأنت إلى تأمينه والإفلات منه، وثانيهما أهلها، الهم الذي يؤرق لياليها، تنظر إلينا بدهشة وطرافة، "ولكون أنا إلي أهل". كان عليها أن تفطن للأهل، ولكنها تأخرت.

فعلاً أُخرجتْ بكفالة. ودَعتنا، قالت: "ادعولي" ورفيقتنا (القاسية) تمتمت: "لا مندعي عليكي ولا مندعيلك "... يا إلهي، غير معقول، بعد أقل من ست ساعات تم إدخال صبية ثلاثينية بملامح ذكورية لم تحجب شبهها (بفائزة)... الأخت قتلت أُختَها... كرهتُ (إلهام) وشكلها الشاذ وكرهت قتل الروح، أنا لا أقوى على ذبح دجاجة ولا على "شمط"

عصفور، على الرغم من انتمائي لفصائل توالي الانتفاضات الحمراء والعنف الثوري والحقد الطبقي. قاطعتُ رفيقتنا التي لم تدْعُ لها ولم تدعُ عليها يومين كاملين، أما (دلال) مهربة الحشيش الشاطرة فقد هزَّتْ عظامنا رعباً وقلقاً، وذلك حين حملتْ لإحدى رفيقاتنا المدخنات (شقفة حشيش قد طابة البينغ بونغ)، حاولتْ تسويقها عبر إقناعنا، "الحشيش مو مصيبة، ومو كوكائين جربوه، ما بتخسروا شي، هدية مني إلكن، خذوه بلا حقه". القاتلات: غرفة القتل، قدمتُ للرفيقة القادمة الجديدة هذه الغرفة بلهجتي (غرفة الأتل). تساءَلتْ بضعف وخذلان عن الفرق بين فرع التحقيق وسجن النساء، ظنَّت أنها غرفة الضرب وتعذيب السجينات. سارعتُ لاستبدال (الأتل) المدنية بـ (القتل) الريفية أو الفصيحة، ارتختْ أعصابها المشدودة وارتقى مزاجها لدرجة الحماس للتعرف على جميع القاتلات، وكدتُ أسير في ركابها وأقودها في جولةٍ ميدانية لولا قمع نظرات رفيقاتنا الصعبات الجاهزات لـ (فرمي) بانتقادات لا طاقة لي بحملها، أقنعتها بترك الأمر للأيام، و"الأيام جاي، شو ورانا". معظم القاتلات في غرفة القتل قتلنّ أزواجهن عدا (سناء) التي قتلت عمها دفعاً لمحاولته إجبارها على البغاء. قاتلات الأزواج طريفات حقاً حتى المأساة. بيان واقعي، برهان لا يقبل دحضاً، تجاور الحب والكراهية والغيرة والامتلاك، الصبر، السير على الحبل المشدود، الاحتقان الذي يسبق الانفجار، والقتل هو الختام.

ضمت غرفة القتل أكثر من ثلاثين امرأة، عجباً، فكلهن مقبولات، بعضهن جميلات حقاً، أطرف ما في الأمر أني لم أصدف واحدة منهن أعربت عن ندمها على ما فعلت، منتهى الكراهية والعنف مثَّلت حالة (روضة)، اشتركت وعشيقة زوجها (صفاء) بالتعاون مع عشيقها وابنها اليافع في قتل زوجها وإذابته بالأسيد حتى لم يبقَ منه سوى طنجرة عظام صغيرة كما تقولان، (روضة وصفاء)، تؤكدان معاً بكيديةٍ عالية: "قتلنا وغداً كبيراً ودفنا صرصوراً صغيراً". تهز (صفاء) برأسها يمنة ويسرة

وتؤرجح كتفيها وكأنها لم تشفِ غليلها بعد، "ابن الحرام، حتى ابنه حاول اغتصابه"، تمكَّنت (صفاء) من تزوير جواز سفر باسم (سوزان)، و(صفاء) أنثى جميلة بشعرٍ فاحم يصل حتى خصرها، كادت أن تفلت وتطير مبتعدةً لولا خدعة أمنية بسيطة قام بها المحقق من الخلف وعلى غفلةٍ، ناداها باسمها الحقيقي فسقطتْ، الابن أُودع سجن الأحداث، والعشيق سجن (عدرا)، وحين أُطلقَ سراحنا كانتا بانتظار حكم الإعدام؛ بعد سبعة أعوام تخللَ أحد المسلسلات المحلية لقطة سجنية صُوِرَتْ في سجن (دوما)، شاهدتُ (صفاء) ماسكةً على الدبكة مع الكومبارس.

***

كومونة وشعار الفرسان

كيف سنأكل؟ كيف نلبس؟ وكيف سنحافظ على صحتنا؟ نظافتنا ولياقتنا؟. ما هو نمط معيشتنا في سجننا. سمَّت المهندسة (رزان) نمطَي حياة بأسمائهما السياسية الاقتصادية لتشكيلة اجتماعية، خيرَتْنا بين نمطٍ رأسمالي خاص أو نمط اشتراكي عام، بدا الخيار واضحاً لدرجة السذاجة، شرحتْ بتفصيل أكبر لتفهمنا ما فهمناه وعرفناه وندفع أعمارنا ثمناً له، قالت: "كل ما يأتي للفرد ملك للجميع: أكل، شرب، ملابس، منظفات، مُهَرَّبات، قرطاسية... إلخ". النمط المقترح كومونة، وقعنا جميعنا في غرام التسمية، ومن أجل الإساءة للتشكيلة الأولى وتفخيم الثانية قالت: "رأسمالي يعني أنا... اشتراكي (كومونة) يعني نحن"، فرددت (ميساء) شعار الفرسان الثلاثة الجذاب (الفرد من أجل الجميع والجميع من أجل الفرد)، وهتفنا مستحسنين. قذفت (رزان) وسطنا بجاكيتها الصوفي الفاخر الذي استطاعت صيانته بأعجوبة، ففعلنا مثلها بأعز ملكياتنا الفقيرة حتى الشفقة. قبعت عيوننا الإيديولوجية الطيبة التواقة للعدل والمساواة خلف خيارنا الذي جلب لنا في البداية سعادةً قصوى قبل أن يتحولَ إلى مُوَلدٍ نشط لخلافاتنا وإشكالياتنا التي كادت تصدعنا. أمي كانت تقول: "يمو إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك"، يبدو أن عدم الوفرة هي السبب، كان فقرنا الشديد وقلة وارداتنا خلف اهتزاز مشروعنا الجماعي. تحوَّل أفضل

ما لدينا من ملابس إلى خرقٍ. يا إلهي! نحن ما زلنا معزولين عن الخارج، وأشك أن ذوينا علموا بوجودنا هنا، ولو علموا فلا زيارات، أما في حالة الوساطة الاستثنائية فإنها عديمة النفع لدرجة تستحق الرفض. جاء ظني في محله، غدا احتياجنا لكل شيء شديداً، كان على أهلي إيجادي مرةً أخرى بمساعدة الأصدقاء والمعارف وأهل الخير، وتوجَّبَ عليهم السعي للحصول على الموافقة الأمنية للزيارة التي عشت على إيقاع انتظارها أياماً جمرية خناقة، بتُ متأكدةً أني لن أحظى بزيارة أمي، أما صورة والدي الذي لم يعد النطق العقلاني يسعفه فقد أرَّق لياليَّ الطويلة، والدي يتقن الفرنسية والإنكليزية ويقرض الشعر ويتذوق الموسيقى ويكتب خواطر جميلة، لم أطمح لرؤيته مجدداً، كنت واثقة من رحيله قبل الإفراج عني، وسأعلم بـ (موال الندب والنواح) الذي أطلقته أمي أمام جثمانه المسجى على مسمع من مشيعيه الكثيرين حين سارع الحكماء للنصح بـ (لمِهِ) خشيةَ وصولهِ لآذان أمنية قادرة على مفاقمة المصيبة: (فوق الموت عصة قبر)... استهلته بـ "غزلان الحدود، نمور الداخل، قطط الخزائن"... حين زارني شقيقي في السجن للمرة الأولى، قال إن أمي لن تزورني كي لا تُضعفني. الحقيقة أنَّ مشاعرنا تجاه الزيارات صارت متناقضةً، فالزيارات تُنعشنا وتُشقينا بآن واحد، تُعَرِّضنا للتعاسة والضعف وفقدان الأمل. بعد خروج (رياض الترك) سجين زنزانته المنفردة لثمانية عشر عاماً، قال: "إن أشقى أيامه يوم سمحوا لزوجته وابنتيه بزيارته بعد مرور ثلاثة عشر عاماً على اعتقاله"، بعدها رفض الزيارة مطلقاً، فقد هزَّته حتى الجذور. كتبت إحدى الرفيقات في جريدتنا الحائطية السرية: الزيارة تضيء عتمتنا لربع ساعة قبل أن تُعيدنا من جديد إلى كهوف اليأس والكآبة. بدأت زيارة شقيقي متعثرةً قبل أن تنتظمَ وتصبح مصدراً لاعتزازي وعرفاني وتغدو منتظرةً بشغف من الجميع لأنها شكلت مورداً غذائياً هاماً (زيت، سمنة، مرتديلا، زعتر، جبنة، زيتون... إلخ)؛ فأردُّ أنا بإرسال مصنَّعات سجنية، لأن باعي طويلة

في مجموعة البنات (الفنانات الكادحات)، أخصُّ بها أولاد وبنات أشقائي وشقيقاتي وأدسُّ فيها رسائلَ أكتبها على (محارم كلينكس) بصبر أيوبي جميل.

نمط الحياة المعيشي الكوموني بدا مبهراً قبل أن يتعثَّر ويبهت حتى خبا واحتاج إلى جرعات حياتية أفلحنا بتأمينها بصعوبة. شكّلَ هذا النمط الجماعي قوةً بالضبط لأنه جماعي، لكن ثغراته بدأت تظهر مع الفردانية التي تضيق بالحواجز والقيود. أكلة الأهل المجبولة بشغاف القلوب لابنتهم ينوبها منها لقمتين، وعلبة الحلو المشتهاة حتى سيلان اللعاب تحظى منها بقطعة واحدة أو قطعة ونصف؛ لا أبالغ، فقد حكَّمنا برقابنا إحدى رفيقاتنا التي كانت عدالتها القاسية قادرة على تنصيف زيتونة، حاولتْ إحدى مناوباتِنا الطارئة إكرامَ صاحبة الهدية بزيادة حصتها، فحصدت استنكاراً ردها على أعقابها، وتبرَّأت الملتمَسَة من اهتمام رفيقتها المتعاطفة، الكنزة المقبولة يتناوَبُها الجميع حتى غدا الاهتمام بصيانتها ضعيفاً فآلت إلى عدم، جاكيت (رزان) المفخرة الذي حفظته عبر درب الآلام الطويلة تحول إلى نكرة فقيرة، الشامبو والمنظفات إجمالاً غدت محوراً للإشكالات، لن أنسى، رصدنا حمام إحدى رفيقاتنا التي بذَّرت باستهلاك الشامبو بشكل فاضح، دَفَعتْ تهمتنا بضعف فعاليته، تصدَّت لها مهندسة كيمياء وأفهمتها أن الفعالية في تركه خمس دقائق على الشعر وفركه جيداً وليس بتكرار دلقه وغسله ثلاث مرات، المصنَّعات السجنية: جزادين خرز، تعلوقات، لويحات، رسومات، مسابح، أساور ملونة، شغل صوف، شغل برّق... إلخ... تقوم بها مجموعة لا يتجاوز أفرادها أصابع اليد الواحدة، مجموعة أخرى تعمل على تصريفها عبر (القضائيات) أو مقايضتها، ندفن في مصنَّعاتنا أعصابنا وأبصارنا، صناعة المسابح والأساور الملونة من نُوَى حبات الزيتون يُذيب جلود أصابعنا حتى الجروح، "حك نوى حبات الزيتون من الطرفين على السطوح الأرضية الخشنة وصولاً للتجويف"... تضحك

الدكتورة (رنا): "ستموت بصماتنا، لن يتعرفوا على هوياتنا".

لسنا جميعنا مشغولاتٍ بعملٍ مفيد؛ هناك رفيقات لا تؤدين لا هذا العمل ولا ذاك، ولكنهن موعودات بزيارات، والزيارات تعني طاقة فرج مادي أكيد ومفيد، إذن لدينا كادحات، لدينا وسيطات، ولدينا أميرات، والأميرة تستقبح اللقبَ التهمةَ، تدفعه ببيّنة فقدان المواهب والمهارات "لا أتقن هذا ولا ذاك ولا أستطيع شيئاً"، تجيبها أخرى بسخرية: "إذن أنتِ أكَّالة خرّاية"... عِلْقِتْ، شجار، مناقشة حادة، انتقاد، انتقاد ذاتي، وعد بعدم التكرار، اعتذار، هدوء نسبي، عقلانية "عفواً رفيقة أنا مدرسة رياضيات، أنا لست كسولة، تعالوا أعلمكن درس رياضيات". تغمزني رفيقة يائسة بائسة "دبريها معها، جاوبيها لشوف". صمت، صمت، احتقان فوق احتقان، انفجار، ونبدأ من جديد من حيث انتهينا، وجدنا حلاً، كنا قد اعتمدنا مبدأ الخدمة التنظيفية العامة وسميناها (سيريلانكا). حسناً، من لا تفعل شيئاً نزيد حصتها من مناوبة السيريلانكا، وهذا الإبداع الجديد انتصب على قدمين اثنتين قبل أن يبدأ العرج وينبئ بالشلل، غدونا سخيفات حتى القرف وتبادلنا التهم والإهانات لأسبابٍ تافهة، عانينا معضلة كادت تعطبنا، فشلنا في منع اختلافنا بالكبائر والصغائر، فحاولنا إدارة أزماتنا وخلافاتنا تخفيفاً وتأجيلاً بغية تجنب الاحتقانات الجاهزة دوماً للتحول إلى انفجارات، تأخَّرنا حتى فهمنا من كيسنا. أنه لا يجوز رد التهمة بتهمة، ولا الشتيمة بشتيمة، توصَّلنا إلى قناعة مفادها: ضرورة تفنيد التهمة الموجهة أو الشتيمة المطلقة وليس التقاطها وتذخيرها وقذفها بوجه الآخر. تجرأنا على مناقشة مبدأ الملكية العامة من جديد وحاولنا إكسابه مرونةً وحوافزَ وخصوصيةً ولم يتحسنْ الوضع إلا قليلاً، يبدو أن (الطميشة) كانت تحجب أبصارنا عن خلفيات خلافاتنا، فنحن نمارس حياة لا طبيعية على مساحة مترية لا تتجاوز حصة الفرد فيها ثلاثة أمتار مربعة، عالمٌ مغلق حتى (الطقيق)، كيف يمكن ممارسة سلوكية إنسانية راقية

أو معقولة في أجواء دونية خانقة تُمسك بتلابيب أجسادنا وأرواحنا؟. كسحتنا قناعات قاتلة تفيد أن الوصول إلى تعاطٍ سليم أو معقول أشبه بالمستحيل، فغرابة مجتمعنا الحالي تستدعي وترعى كل سلبياتنا وكبواتنا، تستخرج أسوأ ما فينا. لا رحابة صدر لدينا أبداً، من أين نأتي بها؟ هل تهديها لنا جدراننا الإسمنتية أم وجوه السجَّانين والسجَّانات السميكة؟.

***

العيب ليس فينا...العيب في الأسر الوطني الذي طال!

أنزلنا الكومونة من عليائها، وضعناها على المشرحة، تعالوا نعيد النظر من دون قناعات مسبقة، من دون تعصيب؛ تساهلنا، أبدينا مرونات عديدة، أطلقنا سراح مخزونات، تريثنا، راقبنا، يبدو أنه لم يكن بالإمكان أفضل مما كان.

تأكدنا عبر مقارنات وموازنات عديدة أننا لم نكن مخطئين في اختيار نموذج العيش الجماعي المشترك، فتجارب هامشية بسيطة أطلقناها أنذرتنا بعيوب ومصائب قد تفوق جلَّ ما مر على رأسنا، فضلاً أنه كان مستحيلاً إخراج أنفسنا من جلودها، فلا يمكننا قول شيء والتفكير بشيء وممارسة شيء آخر مختلف تماماً، لم يكن ممكناً أبداً اختيار حلٍ آخر. تجرَّأت مرات عديدة على مراجعة الذات بصراحة ووضوح: لو أعادت الحياة الكرة مرة أخرى إلى ملعبي قبل عقدين من الزمن، هل كنت لأختار طريقاً أخرى؟. لا أعتقد ذلك أبداً فتلك قناعات وثيقة الصلة بسيكولوجية الإنسان وبالحليب الذي رضعه كما اعتاد أن يردد أحد أقربائي من جيل خمسينات القرن العشرين، المفارقة المرعبة كانت في حجم الثمن المدفوع، في الكلفة الباهظة للرأي أو الانتماء أو القناعة... في (بلادِ الناسِ) يُحاسَب الإنسان على ما اقترفت يده، في بلادي على ما

يدور في خلده، أليست المأساة تكمن هُنا بالذات؟. تأخرنا جداً حتى فهمنا أن العيب ليس فينا ولا منا ولا بنظامنا الجمعي ولا بمشاعرنا وحواسنا وسلوكياتنا وأخلاقياتنا وتربيتنا، العيب كل العيب في الأسر الوطني الذي طال، طال كثيراً ويبدو أنه لا ينوي اختصار أمد إرخاء ثُقله على صدورنا، قلوبنا، أدمغتنا، أرواحنا التي لم تعد تحتمل. كان المناضلون السوريون فيما مضى يفاخرون بدخول السجن الاستعماري أو الوطني لفترات متفاوتة بدت قاسيةً في فترة الوحدة السورية المصرية حيث قبع البعض قرابة سنتين في السجن، فمنحتهم جموعٌ منا لقب أبطال المزّة[4] وغدوا معروفين على مستوى العرب والآخرين واحترمهم حتى الخصوم لثباتهم على مبادئهم وأخلاقياتهم وقناعاتهم الخطأ أو الصح.

منذ ستينات القرن العشرين ولغاية الآن ستفاجئ بلادي عالم العرب والعوالم الأخرى بفترات سجنية زنزانية سياسية من طراز قصة (كونت دي مونت كريستو)، تَفَوَق السجن -عالي الجودة- لأقدم سجين سياسي في بلاد العالم (نيلسون مانديلا)، سنتعرف على (رياض الترك) و(فارس مراد) و(هيثم نعال) و(عماد شيحا)، (عماد) ذو الرقم القياسي ثلاثين عاماً؛ أحس في بعض جلسات الأسى الوجدانية بالصغر والتقزم، فكل ما قضيته كان أقل من خمس سنوات، "حدا بيحكي فيها؟". أعتقد بأننا سنفاجأ بمن سيتمكن من كسر رقم (عماد) القياسي، وسنتعرف على (أبو الأربعين) وهذا أبداً ليس غريباً ولا مستبعداً. مؤخراً ذكروا اسمه أمامي وهو يجتاز العام السادس والثلاثين ولا أؤكد ذلك، لهفٌ روحيٌ ووجداني، فبلادي قد تدخل (موسوعة جينيس) للأرقام القياسية السجنية.

***

[4] سجن المزَّة.

ليس ضاراً أن يحلم الإنسان أحلاماً جميلة!

سرقنا من الحكومة تسمية وزير، لدينا وزارة واحدة هي كل ما نحتاج، هي طبعاً وزيرة الاقتصاد، انتخبناها دورياً وضعنا مقدراتنا بتصرفها، (الواردات، المبيعات، هدايا الزيارات)؛ ميزانية مدروسة بدقة، مهارات حقيقية لتدوير أو تمرير أزمات معيشية، ننفذ تدابيرَ غذائيةً وكسائيةً صارمة بالتزام متفاوت... دعتنا وزيرة الاقتصاد إلى اجتماع طارئ هام في المهجع رقم (3). من دون مقدمات أعلنت اختلال الميزان فالمصروفات تفوق الواردات استدراكاً لانحدار نوعية الطعام السجني الذي ساء مؤخراً جداً. طلبتْ شد الأحزمة على البطون؛ من أين لنا البطون؟.

اعتُمدتْ سياسة تقشفية، في حال عدم تنفيذها ستكون مؤونتنا في منتهى السوء، فواردات الأهالي غدت شحيحة بسبب قلة الزيارات بعد ترشيدها أو منعها لمدد متفاوتة بسبب تعليمات أمنية صارمة، عشاؤنا في ذلك اليوم بدا ظالماً، ثلاث زيتونات وقطعة خبز سجني كبيرة... في اليوم التالي: 1/3 خيارة، قليل من الملح وقطعة خبز كبيرة، لدي نقطة ضعف شديدة حيال الخيار والبندورة، اجتاحتني -عند رؤية التقطيع الثلاثي- رغبة الانقضاض على خيارة كاملة وليحدث ما يحدث، وماذا سيحدث؟ سيفاجأ الجميع، وريثما يستعدن وعيهن يكون (اللي ضرب

ضرب واللي هرب هرب)، وكدتُ أنفذ ما انتويته بوقاحة فريدة، ولكني تخاذلت في اللحظة الأخيرة، وكان عليّ الاكتفاء بتأمل الأثلاث المحضونة بأصابع البنات، اكتفيت بالتمنيات وحلمت بالحصول على خيارة كاملة وقرص بندورة كامل وحتى موزة كاملة، زوجة شقيقي تردد دوماً: "ليس ضاراً أن يحلم الإنسان أحلاماً جميلة". يا إلهي! إلى أي درك غريزي بسيط انحدرت أحلامنا؟. وقعنا في فخِّ التقسيم الفظيع، ورحل عنا تدريجياً حلم الحصول على ثمرةٍ كاملة، تتحدث (ميساء) كنائحة: "إذا طلبتِ من سميرة كنزة فلن تردكِ خائبةً، بالتأكيد ستعطيكِ كُماً كاملاً واحداً أو كُماً ونصف في أحسن الأحوال، كلمة زوج جوارب لا تجيبيها على لسانك، إذا كنتِ واقعية اطلبي فردة جوارب". هذه الفترة بالذات أعادتنا بالذاكرة إلى أحوالنا المعيشية في فروع التحقيق وخاصة فرع (فلسطين) حيث العشاء الدائم شوربة عدس مع (بحص كثير)، حدث إحدى المرات أن فاجؤونا بـ بطاطا مسلوقة مع ملح، فطار عقل الصبايا لدرجة أن حناجرهن أطلقت أغنية صباح المحوَّرة (عالبساطة البساطة): "البطاطا البطاطا يا عيني عالبطاطا"... بعضنا تأمَّلَ الأقراص وفكر ملياً كيف سيأكلها (تقطيع، معس، دوائر، رقائق)، قضمناها بلقماتٍ سريعة واسترحنا منها.

مع صدور التعليمات باستئناف الزيارات تجدَّدت وازدادت وارداتنا من جهة، ومن جهة أخرى أفلحت جهودنا في تنشيط سوقنا مع السجينات القضائيات اللاتي كن يسخيْنَ بمشترياتهن منا قبل خروجهن إلى الحرية التي تتعاطف معهن أكثر منا. وهلَّت بشائر اجتماع من نوعٍ آخر؛ دعتنا الوزيرة العتيدة إلى اجتماع طارئ عنوَنَتهُ ابتسامتها العريضة، مهَّدتْ بشرح ظروفنا الاقتصادية السابقة والحالية الواعدة، أعلنت انتهاء المحنة الظالمة والتقشف الشديد والعودة إلى دعم الطعام السجني من وارداتنا المتحسنة وختمت كلامها ببرهان مادي لا يقبل تأويلاً، قدَّمت لكلٍ منا دفتراً صغيراً وقلمَ رصاص.

فعلتها الحسناء القفقاسية...يبدو أن أجلنا لم يحن بعد!

نعم نحن في سجن النساء، وهو سجن بالتأكيد، ولكنه كان قصراً كما تؤكد الحكايات التي تناقلتها السجينات الجديدات عن القديمات منقوصةً أم مزدادةً، فتتقاطع مواصفات واحتياجات السجن مع القصر، ففيهما الأبواب الحديدية والشبك الفولاذي وحرس الأسطحة والساحات، أقدم سجينة مؤبدة تنقل عن أخرى أكثر منها تأبيداً سيرة طرية حلوة فتقول: "لو كان لهذه الشجرة وبركة الماء ونافورتها أفواه لتحدثت عن العشق والفسق والوله والجحود والجمال وخفايا الروح والجسد والملَّذات والليالي المقمرة أو المعتمة، الحزينة أو السعيدة"... سيدةُ القصر وعِلّةُ بنائهِ امرأة قفقاسية فردوسية من جبال الإلبروس الصخرية الخضراء العالية القريبة من السماء حتى الالتحاق بها. جاءت مع عائلتها ضمن عشائر قفقاسية عدة، هاجرت من بلادها بعد حروبٍ طاحنة مع القياصرة الروس وتم ذلك بدعم السلطنة العثمانية وبريطانيا العظمى، وحطت رحال لجوئها في (شام شريف) درة تاج السلطنة. حين وطأت أقدام المهاجرين الأرض الشامية خلعوا نعالهم كي لا يدنسوا طهارتها. رجالهم المحاربون القساة على الذات والغير انخرطوا بالعسكرية الانكشارية وبعض النساء البيضاوات الممشوقات غدونَ

زوجات أكابرٍ وولاة وحتى حريم سلطان، ولكنَّهن فقدن الكثير، فالمرأة في بلاد الشام ليست كمثيلاتها من خلق الله القفقاسيات، جمال القفقاسية وملاحتها أدهشا الوالي العثماني وحرماه النوم ولم يعاوده إلا بعد أن أجبر صديقه -التاجر الدمشقي- على طلاقها ليجعل منها زوجةً شرعيةً إضافيةً لا بد من حجبها عن عيون الآخرين خشيةَ أن تتحدث الأفواه بجمالها الفتَّان فتصل (علومها) لأسماع السلطان فيحدثُ للوالي ما حدث للتاجر. بنى لها قصراً خارج (دمشق) وسط (غوطتها الخضراء)، فغدا لها سجناً بجدرانه وحديده وحرسه وخدمه، وليالي الوالي التي بدأت حمراءً فاقعة تدَّرجت حتى غرُبتْ ألوانها وبهتتْ، ففي شرايينها سرت طبائع القفقاسيات ذوات الأعناق المحدقة بالأعالي، محمولةً على أكتاف رجالٍ بكل امتنان، فالشباب يعتز بخدمةِ الأنثى، أمه، أخته أو حبيبته، الفارس المغوار القادم من بعيد يترجَّلُ بمجرد وقوع عينه على أنثى، ويسير بجانب فرسه حتى يحاذيها، فيرمي سلاماً ويعرض مساعدةً ويمضي بعيداً قبل امتطاء فرسه من جديد، الأنثى القفقاسية بإمكانها إنهاء قتالٍ بمجرد توسطها المتقاتلين ونزعِ شالِها عن رأسها وقذفِهِ على الأرض، والأنثى ترقص وتعزف وتُغازَل وتغازِل بأحلى وأرقِ العبارات والإشارات والإيحاءات. القفقاسية قالت: "أنا عصفورة في قفص"، والقفقاسية تمنَّت أن تطير، ولما فشلتْ حزنتْ، ولما حزنت ساءت أيام الوالي ولياليه، والوالي صبرَ وفكَّرَ وقررَ أن الأنثى التي رفستْ التاجر قد تُتبعُه بالوالي، إن لم يكن قريباً فبعد حين، طلبَ النصحَ فاستعصى، طلبَ استعادةَ الودِ واللهفةِ والرغبة فلم يحظَ بشيء، قدَّر أنه لو استمرَّ الحال على هذا المنوال فإنه سيموت كمداً لا محال، لكن الذي حدث أن القفقاسية هي التي فعلتها، كتبتْ نهايتها بيدها، ذبحتْ نفسها قرب البركة وتحت مياه النافورة، بظلال الشجرة. الحسناء القفقاسية أحبَّت الحياة، وحياتها القصرية السجنية لم تكن حياة؛ يا بنات... يا بنات، إنه قصرنا، سجننا، فهل تفعلها إحدانا قرب الشجرة أو

النافورة أو الشبك الفولاذي، كان ذلك متاحاً، فكَّرنا في هذا مراراً، ولكننا لم نفعلْها، يبدو أن الأجل لم يحنْ بعد...

***

زمن السقوط...قاماتنا انتصبت بعد انحناء!

أمرٌ آخر في منتهى الأهمية، لطالما تهيَّبت الكتابةَ عنه، لحظتُه على نمطِ خواطر لكني لم أنشره آنذاك في جريدة الحائط السجنية السرية، كان هماً من أعظم همومنا، مسالة أخيرة، ولكنها -وفق قناعتي- كانت لا تزال آنية وراهنة، مسألة المسائل كلها من ألفها إلى يائها، عمرُها أكبر من أعمارنا وأعمار أهالينا وحتى جدودنا، المسألة التي مثَّلتْ خيارنا وصاغت شخصياتنا وأفكارنا ونمط حياتنا وحدَّدت مسارنا ومصيرنا وقادتنا إلى المعتقل والسجن، هي مسألة الانتماء الفكري والسياسي والحياتي التي غدت بين يوم وليلة مفتوحة على كل احتمالات الدنيا بدءاً بالنكران والتخاذل وانتهاءً بالصمود والعناد والتعصب مروراً بمختلف الأزمات والتبريرات والقناعات والمؤامرات والسلوكيات المسرحية أو الكاريكاتورية أو الدونكشوتية أو التراجيدية... في الواقع لا يزال متعذراً عليَّ رسم صورة متماسكة، مقْنِعَة أو معقولة لردَّات أفعالنا ومشاعرنا وطرق تفكيرنا في ذلك الزمن السجني الرديء الذي شهد ما اعتمدنا تسميته زمن السقوط، سقوط وزوال الاتحاد السوفيتي وتفككه الغرائبي، سأتناول تجربتنا النسائية السجنية السياسية اليسارية لا من حيث الكيف والكم والنوع، وإنما من حيث الزمن لأتمكن من تمييزها

عن سابقاتها في بلادنا لقوى اليسار عامةً، فكل الصدامات مع السلطات الاستعمارية أو الوطنية الديكتاتورية في مطلع القرن العشرين وحتى ثمانيناته كانت في ظل وجود فلسفة عالمية هامة جبارة مساندة لليسار، ولا أعني بذلك المساندات المادية فلطالما ساند اليسار العالمي ثورة أكتوبر وبلاد أكتوبر ودَعَمها بالمال والسلاح والمقاتلين، أعني الرصيد المعنوي الهائل بوجود دولة العمال والفلاحين التي غدت منظومة اشتراكية ضمَّت ثلث سكان الكرة الأرضية، الأمر الذي شكلَ سنداً حقيقياً لشغيلة العالم وقواه التحررية وحتى المحافظة منها، (بالتأكيد دولة مثل السعودية خسرتْ أيضاً بزوال الاتحاد السوفيتي قطباً مناوئاً لمن يستفرد الآن بالعالم قاطبةً ويملي إراداته على البشر والحجر). سأتحدث عن الزمن الذي غطى اعتقالنا وسجننا تقريباً ما بين منتصف الثمانينات ومطلع التسعينات وهو الزمن الذي واكب سيرة وانهيار وسقوط المنظومة الاشتراكية وقيادتها "الاتحاد السوفيتي" الذي بلغ عمره عمر (البني آدم)، أي 75 عاماً...

حين حان أجل الحسناء القفقاسية -سلفتنا أسيرة قفصنا- رحَلتْ، وبعضنا فكرَ بالرحيل كما أسلفتُ على طريقتها أو خلافها، ولكن الأجل لم يحن بعد كما حان بالنسبة لواحد من أنبل وأشجع وأنقى الناس الذين التقيتهم، أعني رفيقنا (مضر الجندي) الذي (جاء خبره) ولم يأتِ أثره، لكن أجلاً آخر أتى، بدا وكأنه غافلنا كما لم يفعل أحد معنا من قبل، ولم يخطر ببال أكثر العقول استطلاعاً وتنبؤاً أو تنجيماً، ولم يردْ في أشدِّ الأحلام عبثيةً وفانتازيةً، بدا السقوط كوميدياً تراجيدياً بلاهياً مذهلاً بكل المقاييس، وللأعداء قبل الأصدقاء، وللمراقبين والمتتبعين قبل اللامباليين والجاهلين، ففي أواخر آب 1991 يقف ميخائيل غورباتشوف[5] ليعلن من الكرملين ومن قلب الساحة الحمراء أن

---

[5] رئيس الاتحاد السوفييتي والأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي.

الشيوعية كذبة كبرى. يا إلهي، يا إلهي، كلمات قليلة مقتضبة تُقوِّضُ مائة عام من الثورات والانتصارات والنجاحات وملايين الضحايا وأنهار الدموع وبحار الدماء، ماذا يعني هذا؟ ماذا كان ذاك؟ وماذا بعد؟ نحن شيوعيات سجينات على ذمةِ هذا الفكر المهزوم في أهم قلاعه، بجانبنا أصوليات، وقضائيات، أُصبْنا بالبكمِ والخرَسِ وزاغت أعيننا قبل أن تعتاد التحديق في اللاشيء ولا تدرك أي شيء. كنا أسرى نظامٍ شمولي صنَّفنا في عداد الأعداء وصرنا أسرى وضحايا (الكذبة الكبرى) التي لم ترد على لسان خصوم الفكر الاشتراكي أو أعدائه الطبقيين، وإنما على لسان أحد قادة وطن الاشتراكية الأول، بل أعلى قادتهم. مرةً أخرى كيف؟ لماذا نحن في سجن النساء؟ نحن ننتمي إلى اليسار الوطني العربي الإقليمي والعالمي، جزء من المناضلين العالميين في كل مكان من أجل الخير والحرية والعدالة والسلم، سأعطي مثالاً، أبدأ بذاتي: جدي لأمي سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وعاد في أوائل القرن العشرين حاملاً معه (سَبَتْ)[6] ليرات ذهبية، وخالتي-ابنته البكر- (عمرها الآن مائة عام) كانت تلعب بهذه الليرات كما يلعب أقرانها الأطفال بالحُمُّصِ اليابس، وفي أيام (السفر برلك)[7] لم يَدَعْ أحداً من ذويه يجوع أو يُذلَّ في ظل السلطة العثمانية، وتبرَّعَ لأبناء عمه المثقفين الفريدين بمبالغَ سدَّدت عجز بناء واحد من أهم الصروح الثقافية في مدينتنا في ذلك الزمن، جدي هذا حمل معه من هناك أخبار شيكاغو وأول أيار و(شبح الشيوعية) الذي يجول العالم ليُسقطَ الرأسمالية ويبني الاشتراكية، ليعمل العامل 8 ساعات ويتقاعد في الستين، يؤمِّن العلم المجاني والطب المجاني والحرية للبشر والعمل والخير للجميع، إلخ... إلخ.

---

[6] صندوق جهاز عروس

[7] الحرب العالمية الثانية1914-1918

جدي لأبي سافر إلى أميركا الجنوبية وعاد صفر اليدين ليتحدث عن استخراج الذهب من الأنهار وانتفاضات الثوار، وبعد ثورة أكتوبر عام 1917 دأب جدايَّ ومعهم خلقٌ كثير الخروج إلى شمال المدينة لانتظار خيالة (جيش الشغيلة) القادمين لتحرير الناس وإقامة دول العمال والفلاحين والحق والعدل، التقيا الشيوعيين الأوائل في بلادنا فيما بعد وساندا كل الثورات والثوار واليسار حتى أخذ الله أمانته. أنا حفيدة أو بنت هذه الأجواء المشبعة بالارتباط بالإنسان بدءاً من الوطن وذهاباً إلى كل مكان وفي كل الأزمان. وكان أهلي قبلي، وصرتُ أنا معهم أو بعدهم شهوداً على أحداثٍ عظام وجسام.

وانطلق التغيير مع مطلع القرن العشرين من أجل عالم جديد بلا استعمارٍ ولا استغلال، واندلعت الثورات والانتفاضات في كل مكان. هزيمة النازية والفاشية، قيام منظومة الدول الاشتراكية، سقوط الجمهورية اليسارية في إسبانيا وهزيمة آلاف المتطوعين الأممين، فشل ثورة اليونان وهجرة مئات الألوف، الصين تلتحق بعالم الاشتراكية بمئات ملايينها، ثورات الهند الصينية والملحمة الفيتنامية، كوبا وثورتها، ثوار اليسار في كل مكان، غيفارا والرومانسية الثورية، الجزائر وشهداؤها المليون، تنظيمات الطلاب اليساريين المسالمة أو المسلّحة أو الإرهابية (توباماروس اللاتينية، بادرمايهنوف الألمانية، الألوية الحمراء الإيطالية، الجيش الأحمر الياباني)، الفدائيون الفلسطينيون (أبو عمار، جورج حبش، نايف حواتمة)، الشعراء الفلسطينيون (توفيق، سميح، محمود درويش)... بدا و كأن العالم يرقص على أنغام الثورات والغد الأفضل، ومثقفو اليسار في كل مكان، آلاف المفكرين والفنانين والكتّاب والموسيقيين ودعاة الجمال الإنساني يعزفون ألحان الحرية والعدل والحق بالحياة (بيكاسو، روجيه غارودي، شارل أزنافور، أراغون، جون شتاينبك، برنارد شو، ناظم حكمت، جين فوندا، مارسيل خليفة، أحمد فؤاد نجم، الشيخ إمام، ميكس تيودوراكس... إلخ).

وأنشدت الأجيال مع الشاعر التشيلي رائعته:

أجمل الأغاني تلك التي لم تصدح بعد

وأجمل الأطفال أولئك الذين لم يولدوا بعد..

وأجمل الأشعار تلك التي لم تكتب بعد....

وأجمل الأيام تلك التي لم نعشْها بعد..

وملايين البشر عاشت على إيقاع الأمل بالغد الأفضل وهو لا بد آتٍ كالقدر... وعدٌ لا بد أن يتحقق؛ لا مكان للتشاؤم في عالم (الثوريين). إن غداً لناظره قريب، التغيير آتٍ بدون شك، والرأسمالية لانحسار، وخارطة العالم تشي بذلك، فـ (سمة العصر هي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية)، والحزب (ضمير وشرف العصر). والمناضلون في كل مكان،) رأسٌ باردة، قلبٌ حار، ويدٌ نظيفة)، (يا ظلام السجن خيِّمْ.. إننا نهوى الظلاما). مئات الألوف المؤلفة من اليساريين قبعوا في المعتقلات والزنازين مع مجموعه ملايين السنين، منهم من عُذِّب حتى الموت ومنهم من أُعطب ومنهم من قضى شنقاً أو حصدته الرشاشات .

نحن حبات البذار...

نحن لا ننمو جميعاً

عندما يأتي الربيع...

بعضنا يهلك من هول الصقيع

وتدوس البعض من الأحذية

ويموت البعض منا في ظلام الأقبية...

غير أنّا كلنا... لسنا نموت...

نحن حبات البذار

نحن يا هتلر... يا فرعون نعلم

إن أطلال القبور

ستغطى ذات يومٍ بالسنابل

وسينسى الناس أحزان القرون

وسينسون السلاسل... والمقاصل

والمنافي والسجون

وسيكسون الأرض يوماً بالزهور

وستأسو الفرحة الكبرى جراحاً

في الصدور...

عندما يأتي الربيع

نحن إذ نحيا فمن أجل الربيع[8]...

والشباب الديمقراطي ينشد: "آمالنا المقبلات حشدتنا لنبني الحياة ونستثير النضال في قلوبٍ تحب الحياة..." "إنا نحب الورد لكنا نحب القمح أكثر"...

ألوف الشباب والصبايا توجهوا للدراسة في الاتحاد السوفييتي والدول

---

[8] قصيدة للشاعر المصري نجيب سرور

الاشتراكية، وكما هي الحياة دوماً غنية ومتعددة الأوجه، كان لا بد من رؤية الوجه الآخر. وعاد الشباب بشهادات علمية ورؤى وانطباعات معقولة، منحولة، مهزوزة، مخادعة، مراوغة، حقيقة أو كاذبة، ولكنها شديدة الاختلاف عن الصورة الرومانسية المألوفة.

تحدثوا عن النظام والفرد والخوف والتاريخ والحرية والمؤامرة والحياة السياسية المجتمعية والدستور والقانون والسجون والقبضة الأمنية القادرة على سحق كل شيء باسم العمال والفلاحين والوطن الاشتراكي، والخوف الذي غدا سيداً وثقافة الرعب التي غدت فلسفةً والصوت الذي بات واحداً والمدّاح الذي أصبح مسؤولاً والناقد عدواً والمناصب التي تأبدت والمجتمع الذي انتقل من الحركة والتفاعل والتغيير إلى الجمود والركود والموات.

في عوالمٍ أخرى مثل الولايات المتحدة، أوروبا الغربية، أستراليا، اليابان، تزدهر دولة الرعاية والرفاه وترتقي هوامش الحريات والتعبير والتنظيم.

تحدث الناس السوفييت عن همومهم وآلامهم وأحلامهم المهزومة واستعادت الذاكرة الجمعية الشعبية كل شيء، بدءاً بالملايين السبعة الذين سقطوا لتحقيق ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، وانتهاءً بالملايين الـ (27) الذين سقطوا في الحرب الوطنية العظمى، مروراً بالملايين الـ (6) المعتقلين في المعتقلات السيبيرية بتهم الخيانة وعداوة الشعب والوطن وتساءلوا عن سبب فقرهم رغم ثرواتهم الباطنية الأسطورية وعلومهم المتطورة، وعن سبب انتخاب وترشيح من يُراد لهم ولماذا تعتبر الإضرابات ممنوعة وخائنة وتجري المسيرات والتجمعات بإيعازات؟ ولماذا الحزب واحد؟ ولماذا القبضة الأمنية تتحكم في كل شيء؟

حين أستعيد تلك الأيام السجنية التي عاصرت السقوط المدوي،

أستغرب كيف احتملت عقولنا وأجسادنا ما جرى... استمرَّ الاحتقان أياماً، شرطي بدوي واساني، قال: (جماعتكن السوفييت خلوا بيكم يا أنسة سلام) وملازم حمصي سمعه أثناء عبوره فأكمل بلهجته البدوية وبصدقية عالية لم تخفِ ذاتها: (وبينا كمان وحياتك يا خلف)، أنقذتنا الدموع، ولكننا كنا بحاجة لأكثر من الدموع، كنا بحاجة لاسترداد أرواحنا التي بدأت بالرحيل عن أجسادنا. تذكرتُ خساراتنا القديمة، وأهمها خسارة معركة الحزب التي بادلناها بمعركة الحفاظ على الذات والقيم والأخلاقيات، شعرت أننا نغرق، وأننا لا بد أن ننقذ ذواتنا مرةً أخرى. "حسيبة" التي بكت ليلاً، استفاقت صباحاً وعلى وجهها إمارات وعلامات تشي بالتحدي الذي فارقها منذ زمن، "سحر" الدائمة الخلاف معها بسبب ومن دونه تناولت إفطارها معها، ولفتنا -بينهما- فنجان قهوة حرناً في كيفية تأمينه، وكدنا نجزم أن مصدره الأصوليات اللواتي نختصم معهن أو القضائيات اللواتي كن نتجنبهن، أهملنا هذا الجانب تماماً حين وجَّهتا الدعوة لجميع الرفيقات للمداولة في موضوع واحد وعنوان واحد، وجئنا إليهما متعثرات وملامحنا تشي بالقرف من أي تبرير أو صف كلام (لا يودي ولا يجيب)، ولكنهما خذلتانا بشكل مدهش ومفرح حتى الدموع، أبداً لم نتوقع ما قيل. ولا زلت حتى الآن أشعر بالامتنان الشديد للكلام الواضح والصريح والمفيد والشجاع والآسر الذي غمرتانا به وجعلنا نستعيد ذواتنا وأرواحنا بحق. تحدثتا كل على حِدَة وبدتا متناغمتين متوافقتين ونوعيتين لدرجة الحسد، ولم تردد إحداهما ما قالته الأخرى، يبدو أنهما -المختلفان أبداً- أنجزتا أهم اتفاق في حياتهما الاجتماعية والحزبية والسجنية المشتركة. باختصار وتماسك طرحتا المشكلة وتأثيرها والموقف منها، وأتى جوهر كلامهما منطقياً مقنعاً وفاتناً لدرجة اعتقدنا بأنهما تزيلان -عن حقائق بديهية- أكوام قشٍ حجبت رؤانا لما جرى، كيف لم نفطن لذلك؟. قالتا: ليست الأنظمة أساساً وغايةً وإنما المجتمعات، ليست المجتمعات وإنما

البشر، وطموحات البشر للعدالة والحق والحرية والكرامة والكفاية كانت قبل انتفاضة العبيد وسبارتاكوس وبقيت بعدها، وقبل الثورة الفرنسية وعصر أنوارها وبقيت بعدها، وقبل كومونة باريس وثوارها وبقيت بعدها، وهكذا كانت ثورة أكتوبر وشهداؤها وضحاياها وإنجازاتها وإخفاقاتها وستبقى بعدها، هذه سنة الحياة، الاتحاد السوفيتي لم يُهزم من الخارج بل من الداخل، لم تدحره الجيوش ولا المخابرات ولا المؤامرات أو الشطارات، فالاتحاد السوفيتي كان مهزوماً بداخله، وسبب هزيمته هو هزيمة الإنسان الحقيقي بذاته ولذاته، لم تُهزم القيم والأفكار النبيلة، وإنما الدخيلة الخاطئة التي قد تكون في أحسن حالاتها آمنت بالدولة أو الوطن على حساب الإنسان، وهنا بالذات خلل المعادلة القاتل، فحب الوطن لا بد له أن يمر عبر احترام الإنسان وحبه .. أعتقد أن السقوط جاء نتيجة عقابية تاريخية لاختزال الشعب بالبروليتاريا والبروليتاريا بالحزب والحزب بالقيادة والقيادة بالقائد الأوحد، والقائد اعتمد شكلاً على الجهاز الحزبي، وفعلاً على القبضة الأمنية التي حلت سرطانياً مكان المؤسسات المجتمعية والدولتية والحزبية، فسادت مفاهيم السرية والتخوينية والفسادية والانفصامية وألوان الولاء ثقافةً سممت حياة البشر.

ما قيل بدا لي تفسيراً معقولاً للسقوط الدرامي الذي هزَّ العالم مطلع العقد الأخير من القرن العشرين. بعد هذا تحدثنا عن (نحن)، من نحن؟ نحن لسنا من جماعات النظام، نحن من جماعة الإنسان، لم نستلم سلطة ولا مناصب، نحن نتحلى بالنزاهة والشرف والنقاء في كل ما يخص قضايا الوطن والناس، لم نضطهد أحداً ولم نسجن أحداً ولم نسرق مالاً عاماً أو خاصاً ولا نزال في سجننا هذا ندفع ضريبة الموقف من أعمارنا، بل أن بعضنا دفع كلَ عمره، نحن مع الحق والعدل والكرامة والكفاية والحرية ولسنا مع الأنظمة، وليرحل كل نظام لا يخدم الإنسان، وليبق الإنسان وكل من يخدم -بنزاهة- أخاه الإنسان .

مات الاتحاد السوفييتي... هل أصبحنا أيتاماً؟... هل غدونا أضعف؟... نحن محبي الاشتراكية بنواياها الطيبة ورؤاها الفكرية ودروبها المعقدة التي يصنعها الإنسان، لم ولن يبلغ أي كمال والذي سيظل يصيب ويخطئ أبداً. نحن أحزاباً وجماعات وأفراداً طامحون إلى أزمنة أفضل لنا ولأولادنا وأحفادنا، هل هُزمنا حقاً؟ هل انتصر الطرف الآخر حقاً؟. نحن نعتقد أن ثورة أكتوبر ونضالات البشر على الكوكب دفعت الطرف الآخر ليكون أفضل وليعامل الإنسان في بلدانه بطريقة أكثر إنسانية وعقلانية وأخلاقية، ويخطئ من يظن أنها ذهبت عبثاً رؤى الفكر الاشتراكي وفعاليات وتضحيات البشر النضالية.

نعتقد اليوم وأكثر من أي وقت مضى أن التناقض سيبقى بين الظّلام والمظلومين، بين سالبي الحقوق والمستلبين، وسنجد أنفسنا -دوماً- بجانب الضعفاء والمظاليم والفقراء والمضطهدين، وهذا ليس خياراً فوقياً أو منةً، ولا بدواعي حسابات حكيمة أو عقلانية، وإنما غالباً استجابةً لا إرادية فيها الكثير من العفوية والوجدانية لإيحاءات جيناتنا وسيكولوجيتنا التي تنتمي إلى هذه الفئة (الحقانية) من البشر التي ما زالت تراهن على الجياد المنهكة وتخسر رهاناتها وتدفع أعمارها أثماناً غاليةً، مكررةً ما فعله قبلها كل الناس الذين بالغوا بإحساسهم بآلام وآمال الناس.

ما العمل إذا كانت نفوسنا لا ترتاح إلا على هذه (الفرشة) وهذه (المخدة). بدا أن قطار "حسيبة وسحر" يصل إلى محطته الأخيرة أو يكاد حين لاقته من الزاوية الغربية كلمات بدت أشبه ببوح ذاتي: (أما من مكان في هذا العالم الواسع نستطيع فيه مد فرشاتنا وتوسد مخداتنا غير هذا المكان؟). كان هذا صوت حلم رزان الذي يحاول أن يعلو فوق الجدران، لم يحظَ تعليقها بمساندة متحمسة ولا نقدٍ لاذع يرفس الحلم على أنه شكلٌ من أشكال التخاذل، ذلك أن مساحة صمّتية فاقت دقيقة

كاملة؛ لفَّتنا حيث نشطت دواخلنا لتصفية حسابات مؤجلة جثمت طويلاً فوق صدورنا.

وكان للكلام بقية، ابتسامة "حسيبة" التي أظهرت سنها المنخور تحوَّلت إلى ضحكة خفيفة. قالت إنها ابنة الشيخ عبد الرحمن، وهذا يؤهلها لاستعارةٍ من الماضي الديني، حيث الحدث الذي زلزل المسلمين الأوائل لدرجة أن عُمَراً شهر سيفه واعداً القاتلين بموت محمد بموت زؤام. وأبو بكر شهر واقعيته وحكمته: (من آمن بمحمد فإن محمداً قد مات... ومن

آمن بالله فإن الله حيٌ لا يموت)، قالت المهندسة سحر. إنها من عائلة مسيحية ومتزوجة من بدوي مثقف اسمه مصطفى ويقبع كما أشقاؤها الثلاثة في سجون وطنية مختلفة، ولكنه أوصل إليها رسالة تعالج هذا الأمر بالذات، قالت سميرة بتفخيم خطابي ممطوط: من آمن بالاتحاد السوفيتي فإن الاتحاد السوفيتي قد مات ومن آمن بالعدالة والحرية والقيم الإنسانية فإنها حية لا تموت. علقَت ميساء بخبث: (ولك يا سحر لا يقوم هذا البدوي جوزك اللي شايف حالو كثير هو نفسو عضو اللجنة المركزية بالحزب؟ إذا كان مصطفى معو حقوق في بدو معهم دكتوراه يا سحر..) لا أزال أذكر الانفراجين النفسي والجسدي اللذين حصلنا عليهما بعد هذه الجلسة الحميمية المتواضعة، فقد بدونا جميعاً متواطئين على إنزال أحمالنا (ولو من كيسنا) وجاءت (تخريجتا) سحر وحسيبة الفكرية والسياسية في مكانهما وزمانهما الصحيحين كما أعتقد، ما زلتُ حتى الآن أشعر بامتنان شديد لهاتين الرفيقتين اللتين أغاثتا لهفتنا إلى مخرج عقلاني منطقي مهما بدا نسبياً، وأوجدتا لاحتقاننا متنفساً ذكياً، ولعجبي الشديد بدَتْ بناتنا صباح اليوم التالي مختلفات تماماً، فالقامات انتصبتْ والعيون التمعتْ والبسمات عادتْ والأمزجة ارتفعتْ، هل حدث هذا فعلاً أم أني تخيلته؟. أنا غير متأكدة، الله أعلم.

***

تخرجت من جامعتي بعد 16 عاماً!

كدنا ننتخب وزيرةً أخرى، وزيرة للثقافة، استعضنا عنها بلجنة نشيطة وفاعلة، اهتممنا بالمطالعة وخضْنا نضالات عديدة لفتح مكتبة السجن أمامنا، أثمن مهرباتنا من الخارج كانت كتباً نقرأها بالتناوب ونعيدُ قراءَتها وننظِّم ندوات لمناقشتها، تفرعَّت عن اللجنة الثقافية لجنة جريدة الحائط السرية التي غدت متنفّساً لأرواحنا في خواطر تلامس شغاف القلوب -أستعيدها أحياناً وتستعيدني أحياناً فتسيل دموعي- وتمكَّنا من تهريب عدة أعداد إلى خارج الجدران، ثم فرَّختْ اللجنة وأنجبت لجنة المسرح التي أقامت عدة حفلات في مناسباتٍ وطنية وأممية تخلَّلها عروض أزياء، أهي نكتة؟ بالفعل بدأت نكتة، كانت أسمالنا و"كلاكيشنا" والجرائد المسروقة أو أوراق الصرِّ بديلاً لقماش الفساتين أو مواد الأزياء، والاكسسوارات كانت من عقود وأساور الخرز ونوى الزيتون الملوَّن وبعض أكاليل الغار من أوراق الشجرة اليتيمة. مفخرتنا في هذه العروض كانت أجسادنا الهزيلةُ المتشابهةً مع أجساد عارضات الأزياء الرقيقات، نوَّعنا عروضنا حتى شملت أزياء الحوامل واستعنا بمخدات خرقية كادت تُفشلنا وأضحكت حتى القساة من السجانين والسجانات والشرطة رواد مسرحنا بمناسبة عيد الجلاء.

تأكدتُ تماماً أن أمي لن تزورني، ولكني أملتُ زيارة شقيقتي الكبرى وانتظرتُها -بلهفة- طويلاً، كنتُ أدعوها (أمي الصغيرة) فهي تكبرني بـ 14

عاماً، حين أذكرها تغزوني ابتسامة صفراء لا أحجبها بسهولة، ذاكرتي تستدعي إصرار زوجها على مجاملتي ومكايدة شقيقتيّ سويةً، يؤكد متنبئاً أني سأتفوق عليهما بزواجٍ ناجح، "والله سلام رح تشفط عريس ما بتحلموا فيه انتو التنتين". آه يا صهري الغالي، آه لو تعلم ماذا حلَّ بـ (سلام)؟ وكيف تعيش (سلام)؟ وكيف تحلم (سلام)؟ حتى الأحلام غدتْ ممنوعة على (سلام)؟ فالجدران عالية جداً وأحلامي كسيحةً وآمالي بلا أجنحة. زارتني شقيقتي قبل الإفراج بشهر، وبعد شهرين جاء العريس. قريبي من جهة أمي، أكبر مني بعام. قال: إنه تتبَّع سيرتي وأخباري وسجني، وانتظر خروجي؛ ليعلمني أنه يكِّن لي مشاعر لم يبحْ بها بانتظار فرصةٍ مناسبة، وتكفَلَ الاعتقالُ والسجنُ بطيها إلى حين. أمي وشقيقي البكر أخذاه إلى غرفةٍ ثانية ولحق بهما شقيقي الأصغر، أفهماه بأنه قريبنا وحبيبنا وواحد منا، ولكن عليه أن يعي أنه يطلب (القرب) منا بـ (بضاعةً مضروبة)، فهي خريجة (حبوس)، وليست خريجة جامعة، وأنه يصعب تحديد حجم الضرر الجسدي والنفسي الذي ألحقته بها سنوات الاعتقال الطويلة، ونصحاه بإعادة النظر أو التفكير بجديةٍ عالية، وأضاف شقيقي إلى هذا شكه بأن أرزق بأطفالٍ لأن السجن يقطع الضنى.

أما أخي الأصغر فأشار إلى أني لا أحتاج إلى جراح جديدة، فإذا لم يكن (قَدّ الحمل) فعليه أن يخلي مسؤوليته الآن وليس غداً. طلبَ حضوري مدَّعياً أني يجب أن أسمع ما يقوله: جلستُ وسمعتُ، قال :سمعَ ما قاله أهلي وفهمه ووعاه، وإنه يمتلك من القدرة على الاحتمال بحيث يمكنه أن يقاسمني أحمالي السابقة واللاحقة، وخلص إلى أنه يطلب يدي الآن وليس غداً. ومن جديد دبَّت الحياة في منزلنا، وعبر زحام حفل الزفاف المتواضع لمحتُ عينيّ صهري المراوغتين أبداً الضاحكتين بسعادة تعكس جاهزيته العالية لمتابعة المناكدة مع شقيقتيَّ بشغف أكبر ومن مواقع أخرى. ما زالت الحياة تؤكد -رغم كل شيء- أن الأمل لا يموت

وأن الدنيا مليئة بمفاجآت ليست قاسية فقط وإنما لطيفة أيضاً.

بعد سنوات ساغدو أماً لثلاثة أطفال وسأنهي جامعتي بعد ستة عشر عاماً من انتسابي إليها .

***

فاطمة تسأل ولاتفهم...

في زيارته الرابعة نقل شقيقي إليّ خبراً صغيراً، قال إن (فاطمة) تسأل عني وترغب بزيارتي، يضحك، تريد فاطمة أن تفهم لماذا أنا في السجن ولكنها لا تفهم. أم فاطمة أوروبية، وفاطمة زميلة صفي منذ الابتدائي، منفتحة، حبابة، كان لدى أهلها كلبٌ أجنبي أليف بجواز سفر أوروبي، وكان لدينا قطٌّ وطني شرس. تُحدثني فاطمة عن كلبهم ونوادره ومساعيهم لتأمين اللحوم المناسبة له وأحدثُها عن عدوانية قطّنا وميله لأكل الخضار حتى ظننا أنه خروف، فقد التهم مرةً خيارةً كاملة ومرةً أخرى التهم قشور بطيخة صفراء (أناناس) واستدعى الأمر أخذه إلى طبيب بيطري، قال إنه يعالج الأبقار وليس القطط، وتكفّلت دموعي الغزيرة بإقناعه بمعالجته. زميلات صفنا يشرْنَ إلى منزلينا المتجاورين: "هذا بيت الكلب وهذا بيت القط ". (فاطمة) لا تفهم لماذا أنا في السجن، الآن لا تفهم، فيما بعد قد تفهم... انفصل والداها، وأمها جمعت أطفالها وسافرت معهم إلى وطنها، وغابتْ (فاطمة) وظلّت في ذاكرتي تلميذةً بصدرية وفولار وجديلة؛ سافرت (فاطمة) ودرستْ وعملت كمواطنة أوروبية وساحتْ ببلاد العالم. حين سأخرج من السجن ستراسلني ولا تغفل إرسال بطاقة بريدية من أي بلد جديد تزوره لأول مرة. دعتني لزيارتها وكرّرت دعوتها وطمأنتني بأنها تأخذ أمور (الفيزا) والإقامة والسياحة على عاتقها. بعد زواجي سأعمل بأعمال مختلفة لأساند زوجي المعيد

الجامعي لرأب الصدع ما بين المعاش والمعيشة، ولم أجد عملاً مناسباً أبداً، وتسلَّل الفقر إلى حياتنا وضاقت الدنيا بنا، وزوجي بدا محباً ومعطاءً ومتفهماً كما وعد. أجهضت طفلنا الأول، لم نعتبر الأمر كارثةً فنحن لا نكاد نعيش ثنائياً فكيف بثالث! نحن نعيش بسكنٍ متواضع مستأجر. تسلمتُ من (فاطمة) رسالةً جديدة، (فاطمة) لا تزال تدور حول العالم. أقول لها: "درتي نص العالم". تحسبها، تقول: "ستة وعشرون بلداً". (فاطمة) دقيقة و(حَسِّيبة). "(سلام) تعالي زوريني. ضيفةً عزيزة مكرمة". أنا ممنوعة من المغادرة، لا جواز سفر لدي، ما إن يضرب عنصر أمن الجوازات على (الفيش) حتى تقفز كلمة المنع إلى الشاشة بخفةٍ ورشاقة، أكتبُ رسالة لها، أعيد كتابتها مرات، لا أرسلها، مؤخراً قرأتها، فهمت لماذا لم أرسلها، في هذه الرسالة أنعي وطني الذي أحببتُ، شبابي الذي يرحل بسرعة، وأمومتي التي قد لا تكتمل ومستقبلي الذي لن أحلم به والخوف الذي أضحى توأمي وظلَّ أيامي ولياليَّ ومناماتي، تغزوني أحداث وذكريات، تأتيني أحياناً طوفانية وأخرى شحيحة، منها ما هو هام، ثانوي أو سخيف، أعجبُ من أمور كانت في منتهى السخافة وغدتْ في قمة الجدية، وأحياناً العكس، وحتى الأمور العادية لا تبقى عادية. زواجي السريع بعد الإفراج فاجأَ الجميع، الأهل والأقارب والأصدقاء ورفيقات سجني المتعثرات على دروب بَعْدَ سجنية وعرة، العجب والاستغراب والارتياح بدا قاسماً مشتركاً عاماً، طرافةُ الموقفِ فرضتْ ذاتَها. زارنا أحد معارف شقيقي من الموظفين المرموقين وهنّأني وأهلي بسلامة الخروج وتمنى لي حياةً جديدةً تنسيني الماضي وعثراته. أسعده نبأُ زواجي إلى درجة القهقهة عالياً. قال: إنه يحترم رجولةَ رجال عائلتنا ويميِّز(رجولتي) أكثر، لكنه الآن مبهور برجولةٍ جديدة تفوق الجميع. كان يعني عريسي (المغوار)، يا إلهي، ألهذه الدرجة أنا مخيفة؟. كم يلزم من الشجاعة والمغامرة لإنسان يُقدم على الزواج بسجينة سياسية سابقة؟ يا إلهي، كم يجب أن أكون ممتنة لمن تجرَّأ على الاقتران

بي؟. سأضرب مثلاً، أحد الأقرباء -وتحت ضغط زوجته لأداء الواجب- قرر أن يزورنا للتهنئة بخروجي، فأتى بتأخير زمني قدره شهر كامل برفقة زوجته وحماته وأولاده الستة. علمنا فيما بعد أنه قبل أن يقدم على ذلك اتصل بمفرزة الأمن المعنية واستشار الضابط المسؤول عما إذا كان هذا مسموحاً أو ممنوعاً. أفكرُ فيعتريني حزنٌ على الذات يقاربُ حزناً على أموات، شقيقي الذي طالما حضنني وسافرَ على طرقات طويلة بحثاً عني محاولاً أن لا يخذلني بدا فرحه بزواجي مبالغاً لدرجة غير مقبولة، قاده ذلك إلى كيلِ مديحٍ غير مقبول لزوجي بمناسبة وبغيرها حتى شعرت أن مديحَ زوجي معرضُ ذمٍ لي، بدا شديدَ الامتنان لدرجةٍ كادت تخنقني، لم أحتملْ أكثر. بيَّنتُ لهما بهدوء أني بنت ناس كما هو، وجامعية مثله، ووسامته تعادلها أني كنت من مليحات الجامعة باعتراف كثيرين وحسان السجن بالتأكيد، وأنَّ على المغبون من صفقة الزواج هذه أن ينسحب، أما أنا فقد أفضّل العودة للسجن على هذه المواويل... لحسنِ الحظ انتهتْ الأمور بمرحٍ مريح للجميع وتجاوزتُ الأمر وتجاوزاه .

لا تزال (فاطمة) تدعوني للزيارة، كتبتُ لها رسائل عِدّة أودعتها خزانتي، ما أن تنزل بي صعوبات أو شدائد حتى أكتب لها من جديد، كتبتُ لها رسالة، بثثتها همومي الشخصية وهمومي العامة التي درجنا على تسميتها الهم الوطني أو الشأن العام، وحسدتها على حقوق البشر في وطنها الجديد، وأهمها حق العمل والسكن والعلم والتعبير، وثقافة الأنا والآخر وانعدام التفكير المهموم بعقابيل كلمة تُنطق عفواً، إلخ... والخوف الذي -بالتأكيد- سينتقل عبر الجينات إلى ورثتي، إلخ... إلخ. ذهبتُ إلى البريد لإيداعها. في الطريق حاسبتُ نفسي على محتواها، جلدتُ ذاتي حتى تجمَّعتْ دموعٌ في عينيَّ، اعتبرتُ أني حين امتدحُ أوطان الغير أذمُ وطني، وأنا أحب وطني، حتى فرع التحقيق العسكري حين أطلق سراحنا زفَّ إلينا باعتزاز قرار القيادة بإكرامنا لأننا وطنيون ولسنا خونة كما كانوا يعتقدون. سأموت في وطني، ولكن ما لهذه الجهات الأمنية المتعددة

تُصرُّ على إنعاش ذاكرة الماضي القاسي لدينا، يبدو أن الأمن يحرص على التأكد من استمرار وطنيتنا بتفقدِه الدائم لنا، يُصرُّ عناصر الأمن على دخول المنزل لاحتساء فنجان قهوة، وأصر على منعهم إلاّ بوجود زوجي، وأستدعي الجيران إذا أصروا. يأخذون معلومات تلزمهم لدراسات جديدة ومتجددة تتعلق بأسماء أخوتي وأخواتي وزوجاتهم وأزواجهن وخالاتي وعماتي وعائلاتهم، ويحرصون على إعلامي بأنهم يعرفون كل حركاتي وتحركاتي وينصحونني مجدداً بعدم تعاطي السياسة، يبدو أن من يحب وطنه أكثر تتذكره الجهات الأمنية أكثر. قرأتُ مؤخراً (سأخون وطني) للماغوط، يا إلهي، كم هو قتَّال هذا الوطن، أما حان الوقت لمحبة الإنسان كما الأوطان؟ ما قيمة الوطن بلا مواطن؟ أو بمواطن مهدور الكرامة، بلا كفاية ولا عدالة، مشلولٍ بجزعٍ ثنائي من اتهامين أحلاهما مُر، التخوين والتكفير... لماذا أدسُّ نفسي بين المطرقة والسندان؟ ما العمل؟ هل نبدأ من جديد؟ قولوا لي، أروني طريقاً يخدم الوطن والإنسان لأتبعه .

هل مسيرات التبجيل والمديح والتصفيق هي طريق الوطن؟ أليس مَثَلُ سقوط المنظومة الاشتراكية يفقأ العين؟ ألا يفقأ الاثنتين المثل العراقي الطازج ومرارته القاتلة؟. وصلتُ إلى مبنى البريد، تباطأتْ خطواتي وعيني على صندوق البريد الخشبي الكبير، اشتريتُ الطوابع، ببطء شديد ألصقتها، زخّني عرقٌ بارد، مرَّرت الرسالة أمام وجهي بمثابة مروحة، توقفتُ عند الصندوق ولم أحسم أمري، استندتُ إلى الصندوق، عاينتُ فتحة تمرير الرسائل، أخذتُ نفساً عميقاً، سأنتهي من هذه القصة بثانية واحدة، ولكنني عدلتُ في ثانية واحدة حين اقترب مني رجلٌ لا تبعث رؤيته على الاطمئنان واستفسر عن الوقت محدقاً برسالتي (الخائنة) العتيدة، سارعتُ النكوص، لم أمزقْها ولم أبتلعْها كما فعلت ببعض الأوراق عند اعتقالي، ولم أعدْ إلى منزلي بل إلى منزل أقرباء، أردتُ تركها لديهم إلى حين ولكني عدلت، تأكدتُ بأن لا أحد في إثري. حال وصولي

إلى المنزل أخفيتها بمكانٍ لا يخطر ببال إلى درجة أني فشلتُ بعد حين في تذكر مكانها. بحثت عنها بإصرارٍ. منذ فترة بعد مكالمة مع (فاطمة) قبل أن أجلس لأفكر بهدوء، سألت نفسي، أنا لدي الآن شيء أودُ إيداعه في مكان لا يجده أحدٌ غيري، فأين هذا المكان؟. ووجدتُ المكان، ووجدتها، وأعدتُ قراءتها، لن أرسلها، سأحتفظ بها على سبيل الذكرى، حتى لو التقيت (فاطمة) فإني لن أعطيها رسالتي إليها، نحن محكومون بالأمل... هل ثمة أمل؟

***

أنا أصدق عنترة عن الكر والفر والعبد والحر!

تجذّرت في الغرب علوم الطب النفسي والاجتماعي وفي روسيا القيصرية نبغ (بافلوف)، وحين أعطى (ستالين) توصيفاً برجوازياً لهذا العلم اندثر من معاهد الأبحاث والجامعات وبقي قليلٌ منه بذمة التاريخ .

مع ازدهار الدولة الرعائية بدءاً بستينات القرن الماضي، بدا الطب النفسي أحد وجوه الضمان الصحي المهتم بصحة المواطنين النفسية.

نشاهد ذلك في الأفلام ويرويه مغتربو بلادنا؛ ماذا يعني هذا؟ هذا يعني ضرورة التواصل مع العيادات النفسية أو الاجتماعية لأمدٍ يطول أو يقصر لكل من تعرّض لحادثة صعبة ما، لظروفٍ استثنائية قاهرة، لرعبٍ طارئ أو خوفٍ مقيم، لمن هدد أو استبيح أو أهين، وحتى لمن تعرض لسطو مسلح أو حادثة طرقية أو أسر أو سجن أو معاناةٍ ما... تغزوني ابتسامة أتعس من أختها حين يخطر لي احتياجي الملح لأمثال هذه الخدمات التي يراها -هناك- الناس عادية ويختصرها أكثرنا بحالتين: عاقل أو مجنون.

حين واجهتُ ذاتي بصدقيةٍ رأيتُ أني أحتاج لاستعادة توازني الإنساني، فهل هذا مستحيل؟ وحين واجهت لوحة (نحنُ) اقتنعت أننا أفراداً

وجماعات، أحزاباً وحكومات، قيادات رسمية وشعبوية، نخباً ثقافية واجتماعية، اعتدنا محاسبة الغير قبل الذات، وتعليق الفشل على مشاجب الآخرين، (الاستعمار، الصهيونية، الرجعية، المؤامرة، الخديعة، الغش) لدينا دوماً خلف الستارة شبح ما متآمر ومسؤول عما يجري لنا من مصائب. (البني آدم) العادي المكوَّن من صفات بشرية يمكنه أن يُصفع مرة وحيدة على غفلة قبل أن ينتبه، نحن (أكلنا) لغاية الآن مئات الصفعات و"الدفشات" والركلات ولا نزال نفاجأ كل آن بما يحدث لنا، فننظر بأعين بعضنا بتساؤل قبل تحويل أبصارنا بحثاً عن شبح تسبب لنا فيما جرى واختفى، طبعاً أنا لا اعتزم تبرئة الغير، أي الأعداء، الخصوم... فأنا أعتبر أن ما فعلوه ويفعلونه وقد يفعلونه ليس سبب إشكالياتنا الحقيقية، بل إنها تكمن بالضبط بالجسم الوطني المريض، بالدولة الرخوة التي لم تصبح حديثة بعد، وبنيتها الحقيقية التي لا تزال تنتمي إلى القرن التاسع عشر بتعبيراتها العشائرية والطائفية والجهوية وبُعدها عن دولة المواطنين المشاركين الحقيقيين في صنع القرار الوطني، دولة الجمعيات والأحزاب والنقابات الحرة (بجد). دولة الانتخابات والبرامج وتمثيل الناس الحقيقي المحلي والوطني وتداول السلطة، إلخ... إلخ...

أنا أصدق رواية (عنترة) حين طلبوا منه (الكر والفر) فأجاب: "إن الحر هو من يحسن الكرَّ والفرَّ، أما العبد فلا يحسن إلا الحلبَ والصرَّ."

أنا حاسبتُ ذاتي بجدية وخلصتُ إلى أني كنت -كغيري- مريضة سياسياً بداء اعتقاد امتلاك الحقيقة المطلقة، وأن الجهة التي أنتمي إليها هي الأفضل والأجمل والأكمل، ويبدو أن هذا المرض قد اجتاح كل الحركات السياسية في البلاد وكل التيارات القومية والماركسية والإسلامية. جاءت تجربة السجن فكشفت ذواتنا ودواخلنا على امتدادٍ زمني طويل. تعرَّفتُ على رفيقاتي (بعجرهن وبجرهن)، بنفوسهن، بردات أفعالهن،

بسلبياتهن وإيجابياتهن، تماماً كما تعرَّفت على ملابسهم الخارجية والداخلية التي ازدادت رثاثة، وتبين لي أننا أناسٌ عاديون جمعنا حب الوطن والناس والصداقة والوفاء والإخلاص، وتعتمل في صدورنا -بالتالي- كل أمراض الوطن والناس. أنا خرجتُ من السجن بعد اعتقالٍ دام خمسة أعوام من دون محاكمة أو إثبات تهمة، وتعرضتُ كما غيري لألوان تعذيب واستباحة جسدية ونفسية أليمة، وأنا مقارنةً بغيري (دح). وبالمناسبة فأنا سأورد ملاحظة لا تتوافق مع المثل القائل (اللي بياكل العصي ما متل اللي بيعدها)، صدقوني: إن سماع أصوات التعذيب كانت تؤلمني أكثر من التعذيب الذي أصابني. لقد تكلمنا عن هذا الأمر كثيراً، وكنت دائماً أؤكد أني أختار التعذيب الشخصي بدل الإصغاء لتعذيب الآخرين. هل هذا جيد؟ سيء؟ لا أعرف، أنا هكذا، وكثيرات لم يصدقنني، علَلَن ذلك بضعف مستويات التعذيب التي تعرضتُ لها، ربما هن محقات؛ لست أدري .

بعد هذه السنوات ينطق رئيس الفرع بأهم ما عنده: (إن القيادة أكرمتنا بالإفراج عنا نظراً لوطنيتنا الصادقة وحبنا الأكيد لشعبنا) .

يا إلهي! هل تكفي هذه الكلمات المقتضبة لبلسمة جراح الجسد والروح؟ حتى رفيقات سجني اعتبرن أن زواجي السريع سببه (حظي الذي يفلق الصخر)، فالأهل والأقارب احتضنوني بما أمكنهم من العناية والود اللذين لا يجوز فهمهما إلا من باب قرابة الدم أو التضامن الأسري الإنساني المجرد -بفظاظة- عن أية مدلولات سياسية أو اجتماعية، وهذا ما وجب التصريح به علناً وفي كل مناسبة، لأن جزاء أي سلوك مغاير ضريبة يزداد ارتفاعها عند الانتقال من التعاطف الفعلي الصامت أو الآخر ذي الصوت المنخفض أو الأخير ذي الصوت الذي قد يكون أعلى (لا سمح الله). سأتعرف وعبر الفضائيات مؤخراً على حادثة الشاب (ماهر عرار)، المواطن الكندي من أصلٍ سوري المتهم من قبل

المخابرات المركزية الأميركية بالإرهاب، والذي أعاقت القوانين الأميركية استجوابَه (كما يجب) فسُلمَ لوطن والديه الأصلي؛ ليقيم في فرع فلسطين ثمانية أشهر قبل أن يتمكن وطنه الجديد من استعادته عبر أزمة دولية، فيظهر على شاشات التلفزة رئيس الوزراء الكندي ليقدم اعتذاراً باسم حكومته -له وللمواطنين الكنديين- للتقصير غير المتعمد في أداء الواجب الوطني تجاهه، وتحكم المحكمة لقاء هذا التقصير بثمانية ملايين من الدولارات (أميركي وليس كندي) تعويضاً عن محنته. أنا أعرف أناساً كثيرين مكثوا في هذا الفرع أو فروع مشابهة سنين طويلة. أنا بالذات مكثت في هذا الفرع سبعة أشهر كاملة، كانت الأسوأ في حياتي حتى تاريخ اليوم.

ومع الأيام سأبوح بسر من مرتبة جنون، وقد حصلتُ على من بإمكانه الإصغاء إلى هذياني، فأنا أكاد أفشل في كل شيء. أنا لا أستطيع التصالح مع ذاتي، تعذَّر عليّ ارتداء ثيابي بالمقلوب، وفردتي حذائي بالعكس، ولم أتمكن من احتمال معطفي الشتوي صيفاً وبلوزاتي الرقيقة شتاءً، وغلبتني على أمري موضوعة الشمس التي لا تشرق من الغرب ولا تغرب من الشرق، ورفضت تصديق الديك الذي يعتقد أن صياحه يسبب شروق هذه الشمس بالذات، ومن الغرب نكايةً، وعاندتُ -حسب إمكانياتي- فكرة أن إنساناً ما غدا إلهاً متعدد الأسماء والهويات والمهام، وأنه قد يعجز عن الخلق، ولكنه ينجز الموت بنجاح، بل يمكنه وهب الحياة لسائرٍ إلى حتفه حتماً.

***

كان علي أن أجن أو أنام!

عند منتصف الليل تماماً، استل الضابط مسدسه ودسَّه في صدغه، (اسمع يا حيوان، أنا أنهي التحقيق دوماً في مثل هذا الوقت، أنا الآن قد أرسلك إلى الموت أو أهديك حياة، فاختر الآن، وليس بعد دقيقة). كان عليّ أن أجنَّ أو أنام، فحذوتُ حذو أهل الكهف وسرتُ على طريقهم ونمتُ نومهم، غدوتُ حساً بلا روح وبتُّ سخيفةً حتى القرف، وحين عدلتُ عن القول للأعور أنه أعور بعينه كرهتُ ذاتي، وحينما انتصبتْ مرآتي أمامي في أحد الصباحات الفضيلة أنكرت نفسي وكدت أبكي أمام أطفالي. سارعَ زوجي إلى مواساتي، وقال عني أشياء لطيفة نسيت معظمها، وأكد أني لا أزال كما عرفني نقية نزيهة طيبة ووجدانية وأنني لا يجوز أن أدمنَ جلدَ ذاتي وأطلب ما لا طاقة لي ولغيري بحمله، واستشهد بـ (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، وإني أديّتُ ما عليَّ من واجب وأكثر، وذكَّرني أني الآن لا أملك نفسي فقط، فأنا مسؤولة عن منزل وأطفال لا بد أن يكبروا ويتعلموا ويعقلوا، وإن الزمن قد يعذرني إن عاتبته، إلا أن هناك من لا يقبل معاتبةً أو مداعبةً ولا حتى نقداً أو اعتراضاً. كان مقدَّراً لهذه المحاضرة (البليغة) أن تعود بي إلى فسحة الحياة لو لم يختمها بأن المطلوب ليس عدم الاعتراض فقط ولا حتى الصمت المفتوح -وفق استبياناتهم ومطالعاتهم- على احتمالات تحتمل التأويل والتفسير. بصراحـة.. كان المطلوب نفاقاً مقنعاً، بدءاً بالتصفيق والمديح، وانتهاءً

بالإعجابِ والدهشةِ التي تقارب العبادة، وكدتُ أنتكس من جديد، ومن جديد أصغيتُ إلى محاضرات مخلصة، خائفة محققة حكيمة.

وعكفتُ على تفكيرٍ عميق أقرب لخرفٍ أو (استغماية) أو (يوغا) ممسوخة. وصحوتُ صباح اليوم العاشر بعد الألف لأنتمي لموضوعة (مارغريت تاتشر). (بيتي مملكتي)، إن أخلصتُ له أكون قد أخلصت إلى كل ما هو نبيل، قررتُ أن أفعل المناسب، (إذا لم يكن ما تريد فأردْ ما يكون.) وسأنسى ما كان وما هو كائن أو قد يكون، وقد أفادني ذلك إلى حين.

كان عليَّ أن أنجح في التعايش مع أمور سبق وصنَّفتها في خانات التفاهة والعقم والـ (غلا غلا) والتمرير والمجاملة والمداهنة و(طق الحنك)...

***

نورية وحصى وفال

أتابع البحث عن عملٍ أسندُ به زوجي، وأعدو خلف التخرج الهارب مني عبر اجتياز امتحان تلو امتحان في عشرة موادٍ متبقية في غاية الغرابة والإزعاج كأنها لم تنتمِ يوماً إلى عالمي. انسللتُ لجلسات احتساء القهوة وأصغيتُ لقريباتي الكهلات وأخبارهن وقراءاتهن لفناجينهن، ودسستُ أحياناً فنجاني، وأصغيتُ -بجد- لكل ما قيل في (فنجان التبصير) قبل أن أحاول بعينيَّ تقصِّي رحلات السائل البني ورسوماته وتهويماته ورؤاه وأسعى لفهم مجاهيله إلى درجة القراءة بالإنابة. وبدأتْ رحلاتي الطريفة إلى عالم الغيب، فتعرَّفتُ إلى برجي في إحدى الرزنامات، ودخلتُ الأبراج الشهرية الـ 12 واستعرتُ كتاباً سخيفاً بهذا الشأن. ثم حصلتُ على كتابٍ (قيِّمٍ) من إحدى بسطات الأرصفة. وغصتُ في الملامح الخارجية والحياتية وردَّات الأفعال وتمكنتُ أحياناً من (حزر) أبراج بعض الأقرباء والمعارف من دون عناء، ثم طاولتُ الأبراج الصينية العتيدة التي تتكرر مرة كل 12 عام وسعيتُ خلف مراجعها المتنوعة، وانغمست في خفاياها ومزاياها وكدتُ ألاحق تأثيرات الكواكب ورحلاتها المدارية على الحياة والموت ومصائر البشر. زوجة أحد أقربائي -تشيكية- قرأت كفي، وحين مددتها لها بعد ثلاثة أشهر أدهشتني فرادة تماثل القراءتين، وحين لاحقتُها اعترفت أنها تمتلك كتاباً قيّماً ورثته عن خالة أمها، وكدتُ أتفق بالاشتراك مع زوجها على ترجمة الكتاب وتسويقه، ولكني لم أفعل ذلك

بل حظيت بـ (نوَريّة)[9] شبه حافية تحمل وليدها خلف ظهرها لتقرأ بـ (الودع)[10] ماضيَّ وحاضري ومستقبلي وتقنعني بـ (تبيض الفال)[11] كي تحدث تغييراً (هاماً) ما يدفع أذىً (مرعباً) أكَّدتْ (حصواتها) الخمس وقوعه عليَّ في القريب العاجل من كلِ بد...

وكان عليّ الانعطاف نحو مسالة أخرى اعتقدتُها معقولةً في أحوالنا المادية التعسة، تجمع الممتع بالمفيد، فمارست هواية ارتياد أسواق الملابس المستعملة (البالة) التي انتشرت بالمدينة كما الفطر، قرفصتُ، ركعتُ، قيَّستُ، ساومتُ، تشاطرتُ ونجحت أحياناً في إثارة إعجاب الأقرباء والمعارف، وأحياناً بإثارة السخرية من شطارتي بسبب (الأكمام) السعرية التي كنت (آكلها). وتبينتُ أني في محاولتي التقتير والتوفير أنفقُ على الملابس المستعملة أكثر من قيمة الملابس الجديدة فعدلت عنها. أنهكتني وعورة الانتقال من الاعتراض الصريح إلى التساؤل المراوغ وصولاً إلى مراحل الغمغمة قبل أن تأسرني مملكة الصمت وأدوات تعبيرها بالإشارة اليدوية أو العيون النبيهة أو الشاردة المكسورة، ورحت أرقب التحولات المادية والثقافية والأخلاقية وإحلال القيم البديلة، أصغيت لمقولات الأفلاك الصغيرة ودورانها حول الأفلاك الكبيرة والسمك الصغير الذي يذهب طعاماً للسمك الكبي، والموافقة على أن اللبن أسودٌ، والزفت بلون الحليب، وشرعة الكوموسيونات، وشطارة تدبير الرأس وانتشار الرشوات الصغيرة والكبيرة وتجميع الثروات وتكاثر البسطات والعربات وارتفاع العمارات وتوالد الخرابيش العشوائية في ضواحي المدن وخواء الريف وانتشار شهادات الدكتوارة التي غدت (على قفا من يشيل)، وترافقها مع ازدياد أمية مرعبة في صفوف التلاميذ

[9] غجرية
[10] حصىً صغيرة
[11] الدفع لتحسين الوضع

والطلبة والخريجين الجامعيين. هالني طلبة في الثانوي لا يعرفون جداول الضرب، وسؤال (8×7) بدا للكثيرين أحجية تتطلب تفكيراً عميقاً! والشطَّار يدَّعون إن الآلة الحاسبة هي الحل، وقبلتُ بعناءٍ صك إذعان الناس الكلي لكل شيء بدءاً من نظرة الوعيد مروراً بنغمات أصوات التهديد وانتهاءً باحتمال الفأس التي تنزل بالرأس كما احتمال القضاء الرباني، الجميع يريد سلته بلا عنب. والعنب ما فتئ يتساقط طوعاً ودلالاً وتيهاً في سلال المسؤولين والحواشي والأطراف .

***

رخاوة وطراوة وبناء آيل للسقوط!

"الدولة الرخوة في مصر" هو عنوان كتاب للدكتور جلال أمين، حيث اعتبر أن رخاوة الدولة سبب أساسي وبنيوي للفقر والجهل والتخلّف، وأن هذه الدولة صلبة فقط في حفظ أمن تركيبتها السياسية والعسكرية وعدا ذلك رخوة وهشة في كل شيء، تصدر القوانين ولا تطبقها ليس لما فيها من ثغرات وإنما لأنه لا أحد يحترم القانون، فالكبار لا يبالون به لأن لديهم من المال والسلطة ما يحميهم منه والصغار يتلقون الرشاوي لغض البصر عنه؛ التراخيص والاستثناءات والإعفاءات معروضة للبيع، ولا تفرض القيود القانونية إلا لكي يثرى البعض من كسرها و الخروج عليها.

الضرائب نادراً ما تحصّل والمناصب تُشترى بالمال فيجري التمتع بمزاياها ومكاسبها وهتك واجباتها. الشركات والمؤسسات الحكومية تتعثر فينقض عليها ذباحوها الذين أفرغوا ضروعها في جيوبهم، يلعنوها وينصحون بخصخصتها أو استثمارها فتقع بمحض الصدفة. في أحضان الأقارب والحواشي. الإمضاءات تباع أو توهب للأزلام والأنصار والعملات الصعبة وبدلات السفر الخارجية توزع على المقربين والأحباب وقروض البنوك تمنح لمن لا يستحقها. وهكذا، ففي الدولة الرخوة يعم الفساد فيبدأ بالسلطة التنفيذية ويصل إلى القضاء مغطياً مرافق الحياة كافةً. صحيح أن الفساد والرشوة موجودان في بلدان عدة

بدرجات متفاوتة ولكنهما يصبحان في ظل الدولة الرخوة (نمط حياة). الطبقة العليا السلطوية تدير المجتمع مراوغةً أو قسراً. أفراد هذه الطبقة غير معنيين بحدود الوطن والولاء له، بل ينصب اهتمامهم على ما يفيد عائلاتهم وأقاربهم وعشائرهم ... هم يعلمون أنهم يديرون دولة رخوة، مطواعة يتندرون فيما بينهم بقدرتهم عل طيّها وتطويعها وتركيعها وفق أهوائهم ومصالحهم...

وهكذا تحوّل نمط الحياة إلى حالة عجيبة، فتراجعت الحكومة عن القيام بوظائفها التقليدية بدءاً من حماية الوطن وأمن المواطن وحتى جمع القمامة مروراً بتأمين الماء والكهرباء والصرف الصحي وتنظيم العمران. وتحوّلت الحكومة إلى نكتة كبيرة، فتضاءلت مكانة الوزراء وأصبح الموظفون يذهبون إلى مكاتبهم الحكومية صباحاً ويمارسون أعمالهم الخاصة مساءً، ثم وبنقلات متسارعة غدا لكل ما يُطلب أو يراد -بحق أو غير حق- تسعيرته من بناء منزل مخالف أو فيلا تحتكر نبعاً مائياً عاماً أو امتلاك (أرضي دولة) عبر وضع اليد وإقامة دعوى شكلية لتثبيت الأمر الواقع... إلخ. لقد بلغ الأمر حد ممارسة الغش الجماعي في الامتحانات الحكومية حيث تُذاع أجوبة الأسئلة بمكبرات الصوت وكأن الدولة لم تعد تخيف أحداً، وغدا أي خلاف بين مواطنين (رزقاً) يرسله الله إلى جيوب الشرطة والقضاة والمحامين الملزمين بتأمين جعالاتٍ مساندة للرؤساء والمسؤولين.

ختم الدكتور جلال أمين مقدمة كتابه بعبارة (دولة آيلة للسقوط) وهذه الكلمات سحبت ذاكرتي إلى عبارة شبيهة عمرها قرن كامل أخذت يوماً ما. بمجامع قلوبنا زمن الإيمان (الإيديولوجي الصوّاني).

أمسك شرطيٌ ضخمٌ بتلابيب فتى مشاكس في إحدى المظاهرات الصاخبة المطالبة بإسقاط القيصرية وصاح به: "ألا ترى أيها الغر أنك تنطح جداراً؟" فتلقى جواباً بسيطاً: "بلى، ولكنه جدارٌ نخره السوس

وقد تكفيه رفسة أو بضع رفسات حتى ينهار". هذا الفتى كان فلاديمير لينين قائد ثورة أكتوبر عام 1917.

انهارت القيصرية وتفكك الاتحاد السوفيتي (العظيم) ولحقت به منظومة الدول الاشتراكية حتى غدت في ظرف ثلاث سنوات (حارة كل مين إيدو إلو). هل كانت دول الإنجازات والتضحيات والضحايا (دولاً رخوة)؟. العراق -المحتل الآن- بثرواته وحروبه وحزبه وجيشه وحرسه وجيش القدس بملايينه السبعة و(قائده الفولاذي) هل كان (دولة رخوة)؟

قال أحدهم في زمنٍ ما: (إن شئت معرفة مستقبل سورية بعد عشر سنوات فانظر إلى مصر الآن)، يا إلهي، نُشر الكتاب عام 1992 وقرأته بعد عام (2000). أنا المتتبعة الموضوعية عن قرب، عن بعد، من قلب، من فوق، من تحت، أرقب الحياة اليومية للناس وأنا من الناس وبنت ناس فأرى الحالات المأزومة حتى حافتها، وهي رؤية مختلفة جذرياً عما يراه إعلامنا -المسموع والمرئي والمقروء- الحافل بالانتصارات والنجاحات والأعراس الجماهيرية والمسيرات، المغتبط بالحال اليومي إلى درجة خشية عيون الحسد، المفعم بالأمل بغدٍ أكمل وأجمل آتٍ لا ريب فيه، أنا أيضاً أحلم وأطفالي بغدٍ أفضل، ولكني أرى الوجه الآخر من دون قناعٍ جمعيٍ قسريٍ مزيف، أرى الإخفاقات والانكسارات والطرقات المسدودة والأبواب الموصدة وانعدام الآفاق حتى اليأس المقيم، بل أكثر من ذلك، فأنا أخشى الاحتمالات المفتوحة على أخطارٍ فادحة أتجنب إيرادها على لساني كما يتجنب الناس سيرة المرض الخبيث فيشيرون إليه (هداك المرض.)

أنا أعتقد أن اليوم هو ابن البارحة، وأن اليوم هو مصنع الغد... وبلادنا نالت -بجدارة- استقلالها عام 1946 قبل مائة دولة من دول العالم منها (الصين والهند وماليزيا)، فماذا تم فعله لتكون حالنا أفضلَّ؟. في عام

1948 أُقيمت دولة اسرائيل على أكثر من نصف أرض فلسطين التاريخية أي (سورية الجنوبية)، وشُرِّد فلسطينيون في جهات العالم الأربع، وحصلوا بمساهمة عربية ودولية على تسمية لاجئين. وفي عام 1967 شنَّت دولة اسرائيل اليافعة حربها الحزيرانية المذلَّة التي استحقت اسمها الهزلي (حرب الأيام الستة) فذهبت بما تبقَّى من فلسطين وخسرنا هضاب الجولان العتيد الجميلة، ولجأ سكان محافظة القنيطرة إلى الداخل السوري وغدوا (نازحين)... وعلى امتداد عقود نصف قرنية صارت إلى الاضمحلال التدريجي لوحة اسكندرون السليب الذي لم يبق ما يُذكِّر به سوى قبور أبنائه المهجَّرين الأوائل وصورهم الفوتوغرافية بالطربوش التركي الأحمر وأبنائهم المنخرطين -بمرارة- في النسيج الوطني السوري والمعروفين بـ (اللوائيين أو الإنطكلية). وتكفَّل العقدان الأخيران من عمرنا إزالةَ آخر ما تبقى منه في خرائط الوطن وكتب تلامذتنا، أما من تبقّى من أهلنا على الأرض هناك فهوياتهم وجوازات سفرهم تؤكد انتمائهم للوطن التركي، قد نقلتُ إلى الورق لوحة الوطن وكأنه ذبيحة تؤخذ منها (فخذة) من هنا أو (كبدة) من هناك مُغْفِلةً مرارة مشاعري. ولذا سأشير إلى قدرتي على التصالح مع قدرية الموت التي تعني استحالة العودة للحياة وعجزي عن تقبل فقدان أجزاء من الوطن بلا عودة في ظل مفاهيم ووقائع قاسية على الأرض، على العكس، يعتريني إحساس يقترب في قيمته وحتميته من نبوءة تؤكد عودة الأرض والأهل، وهذا مغروس بوجداني كما بوجدان من سبقني من أهلي وسأغرسها لدى أطفالي وأوصيهم بنقلها إلى أحفادي، وعلى هذا... أو لذا... تلك (اللذا) الماغوطية[12] الغوارية[13] الطويلة. لذا سأدع هموم السياسة الوطنية تجاه المفقود من البلاد وكل مرفقاتها من عراضات واستعراضات ومسيرات وشعارات، وسأتبعها بغض الطرف عن الآمال

---

[12] الكاتب محمد الماغوط

[13] الفنان دريد لحام

القومية العتيدة والوحدة العربية الأصيلة، وسأفعل الأمر ذاته إزاء الأحلام الاشتراكية النبيلة؛ لأنكفئ باتجاه الداخل القطري الوطني الحزين؛ لأتساءل عن السياسة الوطنية في المناحي الحياتية التي تمس البشر والحجر على ما تبقى من أرض الوطن، فالحقيقة أن كل شيء يبدأ من هذا بالذات، لأن السياسات الوطنية هي من تصنع أوطاناً فعلية لمواطنين حقيقيين. أثمةَ -فعلاً- سياسات وطنية؟ في مجالات التعليم والتربية؟، العلم والبحث العلمي؟، في الصناعة والزراعة والثروة الحيوانية والنفط؟، في الاستيراد والتصدير؟.... البناء والسكن والعمران، العمل والبطالة، الثقافة والفن والرياضة؟، في الضمانات الحياتية الاجتماعية والصحية؟، في بناء دولة القانون والمواطنة وحقوق الإنسان والقضاء وضمان حرية التعبير والتنظيم والنشر والترشيح والانتخاب وما يتفرع عنها من حقوق الأكثرية والأقلية والموالاة والمعارضة وتكافؤ الفرص والتراتبية الاجتماعية المادية والمعنوية وفقاً للكفاءات العلمية أو الحرفية أو الأقدمية؟. إلخ... تواجهني فتصدعني -كما غيري- لوحات فاقعة غدت في مرتبة بديهيات تبعث على الأسى قبل الغضب واليأس قبل التفكير، فالبقع البيضاء حالة استثنائية أما الرمادية والسوداء فهي نمط الحياة. إن الفساد والإفساد والاستبداد عناوين رئيسة في حياة البلاد وما جاء في كتاب المفكر طيب التيزيني (ثلاثية الفساد والإفساد والاستبداد) شهادة وطنية تشخيصية مخلصة لكنها غير مبكرة، وعلى الرغم من وضوحه وجرس إنذاره إلا أنه نسبي حقاً فالأمور أشد قتامةً، وتزداد سوءاً مع مرور الأيام والأعوام. يا إلهي! أليس بالإمكان فعل شيء ما بهذا الصدد؟.!

كنت واحدة من ملايين البشر التي انتمت طوعاً إلى الإيديولوجيا المهزومة موقنةً أن العولمة ستكون الابنة الشرعية للنظام الاشتراكي العالمي، ولكنها جاءتْ إلى عالمنا على يد النظام الذي كان عليه أن يموت -وفقاً لتصوراتنا- بفعل "عجزه وهرمه وتناقضاته التناحرية"، فهل قتلَ

قابيل هابيلاً ثانيةً؟ أم أن قانون البقاء للأفضل والأصلح قد انتصر مرة أخرى؟ وهل صدقَ فوكوياما حين أعلن إغلاق التاريخ على أفضلِ أنظمةِ العالم؟ وهل انتهى بحثُ البشرِ عن مستقبلٍ أفضل وأعدل إلى عودة سريعة إلى المربع الأول بآليات عصرية معقدة؟ .

***

من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية!

لقد فُطرتُ على عداءِ المجتمعات الطبقية بتشكيلاتها الثلاث (الرق، الإقطاع، الرأسمالية)، خاصة أن من صلب الأخيرة انحدرت الفاشية والنازية، ولطالما آلمتني وأضعفتْ انسجامي الذاتي حقيقةُ انتمائي إلى ذات الإيديولوجيا التي جاءت من رحمها الديكتاتوية الستالينية وأشباهها في منظومة الدول الاشتراكية وأشباحها في معظم بلدان عالمنا الثالث. لقد ألزمتْ الوقائع على الأرض وجداني النظر بعينٍ موضوعية إلى نجاحات النظام الرأسمالي في أميركا وأوروبا وأستراليا وحتى آسيا في تحقيقِ مستويات غير مسبوقة من الرعاية والرفاه والحقوق السياسية والاجتماعية. كنتُ أرى ذلك وأتتبَّعه عبر وسائل الإعلام وعوالم المعرفة الطوفانية (الإنترنت)، وعبر شهادات حية لأقرباء ومعارف كثيرين مهاجرين إلى تلك البلدان حيث اعتادوا نمط الحياة هناك بأبعادها الإنسانية المعقولة على الرغم من أن أغلبيتهم تشغل مراتب دنيا في سُلمِ المستويات الاجتماعية، حيث معظمهم من غير ذوي الاختصاصات العلمية أو المهنية العالية أو الأكفاء أو خارقي الذكاء، أناس عاديون، بسطاء، يعيشون هناك في بحبوحة وحرية وأمان واطمئنان لليوم والغد، ويلازمهم هذا الشعور ولا يفارقهم إلا حينما يزورون وطنهم الأم ليقضوا في ربوعه (شهر زمان) ما بين السياحة ورؤية الأقارب والخلاَّن أو معالجة الأسنان؛ أثناء ذلك -ذاتياً- يراقبون تصرفاتهم وكلماتهم بإتقان، فإن

خانتهم الذاكرة، فذاكرة المحيطين بهم ترشدهم إلى الممكن والمتاح وتنذرهم بالخطر والمستحيل.

لقد سبقَ وهجرتُ يقينَ صلاحية نسخة القرن العشرين من النظام الاشتراكي الذي أخفق في نقل الإنسان من (مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية). واستمرَّ استلابُ البشر على الرغم من تضحياتهم العظيمة وعذاباتهم المضنية وجهودهم الجبارة، واستمرِئ تغييبهم عن الاختيار والقرار بذرائع الأمن والمؤامرة والخطر الأبدي، ووجدتني مشغولةً بمسألة الموقف النزيه من النظامين العالميين، ولم أفوِّت فرصة إثارتها في جلسات أو سهرات أصدقاء مسيسين سابقين أو مهتمين بالشأن الوطني العام، وكاد الأمر يتحولُ إلى نكتة حين تساءلَ زوجي عما إذا كان انتصاري لأحدهما من شأنه هزيمة الآخر؟.

من جهة أخرى واظبتُ حضور لقاءاتنا السنوية لذكرى الإفراج -التي تغيبتْ عنها كثيرات- محاولةً اصطياد رؤيةٍ مقنعةٍ واصلتْ الفرارَ مني... المسألة كانت على غير ما اعتقده زوجي الذي ابتلعتُ مزاحَه و(تنقيراته)، كنت بحاجة إلى سلامٍ داخلي، نيلهُ يتطلبُ دفعَ ثمنه، وأنا فقدتُ بوصلتي، في حين لم أتمكنْ الخروج من جلدي في كل شأنٍ يمسُّني أو أمسُّه، فلا أستطيع مغادرةَ حقله من دون التأكد من صحة موقفي وارتياحي، أو من خطئه واعترافي الذي قد ارفقه باعتذاري، وحين أدركني العجز تساءلتُ عما إذا آن الأوان لأستدير (180) درجة -كما يقولون- لأصارحِ الذات قبل الغير بأفضليةِ الجانب الذي عاديتُ على الآخرِ الذي التزمتُ وتركتُ على مذبحه بعضَ عمري، وقد طالَ مكوثُ هذا الهاجس على روحي المتعبة بهمومٍ كبيرة وصغيرة حِرتُ في كيفية تصريفها، ليس عناداً ولا تزمُّتاً سخيفاً، لكني لم أعتقد يوماً بأفضلية النظام الرأسمالي على الرغم من انتصاره، وسوف لن يكتمل عقدٌ واحدٌ على بداية القرن ليرى البشر ما ستفعله آليات السوق، حيث ستقود العالم المعولم برمتهِ

إلى ما سيعرف بأزمة الرهن العقاري التي سيشبهها الاقتصاديون بكارثة (الكساد العظيم) عام 1929 حين أغرقتْ العالم بالفقر والجوع وقادتْه إلى الحرب العالمية الثانية، وسأعود لاحقاً إلى هذا الأمر الذي شغل العامين الأخيرين من عمري وعمر العقد الأول من القرن العتيد.

***

تعالوا في القرن الجديد نبدأ من جديد

ولجنا نحن في الداخل الوطني أيضاً الألفية الثالثة وتقصَّدنا تفاؤلاً بالخير بغيةَ إيجاده. رحلت وجوه قديمة في قمة الهرم السلطوي، وتقدمت وجوه جديدة، وتقررت إجراءاتٌ إدارية تحت شعاراتٍ تجاوبت مع شعارات غزت العالم الثالث المثقل بهموم معيشية وأمنية وإنسانية عدة، تعالوا في القرن الجديد نبدأ من جديد.

جرى الإفراج عن مجموعات كبيرة من معتقلين سياسيين وتراوحت فترات سجنهم ما بين (10 – 30) عاماً، وتحدَّث الإعلام بحيوية عن مكافحة الفساد وعن الإصلاح الإداري والاقتصادي وحتى السياسي، وارتخت القبضة الأمنية بدلالاتٍ عدة، بدأت في إزالة أكواخ الحراسة (براكات الحراسة الأمنية) وفتح الأزقَّة المسدودة والعوائق الإسمنتية والحواجز المعدنية وتخفيف المظاهر المسلحة الشارعية وندرة مواكب المرافقة وتوتراتها وكبح تغوُّل الجانب البوليسي على صغائر أمور الناس الحياتية وتطنيش المخبرين والبصاصين... وتنفَّسَ الناس الصعداء قليلاً... وبدوا وكأنهم يستيقظون من سباتٍ عميق مليء بجراح وكوابيس تعذَّرت شكواها للقريب قبل الغريب وللذات قبل الغير، وسرعان ما علتْ من الحطام أصواتٌ مبحوحة جريئة من الداخل وأخرى من أبناء الوطن في الخارج مطالبةً بالمصالحة الوطنية الشاملة

هدفاً رئيساً للقطع مع جانبي الشأن الوطني (الاستبدادي أو الثأري) طريقاً لجعل البلاد أمنعَ ولحمةَ الشعب أمتنَ... وتمحورت المطالب حول ضرورة رد المظالم لأهلها من تبييضٍ للسجون من جميع معتقلي الرأي والضمير وإلغاء حالة الطوارئ المقيمة في البلاد منذ أربعين عاماً وفتح ملف المفقودين الذي دلت معلوماتٌ أولية عن تجاوز عددهم سبعة عشر ألف مفقود، ولكل منهم قصة وذيول وتداعيات اجتماعية وإنسانية وإرثية لا بد من إيجاد تخريجات وجدانية لها، والسماح بعودة المنفيين طوعاً أو قسراً والذين قُدِّر عددهم بـ (250) ألف شخص يعيش معظمهم أوضاعاً رثة أو مهينة، وإعادة النظر بالدستور بما يكفل حرية العمل السياسي للأطياف المجتمعية على الساحة الوطنية، وإزالة مبدأ أبدية السلطة والمنصب وإعادة السياسة التي انتُزعتْ من المجتمع وتمكينه من استعادة حيويته وكرامته تحت سقف القانون ومؤسساته الشرعية المنتخبة، والفصل بين السلطات الثلاث ومكافحة الفساد واسترجاع الأموال المنهوبة من الوطن والمواطنين. وتسللتْ إلى النفوس أجواء الأمل الذي غاب طويلاً.. الله يرحمك يا سعد الله ونوس، يبدو أن شعلتك تتألق من جديد محكومةً بآمال الألفية الثالثة.

***

تفكيك الدولة الأمنية والانتقال من الاستبداد إلى الديموقراطية!

افتتح القرن الجديد عالمهُ بأهم إنجازاته الحضارية المتمثلة بالمحطات الفضائية والانترنت وإشاعة أدواتهما بجعلها متاحةً أمام مجموعاتٍ بشرية هائلة؛ وبذا سلّطت الأضواء على أصقاع العالم وجعلتها مفتوحةً ومكشوفةً وبمتناول الشعوب الطامحة للمعلومة والتجربة والتغيير ولم تتخلف شعوب المنطقة العربية عن الإمساك بناصية طبيعة العصر وتجلّى ذلك في أربعةِ بلدانٍ عربية:

ففي الداخل الأردني رحل ملك. وجاء ملك، وجاء نمط تفكيرٍ وسياسات داخلية جديدة؛ ألغيت حالة الطوارئ، وأطلق المعتقلون السياسيون وتعزز فصل السلطات.

وصارت البحرين الصغيرة مملكةً وصار أميرها ملكاً، فأطلق سراح المعتقلين السياسيين كما أطلق حرية الصحافة والتعبير والأحزاب، والمعارضة التي كانت سرية تحت الأرض صارت علنية فوقها بحماية الدستور والقانون والملك.

وشهدت مصر (المحروسة) لأول مرة انتخاباتٍ رئاسية متعددة، وجرى توسيع هوامش الحريات والتعبير عن الرأي والانتخابات البرلمانية.

وفي المغرب رحل ملك وجاء ملك وبدا التحول درامياً، فمن السجن خرج (شيخ الاشتراكيين المغاربة) ليكلف برئاسة الوزارة وتم الإفراج عن جميع معتقلي الرأي والضمير، وتأكيداً على القطع مع ماضٍ مأساويٍ أليم، وقّع الملك مرسوماً بتشكيل لجنة مهمتها التعويض المادي والمعنوي على ضحايا العهد السابق، فشملت مرحلتها الأولى 5 آلاف مواطن.

أتوقف قليلاً لألحظَ أن ما جرى في البلدان العربية الأربعة: سورية ومصر والأردن والمغرب بداية طريق نحو ما في أذهاننا من بناء نظام ديمقراطي ما زلنا ولن نكف عن الحلم به، وأنا متأكدة أن الديمقراطية في أي بلد من عوالم كرتنا الأرضية ليست نظاماً بلا عيوب ولا نواقص ولا ظلم ولا خداع ولا ضحايا، ولكنه نظام يكفل إدارة وتداول السلطة والأزمات السياسية والاجتماعية بشكل سلمي، ويضمن تعايش أية سلطة مع معارضيها من دون نفي أحدهما للآخر، أليس هذا حسناً ولو بحدوده الدنيا؟ .

أما في الداخل الوطني السوري، فقد نشأ لدينا هامشٌ ضّيق جداً قوامه تصريحات ونوايا ووعود وابتسامات وغمزات وأمزجة (رايقة، فايقة) ونعومة نسبية، وعلى هذا الهامش -الذي يذكّرني بهوامش الصفحات في دفاتري المدرسية الابتدائية الرقيقة تماماً كما يذكّرني بزواريب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين- انتشرت منتديات بدائية صغيرة في بيوت الناس و(أرض ديارها)* ضمت عشرات المعارضين المنهكين بسنين سجنهم وأعمارهم والمجردين من الحقوق المدنية، المرضى المزمنين والمعطوبين، وأُلقيت محاضرات وطنية هامة بعيدة عن الحقدية والثأرية شرحتْ الأخطار المحدقة بالوطن والمتأتية من قوىً آنية ثلاث: (أميركا وإسرائيل والأصولية الدينية) وارتأت أن حماية الأوطان لا تؤمّنُها جيوش الدول العقائدية ولا تنظيماتها ولا أجهزتها

القمعية ولا ميليشياتها، بل تؤمنها اللحمة الشعبية الوطنية للبشر الأحرار في الاختيار.

أبداً لم أسمع شعارات أو دعوات لإسقاط السلطة أو التمرد عليها. لم أتجرأ على حضور مثل هذه الندوات المسكينة، وبدا أن منْ يدعو إليها ومن تُوجَه إليهم الدعوة مترددون، حذرون، متخوفون أو خجلون، الداعي والمدعو مُحرجان، الأول كأنه يستعطي لأول مرة ويخشى الرفض والثاني يخشى التجاوب وتحمل التبعات، فذاكرة الخوف وثقافته ملأت أدمغة الناس، كل الناس؛ من دخلوا تجربة المعتقل ومن نجا منها ومن سمع بها، وقد سمع بها كلُ الناس ففهموا وهابوا وتابوا... و(سوسة) السوري المهووس بالسياسة باتت تراثاً خطراً جداً، فالسياسة موالاة أو معارضة: والموالاة لا تعني المشاركة الجدية بل الولاء المطلق والتنفيذ الحرفي والتقيد بالتعليمات والشعارات وتقديس النظام والقيادة خدمةً للوطن، والمعارضة خيانة وعمالة وكفر بالوطن وجزاؤها يتناسب مع جدِّيتها وكيفيتها ونوعيتها يتراوح بين الاعتقال المؤقت وحتى المؤبد أو (الإخفاء القسري) مروراً بالتسريح من العمل واستهداف العائلة والتعذيب و... و... لم أحزم أمري، لكني تتبَّعت أخبار المنتديات وتسقَّطتها عبر رفاق وأصدقاء سابقين وعلى شاشة (النت)، كان أهم الشعارات تشير إلى ضرورة تفكيك الاستبداد والانتقال التدريجي السلمي البطيء إلى النظام الديمقراطي وسيادة القانون وحقوق الإنسان، كما وردت في كل المواثيق والعهود التي وقَّع عليها ممثلو الوطن منذ عام 1949 ولغاية تاريخه، هل هذا صعب؟ يبدو أن هذا ليس سهلاً أبداً، ولفترة مديدة حسدتُ سلطتنا الوطنية المحظوظة بهذه المعارضة الوطنية السياسية، وظننت أنها آتية من إحدى الدول الإسكندنافية، ويبدو أن هذا التشبيه استحضرته ذاكرتي من ردود المحققين والسجانين على مطالب المعتقلين والمعتقلات بحق المحاكمة وعدم التعذيب وحقوق الموقوف بالزيارة أو أقلها إعلام الأهل بأنهم أحياء وبأيدي

(أمينة)، كان الجواب موحَّداً وكأنه شعار: (لا يقومْ مفَكِرْ حالَكْ بالسويد أو بالدانمارك)... حينما يتحدثون أمامي عن هذه الأصوات ويسمّونها معارضةً كنت أبدو حيرى إلى درجة الغباء، أحاول بإخلاص إدخال هذه المعارضة في مفاهيمي الفكرية التي توصلتُ إليها بانسجامٍ معقول، فهي معارضة مختلفة ومتنافرة مع عصرنا الجديد الذي ولجناه ونحثُّ السير فيه؛ هي -وعذراً للتشبيه- (لا صبي ولا بنت) أو بفجاجة شوارعية (شَكرْ.. لا أنثى ولا ذكر)، كان علي أن أعطيها الرقم (3) لأن المعارضة رقم (1) هي معارضة مشروعة تحت سقف القانون. يضمن الدستور وجودها وتنظيماتها وحقها في التعبير والتغيير والرؤية المخالفة والاستعداد لعرض نفسها على الناخبين في أول انتخابات تشريعية أو محلية؛ لتحل محل السلطة القائمة لأربع سنوات قادمة، وأما المعارضة رقم (2) فهي معارضة خارجة على القانون، تحمل السلاح وتقطع الطرقات وتستنفر البشر وتجهِّز لانقلاب أو ثورة وتعد الحكام بالويل والثبور وحتمية إحالتهم إلى مزبلة التاريخ إن نجوا من الانتقام أو كرسي الإعدام. أما المعارضة التي فشلتُ في تصنيفها؛ فهي المعارضة اللبنانية الشقيقة التي تملك الصواريخ والطائرات بدون طيَّار والإعلام، تعلن الحرب وتقيم السلام وتعقد التحالفات العربية والإقليمية والدولية وتشارك بالحكومة والمناصب بآن .

تعرَّفتُ على مسألة المفقودين التي أعطاها مكتب حقوق الإنسان بالأمم المتحدة تسمية (الاختفاء القسري)، وهالتني قصص وحيوات البشر موضوع (الاختفاء)، وحيوات أسرهم وأقاربهم وإشكالاتهم الإرثية والمالية والعقارية والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونسب ومصائر أولاد، وتأكدتُ أن الموتَ ليس أصعب أمور الحياة، وسهولة الاتصالات وحيويتها مع جهات العالم الأربع رفدت البلاد بأحوال المهجَّرين القاسية، فتوقفت عن حلم مقايضة سجني ومعاناتي بهجرةٍ إلى بلاد الله الواسعة، فلقد تبيَّن لي أن الأرض الغريبة ضيقة مهما اتسعت، وبكيت

فرحاً وحزناً يوم انطلقت حنجرة جومانا العذب -في ذكرى الإفراج الأخيرة- بالموال العراقي الجريح:

اللي مضيِّع ذهب بسوق الذهب لا بد يلقاه.

واللي مضيِّع حبيب يمكن سنة وينساه.

يا حسرتي عا للي مضيِّع وطن وين يا ربي يلقاه؟!

أنا ما زلت حتى تاريخه ممنوعة من السفر على الرغم من أنه أحد حقوق الإنسان المحفورة في (الحور العتيق) التابع للأمم المتحدة وليس (في رمل الطريق) في صحرائنا الوطنية وفقاً للأغنية الفيروزية وكمبيوترات الوطن الذكية في أقسام الهجرة والجوازات وكل المنافذ الحدودية تشهد بذلك. آمنت بالسياحة الداخلية الممتعة والرخيصة، وغالباً ما نزلنا ضيوفاً على عائلات رفاقنا وأصدقائنا السابقين على امتداد الوطن ساحلاً وجبلاً وصحراءً؛ لواذقة وتدامرة وكرد وجراكسة وجزراوية وبدو و(شوايا)... يوماً إثر يوم، وربما بسبب تراكم سنوات العمر تغدو مغادرة الوطن ولو بقصد السياحة خارج تفكيري، وقضية المهّجَّرين نكأت جراحات وطني وجراحاتي، فغالباً ما تستحضر ذاكرتي مهجَّري لواء اسكندرون ونازحي الجولان واللاجئين الفلسطينين .

لا تزال فاطمة تدعوني لزيارتها في بلادها، وتأخذ على عاتقها جولات سريعة للاتحاد الأوربي وبسيارتها الـ(BMW)، ولكني يا فاطمة العزيزة اللذيذة، أخشى السفر، وحتى لو مُنحتُ جواز سفر لن أسافر لأني أخشى أن أموت هناك. فأنا أريد الموت في وطني .

أما مسألة (المجردين من الحقوق المدنية) فقد أوجزها أحد المحامين بفظاظة لافتة: إن الكلب يملك حقوقاً أكثر من (المجرد من الحقوق المدنية) وقد استوعبت حجم الخلل الحياتي المترتب عليها عندما

اعترضتُ سوقيةَ التعبير، فأوضح: إن صاحب الكلب المدهوس بسيارة يمكنه الادِّعاء ومقاضاة الفاعل، أما (المجرد من الحقوق المدنية) فلا حق له بأي شيء أبداً، لا بالتعليم ولا بالتوظيف ولا بالادعاء أو القضاء ولا التملُّك ولا الإرث... ولا... ولا... بكلمات بسيطة هو كائن غير موجود بحكم الأنظمة والقوانين، دودة تدب على الأرض، من يهتم لو داستها قدمٌ ما.

سنوات العقد الجديد تتوالى والأحداث الجسام في العالم وفي منطقتنا تسير معها على خط موازٍ. هجمات 11 سبتمبر المذهلة التي حار البشر في تصنيفها على ضفتي العداء للأميركان والاعتراف بحياة الإنسان، حرب العراق التي جاءت بعد حرب الكويت بـ (13) عاماً والتي يتم فيها اجتياح واحتلال البلاد خلال (19) يوماً ولا تنتهي بانقسام العراق إثنياً ومذهبياً وإعدام صَّدام، الانتفاضة الثانية في فلسطين، حصار (أبو عمار) وأحداث جنين وكنيسة المهد... و... ورحيل (أبو عمار) .

وعلى إيقاع طبول الحرب والتهديدات الخارجية ظهر القائد الشيوعي الخارج من زنزانته المنفردة بعد (18) عاماً بلا محاكمة ليقول: "ليست سورية في دائرة الخطر، وإنما في عين الخطر... وأن سورية لجميع أبنائها داخل وخارج السلطة، والجميع مدعوون للمصالحة الوطنية ."

***

ربيع دمشقي, واحلام مثقفين...

تنادى مثقفون وفنانون وأدباء وأصدروا بيان المثقفين الـ (99) وطالبوا بتحصين الوطن بإجراءات تجعل المواطن شريكاً حقيقياً في حياة البلاد ومصيرها، وتشكَّلت من أبرز وأجرأ مفكري البلاد (لجان إحياء المجتمع المدني) التي صاغت رؤية بانورامية لأحوال البلاد المحكومة بالقبضة الأمنية ونادت بإطلاق فعاليات المجتمع المدني بديلاً عن لوحة المجتمع المعَسْكَر. دعت لتحريم العنف الوطني الداخلي، وتخصيص السلاح الوطني بالدفاع عن الحدود الوطنية، واعتماد تعدد الآراء بديلاً عن آحادية الرؤية. وبدأت بالتواجد على أشكال نصف سرية، نصف علنية لشبه جمعيات، شبه منظمات، مكاتب شبه فردية تهتم بحقوق الإنسان بغض النظر عن أي انتماء أو ممارسة أو نوايا أو أفعال تبدأ بحرية التعبير والاختيار والسفر ولا تنتهي بحقوق الموقوفين والمحكومين والمساجين، وعلى سطح الحياة السياسية الراكدة، طغت وجوه سياسية وفكرية واجتماعية، قديمة، جديدة، يسارية، محافظة، قومية، إسلامية متنورة، اقتصادية، أدبية، فنية، تلقَّفتها الشاشات الفضائية الحرّة وحتى بعض الصحف الحكومية لتعالج حلولها أو اجتهاداتها للخروج من نفق مسدود مثقل بالاستبداد والفساد والإفساد من أجل وطن حر ومواطنين أحرار، واندرجت هذه الفعاليات في تيار عريض (غير طويل) و(غير عميق) غض، خجول، متردد عُرف بـ (ربيع دمشق)

وتشكَّلت لجان نصرة العراق وفلسطين من شخصيات معارضة معروفة أو مغمورة عمادها معارضون سابقون، سجناء سياسيون مزمنون، يساريون، قوميون عرب، وتداعت إلى تظاهرات في شوارع المدن، أو لاعتصامات مسائية على ضوء الشموع في ساحاتها الرئيسية، فرفدها أفرادٌ وجماعات من فئات عمرية فاتها قطار (الولدنة) أو الشباب؛ فمعظمهم كهول أو مسنين، قلة نسائية. وجاءت هذه المبادرات والفعاليات المحدودة هزيلة، خائفةً ومرتبكةً وغير لائقة بضخامة الأحداث الجسام التي استهدفت كيان الأمة ووجودها، أما المارّون (بين الكلمات العابرة) على حد تعبير الراحل (محمود درويش) والذين لا يكادون يفهمون أن هذه ليست مسيرات تقليدية؛ فيبدون مشتتين مذعورين وجادين بالابتعاد السريع خشّيةَ أن يُفسر فضولهم أو تلكؤهم موافقةً (دعماً أو مناصرةً)، الأمر الذي قد يجر عليهم إشكالات هم بغنى عنها، فبكل الأحوال فلسطين والعراق لا تستعاد بالأناشيد والهتافات، وقبلهما أو بعدهما اسكندرون والجولان.

وتجدَّد صراعي الداخلي بين وجداني وتاريخي السياسي من جهة، ومن جهة أخرى غريزة الحفاظ على الذات وإرضاء الزوج والأولاد والعائلة، وكانت مواقفي ومشاركاتي أو نكوصي وتراجعي رهناً بتغلّب هذا الجانب على ذاك. ولم أتمكن من حسم أموري والتزاماتي، ولا أزال أسيرةَ هذا الوضع حتى الآن .

بدأت ذروة أعمال لجنة نصرة فلسطين والعراق في ذكرى رحيل أحد رموز المعارضة السلمية من قيادة التجمع الوطني المعارض الدكتور جمال أتاسي، ثم في استضافة النائب البريطاني العمالي المعروف بمناصرته للقضايا العربية جورج غالاوي، وتم ذلك بغض بصر السلطات السياسية والأمنية، وأيضاً استمرار عمل منتدى الأتاسي الشهري بعد إقفال جميع المنتديات في كل المحافظات بالتهديد والوعيد والقانون .

كنتُ وما زلتُ أنظر وأستمع باهتمام وهلع واحترام إلى الأصوات الشجاعة النزيهة المعارضة العزلاء والتي ترفض الاستقواء بالغير -كما فعلتْ بعض المعارضات العربية- ولكنها تفشل أيضاً في الحصول على حضانة شعبها المذعور المقهور وغير القادر على الخروج من شرنقة دسَّته فيها أحداث الثمانينيات المجنونة وعقابيلها وتداعياتها والتي لا تزال حاضرة في الأذهان حيث يجري إنعاشها من آن لآن .

عملتْ السلطات على أصعدة مختلفة ومستويات متعددة على فكفكة وهزيمة أو منع أي فعالية وطنية أو مطلبية يمكن أن تبرزَ وجهاً مستقلاً عن إرادتها المطلقة، فأرسلت إلى التجمعات العلنية أو النصف علنية جموعاً منظمة أو عشوائية من شبيبة الثورة واتحاد الطلبة وكتيبة حفظ النظام وعناصر الجهات الأمنية المتنوعة، فعارضوا الكلمات والهتافات والمداخلات الوطنية الديموقراطية بشعارات وخطابات الحزب القائد والزعيم الخالد والأمة الواحدة والرسالة الخالدة والاتهامات بالعمالة والخيانة، تماماً كما عُورض النشيد الوطني بنشيد الحزب القائد، واستخدموا الشتائم السوقية والعصي والهراوات والتروس والاعتقالات للنساء والرجال على حد سواء .

لا أزال أذكر الرفسات التي طالت روائية سورية رزينة وطيبة في أحد الاعتصامات، وشعر الرأس الكثيف لأحد الفنانين التشكيليين يُمسح به أرض الشارع بينما ارتفعت قدماه فوق مستوى رؤوس معتقِليه من عناصر الأمن النشطين، وأمام القصر العدلي تابعتُ بقلق مطاردة طبيب ومفكر سجين سابق لمدة 16 عاماً، من قبل غوغاء حقيقين مسلحين بالهراوات والعصي وهو يلجأ إلى عقيدٍ بالشرطة ويطلب حمايته؛ فيجيبه ببرود وحيادية عالية (ذنبك على جنبك). مع ذلك كان هناك شبه إجماع على أن ما يجري لا ينبغي أن يدعونا للتشاؤم بل العكس، فإنها ظاهرة تبشِّر بالخير على حد قول أحد الظرفاء، وذلك مقارنة بماضٍ قريب من

سنوات القتل والرعب والتعذيب والسجون طويلة الأمد والاختفاء القسري واستلاب إرادات الأفراد والجموع والمجتمع والوطن برُمَتِه .

حين بدأ ما سُمِّي بالحراك الديمقراطي التنفس و(التمطِّي)، نصح (الحكماء) والمتشائمون بعدم الانخداع بسلاسة وطراوة النظام الحالية، ودعوا لتذكرُّ الأفخاخ التي نُصبتْ للمثقفين والكتّاب أواخر السبعينات، حينما دعا قادة النظام -من الحزب القائد وجبهته الوطنية التقدمية- الجميع للكلام بحرية عما تختزن صدورهم من هموم وآلام، حين ترددت عبارات (لا أريد لأحد أن يسكت عن الخطأ)، (الوطن حرية... الوطن كرامة... والوطن لجميع أبنائه)، وتكلَّم كثيرون حتى بدا أن الكلام انتهى فبدأ الفعل، والفعل قاد كثيرين ممن (فضفضوا) إلى سجون قضوا فيها أعواماً طوالاً. أعرف أستاذاً جامعياً كتب مقالةً جريئةً في جريدة الثورة الحكومية أودت به إلى فقدان خمسة أعوام من عمره، التقيتهُ مؤخراً بعد أن غدا رجلَ أعمالٍ ناجح وميسور، سِمتهُ الصمت والابتسام، يعرف ويقرأ ويفهم كل شيء لكنه يؤثر أن لا يتكلم، وكأن لسان حاله يقول: (لا يُلدغ المؤمن من جحره مرتين..)

يبدو أن إيماني لم يكن صلداً، فلقد اعتقدتُ بإمكانية الحوار وضرورته بين من بيده كل مفاصل الحياة الوطنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والأمنية وبين من يرى أن الحياة أثبتت في غير مكان وفي كل الأزمان أن استمرار حكم البلاد -كما حُكمت منذ عقود- هو عبث حقيقي بمصائر الوطن والمواطنين، أفلا يكتفون بدروس التاريخ؟ أفلا يعقلون؟ ألا زالوا يظنون أن بإمكانهم النجاح حيث فشل آخرون؟ وأنهم سيؤبِّدون رغم زوال من قبلهم؟.

هذه المقدمات قادت إلى تصورات وقناعات وتوافقات صاغت (إعلان دمشق) الذي ضمَّت صفوفه أطيافاً متباينة من المعارضات التاريخية، إضافةً إلى وطنين مستقلين حرّكهم وجذبهم إلى دائرة الفعل الشأن

الوطني العام المسكون بمعضلات مصيرية لا بد من تكاتف الجميع لحلها، وقد بقي الإعلان مفتوحاً على كل القوى والشخصيات داخل وخارج السلطة على حد سواء .

تجرَّأْتُ على رفد بعض فعاليات الحراك الديموقراطي في اعتصامات أو تظاهرات ديموقراطية، مطلبية وطنية أو قومية، وتخلَّفت عن غالبيتها متجاهلة جزئي الوجداني الخاص بالوطن والمجتمع مؤثرةً الانصياع للجزء الوجداني الخاص بالذات والأسرة والزوج والأولاد. وأدهشني من جديد حجم الرعب والاستغراب في عيون الناس الفضولية وهي ترقب عن بعد بضع عشرات أو مئات من الناشطين تنشد أناشيداً وطنيةً (أكل الزمن عليها وشرب)، تهتف لفلسطين السليبة والعراق الجريح ولحريات وحقوق البشر في حياة كريمة، وأرعبتني حتى الرجفان حشود شبيبة الثورة واتحاد الطلبة والحزبيين وعناصر الجهات الأمنية المتعددة وكتيبة حفظ النظام المتدفقة نحونا كطوفان حقيقي يبغي اقتلاعنا من جذورنا وكأننا مجموعة (كوماندوس) معادية هبطت بالمظلات لاحتلال ساحة أو شارع في المدينة؛ فتوجَّب تكنيسها بأقصى سرعة عبر هتافات بالروح والدم للقائد الأوحد والحزب الواحد والأمة الواحدة والرسالة الخالدة، وذلك قبل اجتياحنا بالهراوات والعصي، وقبل أن يقتادوا (94) شخصاً منا للتوقيف المؤقت لدى سجن الأمن المركزي نساءً ورجالاً .

لم يتغير قمع السلطات الأمنية المفرط ولا أذرعها الأخطبوطية القادرة على إيذاء المعارضين في كل زمان ومكان وبأي حجم كان، وقد لا يكتفى بمن يعارض أو يعترض، بل قد يطال بعضَ أو كل من حوله. إن حكمةً مقدسةً كـ (ولا تزرُ وازرة وزر أخرى) لا محل لها في مفهوميات الأمن الشمولية، وهذا الاحتمال شكَّل لي هاجساً طالما أرَّقني وألجأني إلى (الزوغان) من فروضٍ وجدانية تجاه الوطن والناس والتي تمثَّلت بتوقيع

عرائض أو بيانات أو إعلانات. كان التوثيق يخيفني على الرغم من علمي وتأكدي أن هناك دوماً من يحاسب حتى على الشبهات والنيَّات

لم أوقع عريضة الألف مثقف التي خاطبت السلطات وحاولت وضعها أمام مسؤولياتها تجاه الوطن والمواطنين وترددتُ بمواجهة إعلان (دمشق - بيروت) الذي صاغه مثقفون سوريون ولبنانيون عقب اغتيال الحريري ورفاقه وثلة من الشخصيات الوطنية والثقافية- وقدموا فيه رؤية حضارية لسلوكيات وإجراءات إنقاذية ترتكز إلى تاريخية ورمزية ورومانسية (سوا ربينا) الفيروزية، فقامَ أحد الأصدقاء بانتشالي من حيرتي بحضور زوجي والأولاد حين أوجد لي (تخريجة) عصرية ادَّعت أن مفهوم المثقف اليوم لم يعد كما كان في خمسينات وستينات القرن الماضي حين كان حامل شهادة (الكفاءة) في عداد المثقفين، فالآن مفهوم وتعريف المثقف هو المنتج للثقافة والعلوم والفنون وليس مستثمرها، وعلى هذا فـ (سلام) ليس مطلوب منها التوقيع بل التشجيع. هذه التخريجة أقنعتْ منطقي ولم تُقنع ضميري، وكي لا يذهب تعب حامل العريضة عبثاً؛ أصرَّ زوجي على وضع توقيعه، وعلَّلَ ذلك ضاحكاً بأن (سلام) قامت بالواجب وأضاعت سنوات من عمرها وجاء الآن دوره، فإذا اقتضى الأمر يذهب أحدنا للسجن ويبقى الآخر ليقوم بحمل همِّ الأسرة، ولكن فاته أن مداخيلنا سويةً لا تكاد تفي باحتياجاتنا التي تنمو مع نمو الأولاد، هذا إذا استثنينا واجباته تجاه والديه وأمراضهما، كما فاتته قدرة القبضة الأمنية أن تطالنا معاً، وهذا ما حصل مع عديدين فمصير الأطفال ليس ضمن اهتمامات أولي الأمر الأمنيين .

***

لاشيء يوازي ألم يتلقاه بشر على يد بشر!

إذا زادت الحمولة على جماد يشكو بطرقٍ مختلفة، يُصدرُ أصواتاً، يحرن قبل أن يجمد أو يتوقف، هذا حال السيارة والكمبيوتر والموبايل؛ وحين تزداد الحمولة على أجساد البشر تعرجُ، تقعُ، تمرضُ، تنهار، وقد تموت؛ حين تزداد الحمولة على الذاكرة الإنسانية تنطق عند أول سانحة، تُنزل أحمالَها عند الأسماع أو الأبصار، تكتب على الورق كي ترتاح، وذاكرة سجوننا ومعتقلاتنا ومعارضاتنا وأجسادنا وجلادينا وضحايانا وموتانا بدأت النطق قبل أن تنساب على الورق أو (النت)، وقبل أن تتحول إلى كتب توثيقية أو أدبية تستند لوقائع تاريخية حقيقية مسندة لشهود عديدين ومختلفين برواياتهم الواحدة حسب رهافة أو عادية أو (غلاظة) أحاسيسهم أو قدرتهم على السرد. تمت طباعة هذه الكتب سراً أو خارج البلاد وأُدخلت إليها تهريباً، وتداولتها الأيدي بحذر وخوف، وبدت شهادة حيةً غير مكتملة على مرحلة من أقسى ما مر على هذا الوطن ومواطنيه بكل تأكيد، ففيها تجلَّت أحجام غير مسبوقة من الخوف والرعب والتعذيب والذل والإهانة والقهر والموت، وقودها أجساد بشر وأرواح راوحت طويلاً على الحد الفاصل بين الحياة والموت ولكل منهما جاذبيته، وجاذبية الأولى بعد حين، والثاني فرج فوري أو شبه فوري... قرأتُ رواية مديح الكراهية لـ (خالد خليفة)، وعينٌ على السفينة لـ (مي الحافظ)، والقوقعة لـ (مصطفى خليفة)، نيغاتيف وحراس الهوى لـ(روزا

بوعلي ياسين). أذكر أن إحدى قريباتي كفَّت عن قراءة (القوقعة) ليلاً لأن أحداثها المرعبة أخذت تندسُّ في أحلامها كوابيساً غير محتملة. قبل ذلك صدرت (الشرنقة) لـ (حسيبة عبد الرحمن) رفيقتي وشقيقة روحي وزميلة سجني التي بات كتابها فور صدوره محط سخطنا جميعاً نحن بنات التجربة السجنية (العتيدة)، فقد جاء الكتاْب -حسب قناعاتنا- ليلتقط كل سلبياتنا وخلافاتنا وأزماتنا التي أظهرت أسوأ ما فينا، فاعتبرنا أن المخلوقة ظلمت ذاتها وظلمتنا، إذ تجاهلت كل جوانب الطيب الإنساني والأخلاقي الذي أتى بنا إلى (بطن الغولة)، وأبرزت فقط جوانب الأنانية والسخف اللذين نبشتها من أعماقنا ظروف الاعتقال القاسية على الجسد والقلب والروح والوجدان .

أنا الآن أعتقد أن موقفنا من الكتاب جاء مبالغاً إلى درجة محاولتنا اقتناء معظم نسخِهِ كي لا تقرأ (العيون الغربية) ضعفنا المشروع. أحد أقربائي المهتمين بالأدب والفكر أحالني إلى ثلاثية (دوستيوفسكي(: (الشياطين)، التي تتحدث بالضبط عن جوانب الضعف الإنساني لدى شخصيات المنظمات الثورية في روسيا القرن التاسع عشر وأضاف: "إذا لم توافقوا على ما كتبتْ (حسيبة) فاكتبوا رؤاكم الأخرى". وتهافتنا على الكتابة بغية إنصاف ذواتنا، إلا أن ما خرج كان شحيحاً جداً، وصمتتُ طويلاً قبل أن أكتب ما أكتبه الآن والذي قد يكون موفَّقاً أو لا يكون، والذي قد يتاح نشره أو لا يتاح .

كتاب (نيغاتيف) شبه التوثيقي مبادرة جيدة وجديدة، لكنه جاء قاصراً، ولا ألوم الكاتبة، بل الظروف الصعبة للحصول على المعلومة وعرقلة تدفقها، فالإعلام ما زال حكومياً بالمطلق، وسيف حجب المواقع الإلكترونية وشلَّها يومي وحتى ساعي بامتياز، وهو نشط وميسور ومدعَّم بقوة مواد قانون الطوارئ الساري المفعول منذ 8 آذار 1963 ولغاية كتابة هذه الحروف.

جاء الأدب -لمن رأى وشاهد بأم العين المغروسة في الوجه أو أحسَّ وعانى باللحم والعظم والعصب والدم- متخلِّفاً قليلاً أو كثيراً، على مبدأ (اللي بياكل العصي ما متل اللي بعدها!) وال (إيدو بالميّ ما متل اللي إيدو بالنار!). أما لمن يقرأ عن ذلك بعد مرور سنين، فقد جاءت مرعبةً إلى درجة غير قابلة للتصديق بدعوى أن هذا العنف المنظَّم لا يمكن أن يوجد على أرض الوطن، وبالتالي لا بد أن السرَّد جاء مبالغاً جداً، غير أن الحوادث ذاتها كانت ترد على ألسنة أناس متباعدين إيديولوجياً أو يقفون على طرفي معادلة الجلاد والضحية .

مهما بلغ الكاتب أو الرسام في براعته النقلية؛ فلن يبلغا الحقيقة أبداً. آلة التسجيل والتصوير بإمكانهما التقاط الحقيقة الشكلية رمزياً وبثَّها، أما شهود العيان فسيتخلَّفون أيضاً عن عمق الحقيقة. الممثل البارع بإمكانه عكس جزء من الحقيقة، جزءاً وليس كلاً، ما دمنا نجلس أمام شاشة أو في مسرح، صاحب الألم فقط بإمكانه الإحساس بالألم، وستظل علوم الجمال من أدب وفن متخلفةً عن سوية الألم الإنساني العميق، خاصةً من ذاك المتأرجح ما بين الحياة والموت، ذاك الألم الذي يتلقَّاه بشر على يد بشر من لحم وعظم وعصب ودم.

والزمن الذي ماطل الوطن طويلاً خدعه مرةً أخرى، فقد أخطأ المتفائلون وأصاب المنجِّمون المتشائمون وأعاد النظام الكرَّة هذه المرة تلو تلك المرة، وربيع دمشق تم حصاده قبل أن يثمر، بل حتى قبل أن يزهر.

يتهامس الناس -فلا أحد يتكلم بصوت عالٍ إلا في مباريات كرة القدم- ويتوافقون عن عشرة أعوام القرن الحالي على أنها استمرار للثلاثين عاماً من القرن الماضي، والجحافل الأمنية تواصل نشاطاتها وتتوسع أفقياً وعمودياً وينشط المخبرون والبصاصون، ويعود المجتمع إلى حالة الصمت والخضوع المطلق والموات. إنَّ أوضاع البشر الاقتصادية

والسياسة والاجتماعية حافلة حتى حافتها بالهمسات واللمسات والفعاليات الأمنية التي تشكل القاسم المشترك الأعظم لكل الأنفاس والأجسام والأمزجة والهموم، فالسلطات الأمنية نجحت في شل مبادرات أشجع وأنبل المعارضين الديموقراطيين، وأفلحت في تسييد قناعات الناشطين بمراقبة ذواتهم وأفكارهم وتصرفاتهم بعد أن أكَّدت واقعياً أن لديها لكل سؤال جواب ولكل كلمة حساب، وأن الكلفة باهظةٌ، تبدأ بمنع المغادرة ولا تنتهي بالاعتقال والمحاكمة على تهمات تقليدية ماسة بـ (وهن نفسية الأمة وإضعاف الشعور القومي)... إلخ.

أما الأجواء المحيطة بهؤلاء المعارضين فمسمومة مع كل من يحيط بهم أو يقترب منهم أو يزورهم أو يتعاطاهم، أو.. أو... وهذا ينسحب على فعاليات الأفراح والمآتم والمناسبات، فضلاً عن استباحة المكالمات الهاتفية والخليوية والانترنيت .

بات واضحاً أن السلطات الأمنية استعادت أجواء الذعر والرعب من المعلوم والمجهول، وأن الانسحاب من الشأن العام واللوذ بزوايا المنازل هو الحلّ، وإن هذه السلطات لا تقبل بأقل من الولاء المطلق والارتهان للرأي الواحد والكلمة الواحدة التي تأتي عن طريق مصدر واحد هـ والآمر الناهي، وبيده كل نواصي الحياة والموت ومناحيهما .

الآن تسير حياتنا على سكة واحدة في قطارٍ جماعي تتعزز فيه مفاهيم العزلة والصمت والخوف والنجاة الشخصية والأنانية والتعامي والتغابي والتسليم والاستسلام والهرب وفقدان الأمل، أين أنت يا سعد الله ونوس يا (أبو الأمل)؟ هل يكفي القول أننا محكومون بالأمل كي نحظى بالأمل؟ أم أن الأمل يأتي بالعمل؟ وكيف لنا أن نعمل؟ ما العمل؟ هل العمل أن لا نعمل؟ إذاً من أين نأتي بالأمل؟.

تهامس البعض واستعرض جبروت النظام في الداخل وصمامات أمانه

عربياً وإقليمياً ودولياً، وخلص إلى أن المعارضة في ظل انعدام أدنى شروط عملها عبث بعبث فوق عبث، وارتأى حلاً نهائياً غريباً عجيباً وقفت إزاءَه مذهولةً، أنا التي لا تكاد تلامس الشأن الوطني العام وهمومه والتي أتفَّهم انسحابي الخاص من هذه الساحة كما انسحب غيري بدواعي مختلفة، أقلها أو أكثرها أن هذا الحمل أكبر من أن تطيقه كتفي، أما الحل فإنه غير ذلك تماماً، وأشمل من ذلك بكثير.. يقترح الحل انسحاباً شاملاً من الحياة السياسية الوطنية لكل أطياف المعارضة عبر بيان أو مؤتمر صحفي، وتحميل النظام كامل المسؤولية والتبعات الوطنية عن كل أزمات وهموم الوطن والمواطن

ماذا لو فعلتها المعارضة؟ ماذا لو استقالت دفعة واحدة من همومها وواجباتها وآمالها؟ ماذا لو جرى إغلاقُ كل منافذ الوطن بوجه الأمل؟ ماذا لو خلت الليالي من النجوم والطرقات من الفوانيس؟ وماذا لو انطفأت الشموع؟ وهل هذا في مصلحة الوطن؟ وهل الوطن سوى البشر المصنعين من لحمٍ ودم وألمٍ وأمل؟ وهل نغلق الزمن على اليوم ونمنع إطلالة الغد؟

***

العالم يعيش إعصاراً سموه "أزمة الرهن العقاري"

في أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين صرت أعمل؛ أقوم بعمل معقول وبدخلٍ معقول. وعبر رحلة ماراتونية تمكَّنتُ وزوجي من الحصول على قرض سكني، وصار لنا منزل معقول وثلاثة أطفال يجتازون الطفولة. وشعلة الأمل ما زالت محافظة على شعلتها، ليس بفضلي بالتأكيد، فأنا انسحبتُ من أي ساحة يمكن أن يُطلق عليها تسميةَ معارضةٍ أو رأيٍ آخر، ولُذّْتُ بزاوية منزلية اتسعت لجهاز الكومبيوتر الذي غدا نافذتي على العالم الخارجي وعالمي الوطني والذي كنت آخذ منه من دون أن أعطيه، فأنا متلقِّية بامتياز، ولطالما فرَّت مني رغبات اعتزَمتْ أن تُدلي برأيٍ أو حلٍ أو مشاركةٍ، لكن حارسي الداخلي بدا أقوى من كل هذا في محاولته تجنيبي الوقوع في فخ من سَمَّوهم المدوِّنين الذين (يعملون على نشر أنباء كاذبة توهن نفسية الأمة في زمن الحرب) وحصلوا أحياناً على هديةٍ سجنيةٍ قدرها ثلاث سنوات بحالها.

أنا الآن أكثر واقعية وعقلانية وأقل أيدلوجية. أرى العالم كما هو من دون زيادة أو نقصان... أن أعايش الإعصار العالمي الذي يعصف بعالم الرأسمال والذي بدأ بالمركز الرئيس (وول ستريت).

تنبأ عالم الفيزياء النووية (ليو زيلارد) -ذات مرة. أن يؤدي سقوط النظام السوفييتي إلى سقوط النظام الأمريكي. قال: "إن العلاقة القائمة -في نظامٍ ما- على مكونين تكون من الترابط بحيث لا يستطيع أحدهما العيش من دون الآخر."

أما فرانسيس فوكوياما الذي أغلق التاريخ على انتصار النظام الرأسمالي فكتب: "سقطت فلسفة (ريغان. تاتشير) القائلة إن السوق تدير نفسها بنفسها". وخلص هذا الأيديولوجي العتيق إلى واقعية شديدة الموضوعية مفادها: "1- لا بد من رقابة حكومية فاعلة ومتطورة توازي تطور الأسواق المالية ونقلاتها النوعية. 2- لا بد للقطاع العام لإعادة البناء واجتذاب الخبرات العالية. وهذه المهام لا تقوم بها إلا الحكومة."

أما جورج سورس المستثمر والمضارب الذي هزَّ أسواق النمور الآسيوية في تسعينات القرن الماضي فكتب: "انهار نموذج العولمة وإزالة القيود وهذا ما سبب الأزمة الحالية... نحن نشهد نهاية هذه الأيديولوجيا."

ما بين أعوام (2000- 2008) ارتفعت قيمة سوق المشتقات المالية القائمة على القروض المخلفة من (100 مليار دولار إلى 62 تريليون دولار) فوصف الخبير المالي الملياردير وارن بافيت (المشتقات المالية) بأنها أسلحة دمار مالية شاملة.

أما الرئيس ساركوزي -المتحمس السابق للنموذج الرأسمالي الأنغلوساكسوني- فدعا لإقامة منتدى عالمي لإعادة النظر بالرأسمالية معلناً: "أن شرعية تدخل القوى العامة في عمل النظام المالي لم تعد موضع نقاش". وذهب وزير مالية ألمانيا إلى أن الأزمة ستؤدي إلى (نهاية أمريكا كقوة مالية عظمى). وأشار وزير إسرائيلي إلى أن الأزمة المالية جعلت الكثيرين ينظرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أنها عملاقٌ كسيح.

و في دراسة لـ (بول كروغمان) الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد جاء: لقد حصدت صناعة الخدمات المالية أرباحاً فلكية، لكن بدلاً من أن تخلق (قيمة مضافة) تفيد الجميع -كما في الصناعات التقليدية- اختصت بتدمير كل قيمة ممكنة، والأمر لا يتعلق فقط بمشكلة المال وطريقة مراكمته، بل أيضاً بالآثار السلبية على عموم المجتمع الذي أصبح مرتهناً لقيم المضاربة والمجازفة والمغامرة؛ وتضرر مستقبل أمريكا جرّاء انجذاب نخبها إلى الاستثمار البنكي على حساب العلوم والخدمات والأخطر من ذلك فساد الطبقة السياسية ومسايرتها لفقدان الحس السليم تجاه الحصول على الثروات الهائلة بضرباتٍ قدرية وأشار: "ونحن ننظر إلى هذا الخراب نجد الجواب ببساطة في عالمنا الذي فقد عقله وخرج عن كل سيطرة". وأنهى دراسته بضرورة زيادة الإنفاق على مشاريع القطاع العام والاحتياج الحاد إلى نظام تتحمل فيه البنوك خسائرها كما تجني مكاسبها ولن يأتي ذلك سوى بالتأميم.

كتب مروان اسكندر: "ليس مستغرباً أن تبرز معالم الأزمة المالية في أوروبا بدءاً من البلدين الأكثر التصاقاً بالاقتصاد الأمريكي المعولم وهما بريطانيا وايرلندا، فايرلندا حققت أعلى معدلات النمو من خلال تحولها إلى المركز الرئيسي للشركات الأمريكية العملاقة المتخصصة بالكومبيوتر والاتصالات والعمل المصرفي، أما الآن فيعلن رئيس وزرائها أن بلاده تعاني انكماشاً حاداً. وقد شهدت سويسرا خسارات هائلة في المجال المصرفي. ويتداعى (مفعول الدومينو) على بلدان اقتصادها أقل متانةً وحيويةً مثل اليونان والبرتغال وإسبانيا والنمسا وحتى إيطاليا. إن أوروبا قادمة على أيام قاتمة السواد.

وعمل وزير المالية الألماني شتاني بروك على إطلاق حملة رسمية لـ (تمدين) الأسواق المالية أي (تخليها من توحشها وسلوكها الغاباتي)،

واستعان في إحدى مقابلاته الصحفية بتعبيرٍ استخدمه (ماركس) في القرن التاسع عشر: "إن الرأسمالية غير المقيدة والجشعة -مثل التي نشهدها الآن- ستلتهم نفسها في النهاية."

لا تزال أخبار الإفلاسات وإغلاق المؤسسات والمصانع والشركات وتسريح العاملين تنمو أمامي على (الشبكة العنكوتية) كالفطر وتجتاحني كطوفان مليء بالمآسي والنكبات المعيشية والصحية والغذائية للملايين، ولم يكن ينقصني سوى أخبار حرائق غابات روسيا وفيضانات باكستان وتطورات أزمتي البيئة والمناخ لتكتمل حلقة الأسى واليأس حولي. أحاول فهم الأسباب الحقيقية لما حدث للأسواق التي حلّقت لعنان السماء قبل أن تتخبط على الأرض الصلبة، وكيف غاصت الأموال في أعماق البحار بعدما كانت تسرح وتمرح كقلاعٍ مالية مائية ضخمة عصية على الغرق أو الزوال، وكادت الأمور تصبح معضلةً في ظل جهلي بأبسط المفردات الاقتصادية البعيدة عن اختصاصي وعملي، لكني -بمحض الصدفة- عثرت على ضالتي في أحد أعداد مجلة (أطياف) التي يصدرها -بصورة نصف سرية- حزب (ربع علني) هو حزب الشعب الديمقراطي السوري.(

هُنا أتوقف قليلاً لأورد تعليلاً لدخولي في هذه المعمعة المالية ومحاولة فهمها، أنا التي بدأتُ كتابةَ رؤيتي المتواضعة التي أودت بي عن الطريق إلى ما وراء الجدران العالية لقرابة 5 أعوام، تلتها (خمسات) أخرى في زواريب الحياة التي زادتني اقتناعاً بأمرين متناقضين: الأول: إني وغيري من ذوي النوايا الطيبة المجردة من أدنى درجات البراغماتية (النفعية) ما استطعنا أن نفعل شيئاً، والثاني: ويحي وويح أبناء جلدتي إذا تخلوا عن محاولات فعل شيءٍ ما. فالوطن ليس بسمة صفراوية على الشفاه، والمظاليم ليسوا أشباحاً بين أرضٍ وسماء، وآمال البشر بحياةٍ أفضل ليست نزوة أو مشواراً، وإنما أمانة في عنق الجيل التالي على الجيل

الحالي وللجيل بعد التالي على التالي... وهذه ليست (خطبة عصماء) بل صرخة وجدانية تشبه آخر صافرة إنذار تطلقها سفينة تشرف على الغرق. فأنا في الثلث الأخير من حياتي ما زلت آمل أن أرى ملامح ما اعتبرته مستحيلاً في ثلثي الثاني وحتمياً في ثلثي الأول. يا إلهي! أهي مسبحة تكرّ حباتها بين يديَّ وأمام عينيَّ، حبة تقول: أمل، وأخرى تقول: ألم، وثالثة تقول يأس... ومن جديد تعود كلمات سعد الله الأبدية التي تأبى مفارقتي، ولكنها تأتيني بوجوهٍ مختلفة... ساخرة... شاطرة... ضاحكة... لئيمة... طيبة... ماكرة... حنونة... لكنها دوماً حرة... تعيد الكرة تلو الكرة .

في آخر لقاء لمرفيقات سجني- بمناسبة ذكرى الإفراج والذي إذا تقليداً دورياً، فإن اهتمامي بأمر (الأزمة المالية العالمية) فاق اهتمام الجميع لدرجة أن (قلب الطرحة) قلب طرحة هذا الموضوع، بدا واجباً إلزامياً كي نتمكن من التعاطي في موضوعاتٍ أخرى أكثر محليةً وأدنى مجهوداً فكرياً واختصاصياً. وبالمناسبة، فإن اللقاء الخير تميز بـ (نمرة) غير عادية وغير تقليدية، فإحدى السجينات القضائيات من معارفنا فاجأتنا بحضورها على الكفيتريا التي شغلنا إحدى زواياها، وأهدتنا رقصة نسائية جميلة (سولو) أي إفرادية، وتهامسنا عن جمال رقصتها ونضوج جمالها السابق، وامتدحنا وفاءها نحن اللواتي كنا نتجنبها كما مثيلاتها لأنها من (طينةٍ أخرى) غير طينتنا. ولكننا على التوازي وبفعل الاستمرارية لأنماط تفكيرنا في هذا المجال أعملنا ذهننا في كيفية معرفتها موعد اللقاء ومكانه؛ ولم نصل لنتيجة مقنعة، في حين قدّر معظمنا أن الجهات الأمنية على علم بهذا اللقاء شبه العلني، ولم نبرئ زميلة سجننا القضائية من صلةٍ ما بهذه الجهات، وصلتها على الأقل بإحدانا.

أنا الآن أحاول إنهاء تسجيل ما بدأته؛ لنقل مرحلة قاسية من حياتي؛ لإنزال بعض حمولاتي كما أسلفتُ، وأرى هذا الأمر صعباً، وهُنا أتذكر ما

قالته يوماً الصحفية الرائدة روز اليوسف صاحبة المجلة المسماة باسمها، والدة الكاتب الرومانسي إحسان عبد القدوس في تقويم ابنها الأدبي، قالت: "إحسان كاتب جيد. يبدأ جيداً. يصنع حبكة معقولة، ويشرع بفكفكتها بشكلٍ معقول. لكن نقطة ضعفه تتجلى في أنه لا يحسن إنهاء عمله. إن مشكلته الأدبية تكمن في خروجه من غرفة محكمة بناها بنفسه وسها عن ترك منفذٍ يخرج منه". لكني سأحاول الخروج، فأقول إني حسمت أموري السياسية والاجتماعية والأخلاقية والوطنية على الشكل التالي، فأولاً: أنا الآن في حالة عزوف طبيعي عن أي انتماء سياسي لعدم قدرتي على تأدية التزاماتي وتبعاته. وثانياً: أنا مؤمنة بعدم صلاحية الطبعة السوفييتية الخاصة بالاشتراكية وأشباهها على الرغم من تحليها بإيجابيات. وثالثاً: أنا متأكدة أن النظام الرأسمالي غير قادر على حل مشاكل الشعوب، فإن صنع ازدهاراً في مكانٍ ما فإنه قد يصنع شقاءً في مكانٍ آخر على الرغم من وجود إيجابيات له. ورابعاً: أنا أعتقد أن البشر سيبدعون نظاماً اجتماعياً أكثر عدالةً وإنسانيةً من النظامين السابقين عبر الاستفادة من إيجابيات كلٍ منهما في تجربته التاريخية. وخامساً: لم أعد مهتمة جداً بشكل ملكية وسائل الإنتاج، بل بشكل توزيع الخيرات المادية والروحية العادل على البشر، فأنا أنكر التساوي الفج في توزيع المداخيل، كما أنكر التفاوت الهائل في امتلاك الثروات. وسادساً: إني مع حقوق الإنسان المختلفة في كل زمانٍ ومكانٍ. وسابعاً: إني مع كل أنواع الديمقراطية السياسية والاجتماعية فهذا حقلٌ لا تجوز مغادرته أبداً؛ ولن أغادره. وثامناً: أنا لن أهاجر؛ ولن أترك وطني، ولن أصبح مواطنة في أي بلد آخر مع احترامي لكل وطن يحضن أبناء وطني متمتعين بحقوقهم ومؤدين واجباتهم.

***

نحن البنات المعتقلات, التجربة أمنا والسجن أبونا...وبذا لم نعد يتيمات!

سأختم. كنا ما نزال خلف القضبان حين بدأنا اعتماد اصطلاح (التجربة)، وقد عنينا بها تجربتنا السجنية، وقد درج هذا الاصطلاح على ألسنتنا جميعاً؛ أعني نحن الصبايا، ذات الصبايا اللواتي غدون كهلات، وبعض أولادهن في الجامعات. وأعتقد لو تأخر نشر تجربتي الكتابية هذه فيمكن أن يصبحن جدّات. أسميناها تجربة وصرنا نحن بنات التجربة، وحينها أكملت ميساء الدائرة الأسرية فقالت: "إن التجربة أمنا والسجن أبونا ولذا لم نعد يتيمات". حين رددت هذه الكلمة غزتني موجة سخرية ذاتية مريرة. يا لها من تجربة!. استعرضت تجارب الحب والحرب والإبداع وآلياتها وفلسفتها وعلومها وضحاياها وإخفاقاتها ونجاحاتها. نوبل والديناميت، كوخ والسل، القنبلة النووية الأولى والطيار الأول الذي ألقاها فوق مدينة آهلة بالسكان و... و...

أنهيتُ أنا الآن كل تجاربي وصرتُ (أحسبها بالقطارة). هل يحسبها آخرون؟ لهف نفسي إن لم يحسبوها، ولهف روحي من حسبوها. وحتى لا أغرق ثانيةً في تفاصيل جزئية أعود على التجربة التي كنا نحنُ أحد قطبيها الأشد ضعفاً. لقد جربنا وخلفنا كل النوايا الحسنة ذات العلاقة بالبشر، وقد جربنا ذلك من دون رصاصة واحدة أو سكين مطبخ، وهذا

كان شأن حركات وأحزاب أخرى، وهذا كان شأن ربيع دمشق وإعلان دمشق وإعلان دمشق – بيروت، وجمعيات حقوق الإنسان، والمدونين والمدونات على الانترنت، فهل كانت تجربة الطرف الآخر متناسبة مع هذا الفعل؟.

أبحث عن تسمية فأفشل. أميل لاستعمال اصطلاح القوة المفرطة التي اتسمت بها كل ردود أفعال النظام تجاه الآخر، والتي أرخت بظلالها على البلاد والعباد، وأرست علاقة السيد بالعبد والراعي بالقطيع، وقادت المجتمع إلى حالة من الموات الاجتماعي والسياسي والقصور الأخلاقي والنفور من البعض والذات والخضوع اللامحدود واللامشروط للسلطة والنفوذ والقوة القاهرة والقمع العاري، وإلا ماذا تعني ظاهرة الاعتقال الكيفي والتعذيب الشديد لدرجة فقدان الحياة، وعدم المحاكمة أو المحاكمة الصورية، وعدم معرفة مكان الاعتقال؛ وماذا تعني ولادة الأطفال في السجون والمعتقلات؟ وماذا يعني التكرم بإخراج المعتقلين لمكرمة؟ وماذا يعني الحساب على النوايا وما بداخل الدماغ وعلى النكتة واللفظة والسقطة والغلطة؟.

أختم. زوجي المتعاطف والمتفهم -وبعد كل هذه الأعوام- يقلق عند محادثاتي الهاتفية البريئة مع رفيقات رحلتي السجنية. ابنتي تثيرُ لغطاً إشكالياً مواجهاً لرغبتي بالسفر إلى العاصمة لإحياء ذكرى الإفراج. يا إلهي! حين احتكمت لشقيقتي ناشدتني إلغاء السفر. أقسمت لها أني لا أمارس أي عمل سياسي منظم أو غير منظم، ولا أنوي التعاطي مع أي قناة في هذا الصدد، فأقسمت أنها متأكدة من ذلك، ولكن إلى أن يتأكد أولي الأمر من ذلك يكون (اللي ضرب ضرب، واللي هرب هرب) وأضافت أن حياتي لم تعد تحتمل اقتطاع سنوات جديدة من عمري الباقي، ودعّمت وجهة نظرها بأمثالٍ طالما سخرتُ وإيّاها منها (ابعد عن الشر وغنيلو..)، (لا تنام بين القبور بتشوف منامات وحشة)، (باب اللي

بيجيك منو الريح سدو واستريح). يبدو أنها محقة. يا إلهي هل أنا خارج السجن فعلاً؟ أيكون وطني على سعته الجبلية والبحرية والسهلية والصحراوية سجني؟. أتساءل... ماذا جرى لدنيانا الوطنية؟. في أيامي كانت أمي تعرقل انطلاقي نحو مشاركة ما بالشأن العام، وكنت أتخطاها. الآن ابنتي، (بنت بطني) تعرقل مشاركتي الوجدانية البسيطة ذات الطابع السياسي القديم! هل هذا يبشر بالخير؟ كيف يمكن استيلاد الجديد بواسطة جيلٍ مذعور ومقهور حتى الجذور هلعاً على ذاته وذويه؟ هل ألومها؟ فكرتُ أن ألومها وألوم أبناء وبنات جيلها، ولكني تفهّمتها وتفهّمتهم؛ فكلفة الاهتمام بالعام غدت باهظةً، ولا تقاس بفقدان الخيرات فقط، وإنما بسنوات الحياة، وربما كل الحياة. يا إلهي! كيف لحياةٍ يسعى أبناؤها في ظل (الحيط ويا رب السترة) أن يبني أوطاناً ويغير دنيا؟.

***

حب الشآم يابنتي, دونه موت زؤام...حذاري ياعمري!

أنا أعمل وزوجي يعمل في عملين متوازيين ويتابع دراسته العليا. لدينا أطفالنا الثلاثة. عدلت عن توجيههم للمطالعة والثقافة والفهم والاهتمام بالشأن العام، وهم أعضاء في (الطلائع وشبيبة الثورة). الصبيان فطحلان في دوريات كرة القدم وبطولات العالم الكروية ومشاهير اللاعبين. البنت! يا عيني على البنات! رجاءً لا تقربن من السياسة. فساتين، أغاني، جينزات، موبايلات. أحياناً هؤلاء الأولاد يفاجئوني بتعرفهم إلى أولادٍ آخرين، حين أسأل عن أهاليهم وذويهم أكتشف أنهم ينتمون لعائلاتٍ كانت تهتم بالشأن الوطني العام (زي حالاتنا)؛ فأستغرب وأتساءل: هل هي (الجينات)؟. ابنتي تتقدم بسرعة ولهفة في مجال العزف على الأورغ. مؤخراً أقلقتني حين عزفت أغنية (سائليني يا شآم). يا إلهي! هل يعيد التاريخ ذاته؟ هذه الأغنية بالذات دعتني لحب وطني، وقادتني إلى طريقٍ أوصلتني إلى سجني وضياع خمسة أعوامٍ من عمري. انتبهي يا ابنتي، فحبُ (الشآم) قد يوصلك إلى ما لا أتمناه لكِ، فحذاري... حذاري يا عمري... (حذاري يا عمري) هي الكلمات التي اخترت لتكون خاتمة المطاف قبل نصوصٍ قصيرة رصدت لقطاتٍ حياتية سجنية رأيتُ ضرورة نقلها إلى الورق حتى لا تبقى حبيسة

صدري.

كنت بصدد أن أدفع بهذه الصفحات على النشر في ظل أحاسيسٍ بانعدام أي آفاقٍ مستقبلية تنبئ بأدنى درجات التغير والتفاؤل والأفضل، لكن لا... لا، لا... لا بد أن تريني الحياة وجهاً أفضل، ولا بد لأمل سعد الله ونوس أن يكون حقيقياً وليس سراباً. والإشارة جاءت من بعيد... من بعيد... من تونس الخضراء البعيدة، ومن الشرارة التي أشعلت جسد الشاب (البوعزيزي) لتكون الإشارة، فاندلعت انتفاضة تونس الشبابية الجماهيرية الشعبية. يا إلهي! كيف لجيلٍ طالما نعيناه أو نفيناه أن يصنع ثورة فريدة تصلح نموذجاً يحتذى. انتصرت ثورة تونس ووضعت أقدام الناس على طريقٍ صحيحة؛ وبدا الدرس التونسي بليغاً، مختلفاً، مقنعاً وناجزاً حتى الحسد. سقطت ثمانون شهيداً ليس بينهم شرطي أو عسكري، فقد أعلن البشر هناك أن هدفهم ليس الانتقام أو الثأر أو التدمير، وإنما التغيير؛ وفعلوها... أزاحت الثورة الطاغية، وميّزن بينه وبين أتباعه ومحازبيه. لم تقتل ولم تفتك ولم تسحل ولم تستبح، بل وعدت أسوأ (الأعوام) بمحاكماتٍ عادلة لاسترجاع الأموال المنهوبة وإحقاق العدالة ورد المظالم لأهلها ومعاقبة القتلة والمجرمين. لم يقف أحد تقريباً مع الطاغية، حتى أوروبا وحكوماتها وشعوبها نبذته، وجمّدت أمواله المسروقة، وطال بحث طائرته عن ملجأ يستقبله وانتهت قصة ديكتاتور حكم قرابة ربع قرنٍ بالحديد والسجون والمخابرات والنار وأسقطته جموع الناس بصدورٍ عارية وأيدٍ عزلاء من أبسط السلاح.

عقب إشعال (البوعزيزي) الشهيد جسدهُ -احتجاجاً- سار على خطاه أحد عشر شاباً في مصر والجزائر، وعلى الشارع المصري واندلعت انتفاضة الكنانة بملايينها الثمانين. وفي 2011/2/1 نزل 8 مليون مواطن على الساحات والشوارع تطالب برحيل طاغية آخر حكم ثلاثين

عاماً وبلغ من العمر 83 عاماً. لقد علّت إحدى المتظاهرات: "إنه بحاجة لمن يعتني به، فكيف له أن يعتني بـ 80 مليون مصري؟ "

هزّت الأحداث كياني وخلخلت موازيني، وحاولتُ فهمَ ما جرى وفشلتُ في تفسير الولادة المفاجئة لهذه الثورات في ظل تعذر رؤية (سنوات الحمل الطويلة)، وقدرتُ أن مفاهيم القرن الواحد والعشرين الإنسانية تسربت بهدوء إلى الجيل الجديد بجرعاتٍ لم يتوقع أحد فعاليتها عبر أدوات العصر من (الفضائيات والانترنيت والاتصالات والمعلومات) على الرغم من إعاقات السلطات والأجهزة القمعية، فتكرّسَ :(الرأي والرأي الآخر، التعددية السياسية والاجتماعية، حقوق الإنسان، صناديق الاقتراع، تداول السلطة، المواطنة... إلخ). يا إلهي! إن الثنائيات التي دأبت الأنظمة على دسها في أدمغتنا وقوداً طويلاً انهارت في بضعة أيام. سقطت مقولة حتمية اختيار أحد (الأمرين المرّين): الخارج الغاصب أو الداخل الاستبدادي، وتلتها سقوط مقولة حتمية الاختيار بين استبداد السلطة والأصولية الإسلامية. وبعدها مقولة: (نحنُ أو الفوضى). يبدو أن ما قاله الشاعر الألماني منذ أكثر من قرن كان صحيحاً: "إن النظرية يا صديقي رمادية أما شجرة الحياة فدائماً خضراء". بدا مستحيلاً تصديق أن قتامة السنوات العقيمة التي أغلقت منافذ الأمل ينبعث منها كل الأمل فجرٌ حقيقيٌ جديد. شباب تونس ينظمون المرور ويحمون المنشآت ويحرسون بيوتهم ويجمعون القمامة ويديرون الحوار؛ فتونس بلادهم وليست بلاد النظام الذي جثم على الصدور طيلة ربع قرن. وها هو (راشد الغنوشي) الشخصية الإسلامية البارزة المنفية يتكلم عن مستقبل تونس كما يتكلم (حمة الهمامي) الشيوعي البارز الخارج من السجن للتو كما (المنصف المرزوقي) المنفي المدافع العالمي عن حقوق الإنسان. لقد انتصرت أو في طريقها للنصر مقولات الحرية والعدالة والمواطنة... إن البشر اليوم بدؤوا بإزالة أسوأ ما أنشأته ورعته الأنظمة الشمولية من مواصفاتٍ دونية أسست للضعف واليأس

والخوف... بكلماتٍ متواضعة ومختصرة: إنهم يرفضون أن يكونوا إما زواحف أو أرانب، فإن الله خلقهم بشراً وليس لأيٍ كان حقٌ في أن يحولهم إلى غير ذلك.

بدأت في تونس، ولحقت بها مصر، وبدأت الأحداث الثورية تتوالى في ليبيا واليمن والمغرب والجزائر والأردن... و... و... وتتالت المفاجآت التي تستغبي كل التوقعات. وبعد... ماذا بعد؟ ماذا عن داخلنا القطري الوطني؟ أما من مخرجٍ يجعل التغيير يأتي سلمياً هادئاً على يد الجميع من دون استثناء؟ أما آن الأوان للخروج التدريجي من حالة الاستبداد والشخصنة إلى دولة القانون؟ ألم نخرج من حالات الاحتقان والتوتر إلى التنفيس والراحة؟ هل ننجز هذا العمل؟ هل ينجح الوطن وأبناؤه في هذا العصر الجميل؟ هل ينجح جيل الانترنت والموبايل فيما أخفقنا؟

وهل ترينا الحياة وجهاً أفضل؟. في 15 آذار 2011 حملت صفحات الفيسبوك أول إشارة تدعو للتغيير في سورية، فهل انبلج الأمل الذي مات دونه سعد الله ونوس وكثيرون قبله وكثيرون بعده؟ أتمنى أن أراه، فهل أراه؟

انتهى

***

"شاهد عيان " من داخل المكان

لا نعرفُهم بأسمائهم الحقيقية التي نجهلها، إنما بألقابٍ صغناها سويةً عبر تفاهماتٍ واسعةٍ حتى استقرَّتْ، فلكلٍ من جلاَّدينا ومحققينا وسجَّانينا اسمه الخاص بنا وحدنا.

في البداية سميناهُ (الأشرس) لأنه كان الأفظع ضرباً، يُتقنُ كوماً من أنواع التعذيب، وينتشي بعمله الفريد حتى الثمالة، ومثالٌ بسيط أوردُه يُوضح ذلك، فهو من أبدع ضرب الكَف بالقدم بديلاً لليد، إذ اعتبر الكف باليد ضرباً من المداعبة لا يُمنح إلا لل(مدعوم). ويُؤهله لهذا الأمر فرطُ طول ساقيه. رؤساؤه مقتنعون بإمكاناته على جعلِ المستحيل ممكناً. قال أحد الضبَّاط: إنه قادرٌ على جعل الأخرس ناطقاً والناطق أخرساً، ولكنه قد يتحول إلى ثورٍ هائج من دون ضوابط، فيتجاوز كلَّ الحدودِ إلى درجةِ إحداث عطبٍ جسدي لا يرغب به الضباط أو المحققون.

معرفتي بشراستِه تعود لأيام اعتقالي الأولى، عقبَ نقلنا من فرع الأمن العسكري في الشمال إلى فرع فلسطين في دمشق برفقة ميادة المعيدة الجامعية المريضة المزمنة بانحلال الدم، والرحلة الليلية الطويلة مع مجموعة معتقلين ينتمون إلى تيارات سياسية أو فكرية أو جهادية أو فدائية مختلفة، حولَّتنا إلى حطامٍ ينشد الراحة عبر النوم وقوفاً، إلا أن رحلة السفر بدَتْ تافهةً مقارنةً بمرحلةِ تأمين أماكن للجميع في ظلِ

اكتظاظٍ لا يخطر ببال، والساعات مرَتْ حافلةً بنقاشات ومشادَّات بين المُسَلَّمين والمستَلِمين، فالأوَّلون يبغون العودة قبل بدقيقة والآخرون يأملون بإقناعهم باستعادة "البضاعة" لعدم توفر المكان، وللبرهان فتحوا -وحراسنا أمام أعيننا- مهاجعَ وزنازين فأصبنا بالدهشة والهلع، وأقسم سجانٌ مُرهقٌ أمام الضابط المناوب أن (دحش) شخص إضافي بالباب سيقذف عبر حديد النافذة بشخص ما من الداخل لا محالة. تبادلتُ وميادة نظرات تساؤلية مصيرية، وكيف ينام هؤلاء وكيف سوف ننام؟ وقد أثمرتْ الجهود الحثيثة والتعليمات المدبَّرة عن تأمينِ مكانٍ مؤقتٍ في المزدوجة رقم (3) الممتلئة حتى حوافها أيضاً بانتماءات جغرافية مختلفة من بلدان الجوار (لبنان، فلسطين، الأردن، العراق...) وسياسياً (كتائب، قوات، فتح عرفات، بعث عراق... إلخ)، وكان علينا أن نجد مكاناً بين الأجساد المتراصَّة. الحقيقة أنني سأؤكد صعوبةَ التموضع بالمكان لأني سأروي أمراً آخر قد يُكذبُني وأنا صادقة في الحالتين.

أنا لستُ متأكدةً أني نمتُ وقوفاً مستندةً لأجسادٍ مجاورة منها بالتأكيد رفيقتي ميادة التي تعرَفتُ إليها في اليوم الثاني لترحيلي والتي أحاطتني برعاية أمومية على الرغم من ضآلة فارق عمرينا الذي لا يتجاوز تسع سنوات، وعلى الرغم من مرضها الذي أرعبني.

بعد ظهيرة اليوم الثاني، دخل مهجعنا من أصبح فيما بعد اسمه (الأشرس)، وانسلَّ بخشونةٍ بين أجسادنا حتى وصل زاوية شغلتها أنثى ما، فقبض على شعرها الطويل وسحبها عبرنا بصعوبة إلى وسط الغرفة، وبدأ بـ(تعفيسها) بكل ما في الكلمة من معنى، بيديه وقدميه، كوعيه وركبتيه ورأسه، حتى طال جميعَ أجزاء جسدها؛ وكي لا تطالنا أطرافه النشطة المتحركة في كل الاتجاهات باللكمات والركلات والصفعات، التصقنا بالجدران آملين انزياحها للخلف؛ أما المرأة المنكوبة فقد ظننا

أنها غدتْ كومةَ أشلاء لا يربط بعضها ببعض إلا جلد أزرق بلون الكحل وثياب كانت ثمينة يوماً ما قبل أن تصبح رثة، وكما دخل (الأشرس) خرج فجأةً. كدتُ أجزم لدقائقٍ مرَّتْ أن قسماً من نزيلات المزدوجة رقم (3) قد تم نقله أثناء غيابي النائم، إلا أن انسحاب الرجل وإغلاق الباب أوضح أن الزحام لم يتغير وأن أحداً لم يرحل إلى أي مكان. اعترتني دهشةٌ وحيرة، فأنا عاجزة عن حل لغز تأمين الفراغ وسط الغرفة الذي مكَّن الجلاد من التنكيل بالمرأة على هذا الشكل المريـع، تعاونا وسحبنا جسدها المنهك إلى زاويتها ومسحنا دمها ولعابها ولم نستطع فعل شيء تجاه بللِ وسطها سوى تبادل نظراتٍ متفهمة مشحونة بعجز إنساني مقهور حتى النخاع، وجاءنا بكاؤها عويل ثكلى قبل أن تبدأ بهرف عبارات مرتجفة عن بيروت وابنها ولعنات العباد والبلاد والأوغاد، وكمن ترثي فقيداً، ناحت: "آه لو تعرف شوعم يساوو مع ماما يا عيون ماما". بعد صمتٍ جاءت كلماتها أوضح، "أعطوني سيكارة وخدو عمري، بس سلمو على ابني". ذكرت اسم ابنها ولكني لم أعد أذكره الآن، أقنعناها بالنوم بعد أن أمَّنا لها مكاناً لجلوسها لا أكثر، بعد ثلاث ساعات طلبها لغرفته، بعد ساعةٍ عادت، قالتْ: إنه أعطاها سيجارة، وبدتْ بوضع جسدي أفضل، قالتْ إنها ميتة من التعب، ولم نتمكن من تأمين نومها من جديد، والتصاق الأجساد أتاح تجاوز الآذان والعيون والألسن، واندفعتْ الهمسات واللفتات والشروحات التي صدمتني بمحاولات اتهامي أني ورفيقتي سببُ ما حدث لهذه المخلوقة التعسة، حيث أنها غدتْ هشةً ووصلت إلى حدود الاستباحة الدائمة أو عند الطلب، فقد انتقلت من (فأر تجارب) إلى (مثالٍ محلول) أمام القادمات الجديدات اللواتي ينبغي كسرهن، (أخذ وجوههن) وفقَ الاصطلاحات المتداولة في هذه الأمكنة.

كان اسم (فأر التجارب) فيفيان، وهي لبنانية في الخامسة والعشرين، أم لطفل في السادسة، وزوجها مقتول في معارك الميلشيات، ممشوقة القوام، مديدته، بشعر طويل يصل حتى وركيها، ووجه متوسط الملاحة

بعينين واسعتين لافتتين، تهمتها (قوات لبنانية). تتابعت بعد فيفيان إنجازات الأشرس الحيوانية حتى فاز بلقبه بجدارةٍ عالية، و(فادية) التقطت معلومةً ثمينة، ف (الأشرس) لا يُنجب، وانتشرتْ في الأجواء المغلقة شماتات تعذَّر إحصاؤها، وعَلتْ البسمات شفاه الجميع بلا استثناء قبل أن تجذبنا إليها علوم السيكولوجيا لتستحضر فرويد وبافلوف وكبار الأطباء النفسيين، وحلَّلنا قضيته، ولم نحُلْ لغزَه، والسؤال بقي معلقاً: هل عدم قدرته على الإنجاب جعلته الأشرس؟ أم أن شراسته انعكست سلباً على فحولته فأعقم؟. صغنا له اسماً جديداً، العقيم، ولكنه لم ينل إجماعاً، بحجة عدم السخرية من قَدَرِ الآخر الإنساني، مذ ذاك بقي لكلٍ منهم اسمه الخاص الواحد في سجلاتنا، وانفرد وحده بحيازةِ ثلاثة أسماءٍ أو ألقاب، فمجموعة منا دأبتْ على تسميته الأشرس، ومجموعة ثانية سمَّته العقيم، أما الثالثة فقد اعتادت تسميته أشرس عقيم.

***

حكاية ليست جديدة

مروة، اسمها مروة، اسمعي: إذا تحدثتْ إليكِ مروة فاستمعي إليها وأصغي، لا تكسري بخاطرها، لديها الحكاية ذاتها، تتكرر ولا تتغي، حاولنا محاورتها في أمور مختلفة، ولكنها تعود إلى ذات الحكاية، تتناشط، تنفعل، تروي الحكاية بكل كلماتها وحتى حروفها وتوقفاتها بالحماس ذاته والدموع والشهقات والتعجب وخبط اليد على الفخذ أو الوجنتين؛ تروي حكايتها لكل قادمة جديدة؛ لكل السجينات من كل الفئات والأعمار والنوعيات، روتها للإسلاميات واليساريات والقضائيات بكل جنحهن وجرائمهن. لم تتجاوز مروة حتى الآن الخامسة والعشرين وسجنها دخل عامه السابع، هي أميل إلى البياض، مربوعة القامة، ولها شعر طويل أسود فاحم، وهي موقوفة بتهمة الأصولية.

تبدأ مداخلتها بالسؤال وتجيب عنه كمقدمة، ثم تبدأ حكايتها بحماسٍ لافت، تقول: أهلاً وسهلاً، يعطيك العافية... من الفرع؟ كنا بالفرع. تتابع أنا أيضاً كنت بالفرع. إن شاء الله ما عذبوكي كتير؟ أنا عذبوني كتير بس غيري أكتر. بس أنا إلي قصة. ما بتعرفيها؟ آه. تتأوه وتتنهد وتتابع: "الكل بيعرفها، تصوري". المحقق قال: "كافي اليوم انقلعي" نادى السجان: "رَجّعها من محل ما جبتها". تتابع: الحارس أخرجني من غرفة التحقيق وساقني باتجاه الزنزانة؛ في الكريدور الطويل وضع يده على كتفي، ظننتُ أنه سيضربني فانكمشتُ، أنزل يده إلى ظهري لتستقرَّ يده

بقوة على كفلي، أسُارع الخطى لأسبقه، ثم أركض مبتعدةً عنه. يصرخ: "توقفي وين هربانة يلا ولك عالزنزانة". بعد دخولي الزنزانة ظننتُ أن الأمور انتهت لكنه ينقضَّ عليّ، أتراجع إلى الحائط فيقفز عليّ، وبثوانٍ يقطّع ثيابي الخارجية والداخلية الكثيرة لأصبح عارية كما أنجبتْني أمّي، وعندما يئست من التقاط ثيابي المنقذفة كالشظايا اندسست بالزاوية فاندسَّ بها معي، عندها لم أعرف ماذا أفعل فأنا عارية وضعيفة وهو يمتلك القوة ليفعل بي ما يشاء.

في تلك اللحظات تأكَّدتُ من أنه لن يكون بوسعي أن أقدم عذريتي لعريسي، وأنني سأُعاد لأهلي (معيوبة)، كما حدث منذ سنوات لقريبة أمي في مدينة أخرى، حاولتُ تغطية جسدي بشعري ويديّ فجلستُ القرفصاء، ودسستُ رأسي بين ركبتيّ، وعندما بدأ بخلع ثيابه فقدت كل قوتي وانهرتُ وبدأتُ أفقد وعيي، وحتى الآن لا أدري إن كان صوتي أسعفني أم خانني، كل ما أذكره في تلك اللحظة أنّ الزنزانة غصت بالسجَّانين والمحققين، وبينهم أبو سليمان الذي رمى عليّ (فيلدهُ) العسكري وأتبعه بكنزته الصوفية، أخرجوا السجان المعتدي الذي راح يصرخ أنه حاول التمسح بي فقط، وأنه لم ينوِ الاعتداء عليّ لأنه يعرف أنني عذراء، لكني بهيمة ملأتُ الدنيا صراخاً وزعيقاً؛ أما المساعد أبو سليمان فقد أعطاني ظهره، وبعد أن أشار على الجميع بالخروج أمرني بارتداء ملابسي. بتفصيل شديد تصف مروة حركتها داخل زنزانتها لتجميع أشلاء ثيابها والأزرار المقطَّعة والعراوي المشرومة، وكيف فوجئ أبو سليمان بمنظرها الذي بدا مكشوفاً أكثر منه مستوراً، فترك (فيلدهُ) وكنزته وخرج وأحكم رتاج الباب. في اليوم التالي جلب لها كنزة وقميصاً وبنطالاً وأخبرها أن رشيد سيلقى عقابه ولن تراه هنا مجدداً. وحين تصل مروة إلى ختام حكايتها تكون قد ذرفت دمعاً مدراراً، تنتقل بعدها إلى نشيج مكلوم قبل أن يتحول إلى ما يشبه العويل، بعد ذلك تتماسك لتبدي عجبها وجهلها بكيفية تمكنه من خلع ثيابها بهذه السرعة وهذه

البساطة، كما تستغرب أنها لم تسمع أصواتها المستغيثة فيما أفادها الآخرون أن أصواتها ونحيبها و(ولاويلها) قد تكون وصلت إلى الطرف الآخر من المدينة.

***

قصص قصيرة جداً (ققفقجة)[14]

1- أين مها؟

مها وكلية الهندسة عاشقان من زمان، وكانت نهاية الربيع موعدَ فراق مها مع المكان، لكنَّ ما حدث أنها بضربةٍ واحدة غدتْ خارج الزمان والمكان.

خبطٌ على الباب، ورجالٌ أغراب. استفسرتْ الأم برعبٍ: "ماذا تريدون من مها؟" إنهم ينفذون أوامرَ، فمها مطلوبة لجهةٍ أمنيةٍ، لن يستغرق الأمر طويلاً، فنجان قهوة، سؤالٌ وجواب، خمس دقائق وتعود، هكذا أجابوا... لدى خروجها ابتسمتْ لأُمها، وعدتْ أن لا تتأخر، فقد أوقدت الحمام، وستعود سريعاً للاستحمام، أوصتْها إخراجَ بدلات داخلية نظيفة واستبدال بياضات السرير، والأم فعلت، البدلات الداخلية الناعمة توسَّدت بياضات السرير النظيفة، وأم مها مررت عدة "خمسات دقائق"، ساعات، أيام، أسابيع، شهور وسنين، ولو استمرَّ اشتعال موقدِ الحمام لحين عودة مها لكانت مياهه الساخنة كافية لاستحمام سكان مدينة بأكملها.

[14] القفقجة نحت لغويٌّ محدث abbreviation تشكل من جمع الحروف الأولى من الكلمات (قصص قصيرة جداً) في كلمة.

2- مهـذبة

لأنها نشأت في أجواءٍ عائليةٍ مهذبةٍ خلوقةٍ، ولأنها تتساهل بأمورٍ حياتية عادية، في حين ترى في القيم الإنسانية موقفاً لا يحتمل مهادنةً، فقد فاجأتها شتائم الضابط الذي اعتقلها، ولما عجزتْ عن احتمال سيل الألفاظ القذرة رفعت يديّها المكبلتين لتسدد ضربةً تغلق الفمَ البذيءَ، ولأنها كانتْ معصوبةَ العينين فقد تفاداها بسهولة، ولأنه حريصٌ على استبدال الجمال بالقباحة واللطف بالوقاحة والتهذيب بالبذاءة فقد أمر بربط يديَّ المتوحشة خلفَ ظهرها، وساقها إلى حفلة تعذيبٍ قبل أن تُسأل عن اسمها وكنيتها وعملها وانتمائها ونشاطها

***

3- حـذار، فلكل حلم ٍحساب

النائمات في المهجع المكتظّ استيقظن بسبب صرخة إحداهن. أقرب رفيقاتها النائمة بجانبها استفسرت مهدِئةً، والفتاة المذعورة استعادتْ وعيَها، ومسحتْ وجهها المتعب واغتصبتْ ضحكةً وسخرتْ من ذاتِها بصوت عالٍ، "حمدت الله أن لا أحد يحاسب أحداً أو يعذبه بسبب أحلامه" صاحت خفيفة الظل ميساء من زاوية المهجع الأخرى وهي تسحب بطانيتها العسكرية إلى وجهها وتستدعي نوماً طار من عينيها: "إنهم يفعلون ذلك يا عزيزتي، صدقيني، إنهم يفعلون، نامي الآن واستعدي غداً".

***

4- ذبحٌ على ذبح..

علِمَ الأخ المحافظ المتزمِّت باختفاء شقيقته الصغرى، فبحث عنها ثلاثة عشر يوماً في عاصمتي الجنوب والشمال حتى تأكد بطرق ملتوية من وجودها في عالم سفلي يعج بالغرباء والغربان، زمجرَ حانقاً "عندما تخرج سأذبحها". مرَّت سنون صعبة على الجميع، صعبة جداً، والصبية الجامعية لم تعدْ، وتخرَّجت معظم زميلاتها وبعضهن عمل وتزوج وأنجب، وافتقدها الجميع في جلسةٍ عائلية موسَّعة إثر وفاة الوالد بعد مرض طويل، قال الأخ ذاته بخجل شديد: "لَئِنْ خرجت سالمة من معتقلها لأذبحنّ لها عجلاً أوزعه على الفقراء والمساكين."

***

5- رومانسية طريقٍ إلى جوف جبّ

واصلتْ السيارةُ الليليةُ طيَ المسافات باتجاهِ العاصمة بحملٍ بشريٍ قسريٍ لا بدَّ من تسليمِه قبلَ بزوغ الفجر، تململَ في موقعه على الأرضيةِ وحرَّك ذراعين أصابهما خَدرُ قيدٍ أُحكمَ تضييقُ رتاجه، أصدر صوتاً صاغه ما بين همسٍ ونداء أَمِل أن يبتلعَه ضجيجُ المحركِ من دون أن يعيقَ وصوله إلى الجزء الثاني من الحمل البشري المكوَّم في زاويةٍ غير بعيدةٍ، أدارتْ رأسَها، وجَّهتْ أذنها اليسرى نحو مصدر الصوت، أدركَ أنَّ هدفه الآن في متناوله، فهمسَ من جديد على نحو آخر، سمعه قلبُها قبل أذنها اليسرى، قال: "أحبك"، همستْ مبحوحةً بحرصٍ وحزنٍ وارتباكٍ: "وأنا كمان"، بضع مناورات مكتومة، حثيثة، مهمومة ومتلاحقة أدَّياها معاً بتوافقٍ عفويٍ مكّنَتْ أبصارهما من العناق، وهذا -بالتأكيد- تسبَّبَ بإحداثِ ضجيج فاقَ النطقَ وصوتَ المحركِ

واستدعى يقظة رجلِ الأمن الساهر أبداً فزمجرَ: "ولك حيوان. إنت وهيٍّ اخرسوا أحسن ما عفِّسكن بصّبَّاطي."

***

6- وطنُ صـامد

محض صدفةٍ قادتها إلى المعتقل ومنه إلى السجن قبل أن تبلغ السادسة عشرةَ، عُذِّبت حتى اعترفت بكل ما طلِبَ منها، دُوِّنت اعترافاتها فذيَّلتها بتوقيعها. في أحد الصباحات استُدعيت لفرع الأمن صاحب العلاقة، وبُلِّغت قرار الإفراج عنها، علَّلوا الأمر باكتشافهم أنها كانت ضحية خطأ، مجرد خطأ، وأن عليها أن تزعل أو تحقد لأن الاحتفاظ بها كان في مصلحة الوطن الصامد. خرجت الفتاة التي لم تعد صغيرة بعد أن تخطَّت العشرين، وقد أخطأ كلُ من تنطّح لتقدير عمرها الذي زوّرته شُعيرات بيضاء في رأسها وتجاعيد مبكرة في وجهها وجراحات عصيّة الاندمال في روحها.

***

7- شغاف قلب.. وعماد أسرة

عيناها زرقاوان زرقة سماءٍ ربيعية، وشعرها الطويل ذهبي كسنابل قمحٍ في بدايةٍ صيفية، امرأة جميلة بِسِماتِ أميرة. تقرب منها كثيرون بعد اعتقال زوجها الذي طال؛ ما كانت تستبدل رجلها بآخر رغم رحيل سنين صبا لن تعود، ولم تتصور بالسر أو العلن أن تكرس حياتها إلا للعمل السياسي الثوري. طالتها موجة الاعتقال الثانية وأبعدتها عن فلذة كبدها. زارت أقبية الشمال وحلت ضيفةً في أقبية الجنوب قبل أن تنتهي

نزيلةَ سجنٍ نسائيٍ مدني برفقة سياسيات وقضائيات، لكنها خرجت من سجنها قبله وتجدد انتظارها سنيناً أخرى. زادُ بقائها أخبارٌ غير مؤكدة، رسائل مختزلة. ثم فيما بعد زيارات متباعدة. سلاحُ انتظارها إخلاصها. خيارُها وقرارُها ووفاؤها .

أُخليَ سبيله (فطاش حجره) وانفتل رأسُه وغردَ على أغصانٍ أخرى. تعاطى الأبواب الخلفية ومارس حياة السر والعلن الأسريّ. ليس بيده، ليس بيدها، أخبار شروده لا تتسقطُها، تسقط عليها. نسيج فلسفتها الحياتية متين الحبكة حتى الحسد، عشق واحد، القلب له واحد والمرأة عمود الأسرة وصمام أمانها.

***

8- بـــازار فـاشـل

كانت ذات حسب ونسب، جمال وأدب، ومالٍ ورغد، وحضور لافت يصعب تجاهله، فكان من المستحيل أن لا يلفت ذلك نظر الضابط الوسيم المشرف على التحقيق معها. نوديَ عليها فانقبض قلبها وتقلّصتْ أمعاؤها وأيقنت أنها جولةُ تعذيبٍ أخرى، فودَّعتْ رفيقاتها، وقد أخطأتْ التقدير بالمطلق، فقد أُدخلتْ إلى قاعةٍ أنيقة هادئة تنساب في جنباتها موسيقى عذبة، وحين تفحَّصَتْ الموقعَ افتقدتْ الجلادين وأدوات التعذيب، جلس الضابط وحيداً خلف المكتب وقد علت وجهه ابتسامة طِيبةً، رحَّب بها، وأبدى أسفه لما تعرضت له، وعزا الحيف الذي لحق بها لظروفٍ غير طبيعية يمرُّ بها الوطن المحاط بالمؤامرات الداخلية والخارجية والإقليمية، وطلب منها فتح صفحة جديدة.

اغتصبتْ ابتسامةً باهتةً وتساءلتْ بعينيها وطرف لسانها عن المطلوب

منها، وفوجئت بما لم يخطر على بالها. قال: إنها بنت ناس، وأنه أحبَّها ويريدها زوجةً. ترجم مرادَه وبسَّط الأمر كي تستوعبه وتدركه. عرض استبدال سنوات السجن الطويلة المتوقعة بالخروج الفوري وعقد القران. يكفي أن تنطق إيجاباً لِتُنزلَ عن كاهلها وروحها كل حمولاتها وهمومها وآلامها. باختصار: لتدع الأمر برمَّتِه له ولن تكونَ إلا راضية. حدقت طويلاً بعينيه المترقبتين، إلى درجة أن أي شخص اهتم بمراقبة المشهد يمكن أن يظنَ أنَّ خلفَ شرودِها الظاهر يكمنُ تفكيرٌ عقلاني بعرضٍ جدير بالاهتمام، ولكنه هو بالذات، الخبير بالنفوس والأجساد، والعصا والجزرة، بدا متأكداً أنها تفكر على نحوٍ مغاير تماماً، وقد أصاب تماماً؛ ففي هذه اللحظات مرَّرتْ أمامها شريطَ مدرستها وذويها وجامعتها وعملها واعتقالها وتعذيبها ووضعها الحالي المعلوم ومستقبلها المعلَّق، ولكنها توقفت عند مسالة احترام الآخر والانسجام مع الذات. أسبلتْ جفنيها، نهضت متثاقلةً من كرسيها قبل أن تنطق بـ"لا"، فتحت الباب وغادرت المكان وتبعها السجان. كانت تعرف الطريق جيداً إلى (جوف الجب) تماماً كما تعرف زنزاناته المنفردة.

***

9- رابع.. وسابع.. يا ناس

حين عانق الليلُ المدينة، وسكن الهدوء زواياها اخترقت خطواتنا شوارعها، ملأناها ثرثرةً وضحكاتٍ خافتة ولمساتٍ عفوية أو مقصودة. عند منعطفٍ، وعدٌ وقسم وكان على سفر، عند ذات المنعطف وعدٌ وقَسَمٌ آخر وكان من سفر... بعد غيابٍ أو سفرٍ يُغرقني بأخبار الوطن وأحلام الفقراء وأماني الشرفاء وشوقه إليّ. كلماته، تعابير وجهه، سكناته وحركاته تنحفر داخلي، أُعيدُ ترتيبها وصياغتها وتفسيرها وأجتَّرُها.

من حانوتٍ صغير يشتري سجائره ويهمس بسماعة هاتف قديمة، وعيونٌ غريبة تُحدِقُ بأنثى ليستْ أختاً وليستْ خطيبة. عندَ عمود الإنارة السابع، دوماً، يدٌ في جيب وأخرى مشغولةٌ بجرائد طازجة تحضن أوراقاً لا تحتمل الظهور، أُلقي التحيةَ وأردد نفس الكلمات: أنتَ أم العمود... من يسند من؟. يضحك الضحكة ذاتها، ويشرع من جديد برواية الحكايا ذاتها: وطنٌ وأطفال، محرومون، أبطال، أنذال، أماني، أحزان، أما الأفراح فقادمةٌ لا محالة. ابتسامته صغيرة تملأ محياً كبيراً، تحمل حناناً وافراً. يجيب: أني ابتسامةُ فرحِهِ الأبدي.

رائحة وجوده في تبغه وصوته ومسيره وفراقه، ويحي، هل ذِكرُ فُراقٍ يعني وقوعه؟. قدَّرتُ غياب العمود السابع عبثاً فالغائب كان الآخر، فـ"ليس في كل مرة تسلم الجرة"، ذهبَ ولم يعدْ، ألن يعود؟. غداً، بعد غد، بعد شهر، بعد عام، عامين، ثلاثة، سأنتظر، قد تُستبدل المواقع فيحضر هو ويرحل العمود السابع وقد نفتقده حينذاك سويةً، ومرةً أخرى انتصر الخطأ، فالعمود السابع احتفظ بمكانه وشموخه، والأنثى ذهبتْ أيضاً ولم تعدْ، لحقت به ولم تلقاه، سَمعتْ خوارَه وأنينه، قد تكون أخطأت، فخوار الآدميين أو أنينهم قد يتشابها في أبنيةٍ تحضن أوادِمَها بغير حنان ولا شمس ولا نوافذ ولا أنوار، تحضنني بلا حنان -أنا أيضاً- جدرانٌ عاليةٌ أعلى من قلاع الوطن التاريخية، بلا شموس ولا نوافذ ولا أنوار ولا أخبار. لهف روحي! أما من زلزال يطيح بجدران عالية؟ أما من ممرٍّ سريٍّ وهمي أسطوري إلى العمود السابع أو التاسع أو العشرين حيث يمكن أن تلتقي روحان حبيستان؟ يا ناس، يا بنات حواء وأبناء آدم إنه عامي الرابع...يا ناس، يا بنات حواء وأبناء آدم، إنه عامه السابع..

***

يا ماريّا

1- ماريا تخرج إلى الحرية

حين أعلمتْهُ أنها حاملٌ دارى زوجُها -رفيقُها- قلقَه بفرحةٍ مقهورة وضحكةٍ مبتورة. عندما افترقا وعدها بالحيطةِ والحذر، وأوصاها بنفسها وحملِها. اعتُقِلت مساء ذلك اليوم بالذات، استقبلتها تحقيقات وسياط وكابلات لكنها صمتت، قاومت وصمدت، همسَ جلادُها لآخر أنها أشرسُ من فهدة. أُودعتْ زنزانةً نتنةً. بدتْ كتلةً لحميةً تنزفُ دماً وقيحاً وقهراً، تكوَّمتْ، غابتْ عن الوعي.

استعادت أنفاسها ونفسها، لملمتْ حيثياتها، غالبتْ آلامَ مغصٍ حادة منعتْ عنها نوماً أو راحة، تحسَّستْ أعضاءَها، مفاصلَها، جراحاتها وكدماتها، ركَّزت على وسطِها ولم تَحظَ بإيضاح على الرغم من معرفتها الطبية المهنية.

بعد أربعة أيام تأكَّدت استمرار حملها، في زمان ما خبطت امرأةٌ ولاَّدةٌ بطنَها بباطنِ كفِها وأكدتْ أنها حاملٌ بأنثى، وفسَّرتْ نبوءَتها: "لو أن جنينها ذكرٌ لخرج -عقبَ رفسةِ أبيه- طرحاً، فـ "شرش البنت كشرش سنديانة". ابتسمتْ بخبثٍ فقد كشفت جنس جنينها، وستصمد البنتُ كما أمها، سمتها سلفاً، وبعد ستة أيام تبيَّنتْ أحدَ رفاقِها في زنزانة

مجاورة، اقتنصت سانحةً وأوصلت صوتها، شاطرته سرَّها وهمَّها، وأوضحت أنها: أنكرت التواصل مع زوجها منذ عام ورجَّحتْ مغادرته البلاد وسألته مخرجاً. بعد يومين سرَّبَ وجهة نظره بصيغةٍ تنصح البوحَ بالحمل أملاً بالإفراج، وكان هذا آخر ما سمعتْ منه وعنه، أَخضعتْ رأيه لمراجعة عقلانية فلم ترَ فيما ارتأى حكمةً، فمؤشرات التفهمِ والرحمةِ في هذه الأمكنة تعطَّلت في حالة الصفر السالب. واحتمالُ إعادةِ فتحِ تحقيقٍ جهنميٍ جديدٍ أكثر من وارد، وهذا قد لا ينتهي إلا بنهايتها، وقد يعني تمكينهم من طرف خيط قد يجعل من جنينها يتيماً في بطنها، قلَّبت احتمالات وجوهٍ أخرى على أقفيتها ولم تحظَ بما يريحها، وجعلتْ هذا ديدبها وصولاً إلى بصيص أمل حتى يئست، بعدها أضاعتْ بوصلتها أياماً عدة حتى ارتمتْ منهكةً، حين استيقظت وجدت ضالتَّها بجانبها وسخرت من طوافها على حواف المستحيل، قرَّرتْ أن تصمت: "دع الأيام تفعل ما تشاء وطبْ نفساً إذا حُمَّ القضاء"، وحلَّتْ في سويداء روحها طمأنينة معقولة، بعد سبعة أشهر رأت ماريا النور في مكان أكثر نوراً بقليل، فنوَّرت حياة نزيلات سجن النساء على اختلافهن (سياسيات، يمينيات، يساريات، حياديات، قضائيات على اختلاف جنحهن وجرائمهن).

***

2- (سَوسَحتنا بلا قبطان ولا بحريّة)[15]

هل يمكن التصالح مع فكرة وجود شيء جميل في السجن. مهلاً، فالأمر ليس مجرَّداً أو بسيطاً، والجواب هو ركن ماريا، زاوية مليئة بصورٍ وألعاب وهدايا وألوان؛ متى. كيف. لماذا؟. الطبيبة الحامل في شهرِها الثاني

[15] إشارة إلى أغنية فيروز (يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية)

أُوقفتْ في المعتقل سبعة أشهر قبل أن تُحال على سجن نساءٍ مدني تُولد فيه ماريا، وبذا تَغدو ماريا أصغر نزيلةٍ عرفَها تاريخ السجون. لماريا عينا حورية وابتسامة موناليزا وغرغرة بلبل، وماريا أصبحت أغلى لعبة وأكمل سلوى لدى السياسيات (يمينيات، يساريات) ولدى القضائيات (قاتلات، عاهرات ومحتالات)، كل النزيلات رصدن ابتسامتها وإيماءاتها وردّات أفعالها، راقبنَ زحفَها ونقلات قدميها الأولى، كل الأمهات بَدَّلْنَ حفاضاتها، وكل الفتيات غسلنها،

قهقهتْ النساء عالياً فاسترعى ذلك انتباه الشرطة، فقد جعلت إحداهن -وهي تقبّل ساقيها العاريتين- بولها عطراً فرنسياً وبرازها عسلاً مصفى. وحين أصيبت بالـ(صمات) كلٌ أوصى ذويه فحمل الزائرون لماريا سبعة عشر أنبوب (ديفلامول)، معظم النساء أرضعنها خداعاً وأجهشت الأمهات بكاءً مراً؛ ماريا بدأت تتكلم وتسير وتتنقل بين المهاجع، وأمها اعتادت السؤال والبحث عنها، فالسجن غدا مع ماريا أقل وحشةً وقسوةً. مسألة ماريا بدأت بسيطةً، وتحولت إلى إشكالية معقدة، اقتربت ماريا من نهاية عامها الثاني، تصغي، تلتقط الكلمات، تعيدُ ما تسمع، تقلده بنطقٍ يأخذُ بمجامع القلوب، وفي السجن تسمع ما هبَّ ودبَّ من كلام يصدر عن أوساط نسائية مختلفة التخاطب والمفردات، وماريا تقلد وتعيد وتضحك، والبعض يضحك، وأخريات يرتبكْن، يغلّقن فمها، وماريا تأبى أن تسكت، وترفض أن تفهم، قرار الأم جاء حاسماً ومفاجئاً: "على ماريا أن ترحلَ خارج الأسوار". ليلة وداع لا تُنسى، دموع في المآقي، عناق لا ينتهي، نحيبُ ثكالى، في الصباح رحلت ماريا، عانقتْ الحرية.

صوتٌ مكسورٌ قذفنا بأحجية: "هل يعادل عالم الحرية على رحبهِ صدر أم سجنية؟".

الليلةُ الأولى من دون ماريا بدتْ كابوساً جماعياً ترك بصماته على

الجميع؛ أم ماريا احتضنتْ مخدةً بديلة بحجم وحيدتها، حاولتْ كتمَ نشيجها وألمها قبل أن ينفجر عويلاً صاخباً كاد يسبب للجميع إشكالاً صحياً، نفسياً أو أمنياً.

أم ماريا لم تتحمل فراق ابنتها، خمسة أيام مرت وهي عازفة عن الطعام، لا شيء سوى نحيب وبكاء وبعض جمل مبهمة حتى جاء الفرج بسيطاً وفاعلاً عندما أفلحوا في الحصول على إذن زيارة ماريا لأمها ولنا جميعاً، ألسنا كلنا أمهاتها؟. افرحنّ وتهيَّئْن لاستقبالها يا بنات.

***

سلحفاة.. وألغاز

طفلةٌ تكبر في بيت عمها ولا تصدِّق ما يُقال لها عن حب أبويها لها، لم تقنعْها طاقية الصوف المشغولة بشغاف القلب والتي تَطلَّب إيصالها من سجن النساء في العاصمة شهوراً، ولم تأبه -بعدها-لجزدان الخرز الطفولي المجبول برمال السجن الصحراوي، منطقُ عنادها بسيط كسوط ينغرز في لحم بشري، لو أحباها لما تركاها، لبقيا معها أو اصطحباها .

طفلة تكبر وتحاول أن تفهم أو تتفهَّم. سبع سنوات من عمر أمها وعمرها، ثلاثة عشر من عمر أبيها وعمرها، حسنٌ جداً فها نحن هنا معك من جديد، سنعوِّض ما فات، فالعمر ما زال أمامنا مديداً وجديداً، أنجبا لها أختاً جميلةً، "فلنحبّها جميعاً"، "سنكون دوماً معاً"، "لن نفترق أبداً"، كيف لهما أن لا يبقيا مع طفلتهما الجديدة الصغيرة.

التحقت حنان بجامعة في مدينة بعيدة، وفي جلسة مسائية في المدينة الجامعية -وبعد مكالمة هاتفية مع أبويها- أجرت مقاربة حسابية للزمن الذي قضته معهما معاً، فتبينت أربعَ سنواتٍ وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ثم اكتشفت أنها لم تحسب أيام الملاحقة والتخفي، وكما يحدث عادةً، انتبهت أنها تعاملت مع مقاربتها هذه عدة مرات، وكانت دوماً تنسى أيام الملاحقة والتخفي السرية، ووصلت بالتالي إلى الإحساس ذاته

بالعجز، فمع من تتحاسب؟ ومن ستحاسب؟. لطالما فشلت، من واقع اختصاصها الحقوقي في صياغة هذه القضية وتحديد جهتي الادعاء والمدعى عليه؛ تفشل في الوصول إلى وضوح معقول، مع ذلك لم تتمكن من التصالح مع عملية مصادرة أعمار البشر لصالح (جوف الجب) أو (الجدران السميكة العالية) أو المقابر مجهولة الإحداثيات مثل جهل هويات قاطنيها تحت ترابها؛ فالإنسان الذي يفعل الأعاجيب براً وبحراً وجواً ويتطلع إلى عوالم جديدة يعيش بالمتوسط (70) عاماً، بينما تعيش السلحفاة وهي تدب بطيئةً على اليابسة خمسمائة عام. "حِكْمَتُك يا رب."

استقلّت في صباح اليوم الثاني -لها في مدينة جامعتها- سيرفيس الحي إلى ساحة المدينة، وفي طريقها إلى سيرفيس الجامعة رأت ما أدهشها، سلحفاة عادية تدُبُّ على إسفلت الشارع وسط زحام السيارات وأرجل البشر واستغرابهم، وانخلع قلبها رعباً ورأفةً، فحثت الخطى نحوها بغيةَ إنقاذها وإبعادها غير حافلةٍ بتدافع الناس وفرامل السيارات المفاجئة الفاعلة وصرخات بعض النسوة وصافرة شرطي المرور الشاب الحادة، والسلحفاة، أمام عينيها المتعلقتين بها فقط، مضت واثقةً بطيئةً حتى حدود الغضب، للمرة الرابعة بحياتها ترى سلحفاةً حية، وعَزَتْ وجودها الغريب وسط الزحام المديني، بعيداً عن النهر والحقل والعين والبحر. لذاكرتها التي استحضرتها البارحة قبل أن تغفو بسبب عمرها الافتراضي اللافت.

كان إطار سيارة تكسي أسرع منها إلى السلحفاة، فقد سُمع من الموقع صوت غريب عالي وحاد، تلقته أذنا الصبية عويلاً بشرياً ذكَّرها بعويل جريحٍ خَلَطَتهُ صبيةٌ تعانق جثمان أخيها الشهيد بزغرودة غريبة بأدائها المأساوي المريع، أما سلحفاتها المدهوسة والمجهولة العمر، فقد ترققتْ كرغيفٍ وسخ متشقق. انحنت وجمعت قطعَها وسط الخطر

واستغراب البشر والشرطي الشاب المتعاطف، وركنتها في زاوية بناء قريب، واستقلّت أولَ حافلة ركابٍ صادفتها باتجاه كراجات المدينة .

بكت الفتاة السلحفاة القتيلة قبل أن تغفو على الطريق الصحراوي المملِّ الطويل في رحلة عودتها إلى مدينتها، وحين أرسلتْ بصرها عبر النافذة لَفَتَها قطيعُ أغنامٍ يرافقه جملان صغيران جميلان ولطيفان إلى درجةٍ بعثت ابتسامة في محياها، وفكرَّت أنها المرة الثالثة التي ترى جملاً حياً، ثم أنهما يمكن أن يكونا ناقتين، واتَّسعَّت ابتسامتها قبل أن تكبحها حين خطر ببالها جهلها بعمر الجمل الافتراضي، واحتمال مقتله لو اقترب من الطريق الإسفلتي.

وما إن دخلت بيت الأهل بعد نهاية السفر حتى تلقَّتها شقيقتها الصغيرة، وتلتها أمها وبعدها أبوها، وانطلقت حملة عناقات وقبلات فرحةً محمومة سرعان ما تحولت إلى حفلة بكاء هادئ طافح بسعادةٍ قدرّت حجمها بخمسمائة عام.

***

حكايات نهلا

نهلا ليستْ صعبة وليست سهلة أيضاً. إنها فتاة حلوة، ومهندسة مدنية، وحبيبة ماهر من أيام الكلية. وعلى الرغم من رفضها له ظلَّ يُحبُها حتى استجابتْ، وفعلتْ ذلك بعنادٍ جعل إرثَ الأجدادِ الخاص بالاختلاف المذهبي يتوارى، فهما متوافقان مثل نصفي الفولة[16] هتفا معاً: "نحن معاً وسنبقى معاً."

عندما قررا الزواج، ذرعا ساحات المدينة وأسواقها وشوارعها وأزقتها في مسعىً لاختيار أثاث وتجهيزات وملحقات (بيت العدل)[17] سويةً، مع أفضلية القرار للذوق الأنثوي (ست البيت). وبعد أيامٍ قليلة كان عليهما أن يدخلاه بجمالهما وجلالهما ولا يخرجا منه إلا بعد عشرة أيام طوال، قالا إنهما سيحبان بعضهما حتى التخمة، بعد ذلك سينجبا طفلاً بجمال قمر أو طفلةً بجمال شمس .

وكما يحدث في الحكايات القديمة جاء من قَلَبَ الطاولة وكل أمورهما رأساً على عقب؛ فلا زواج ولا منزل زوجية، ولا طفل كقمر ولا طفلة كشمس، فنهلا اعتُقلتْ على ذمة انتمائها الفكري اليساري فتنقلت كما في فترة الثمانينيات المجنونة. من معتقل إلى آخر إلى أن حطَّت الرحال

---

[16] المثل الشعبي: "فولة وانقسمت نصفين"

[17] باللهجة المصرية: بيت الزوجية

في سجن النساء المركزي، واقتفى ماهر أثرها بالزمان والمكان وحاول رصدها ورؤيتها، قابلها دقائق معدودة هنا وأخرى هناك وهمس أنه سينتظرها، في مرة ثانية. قالت: "إنها لا تُلزِمُه انتظاراً"، وفي مرةٍ ثالثة. قالت: "إن الأمر سيطول"، وماهر أجابها بجملة نصائح تحفظ صحتها وجمالها وروحها. وبعد أن استقَّر المقام بها في السجنِ تواترتْ زياراته، وحمل لها مؤناً وهدايا كانت تُفرحنا كما تُفرِحها، حين كان يأتي مع بعض أقارب أخريات كنا نلتصق بالشبك الفولاذي ونحيط بها كما الإسوارة. وغدتْ زيارة ماهر زيارةً لنا جميعاً، ننتظرها معها بفارغ الصبر، مرَّ العام الأول والثاني وانساب العام الثالث، وماهر ما زال يزور نهلا ويزورنا ويحمل مؤناً وهدايا ونحمِّله هدايا سجنية من رسومات وتعلوقات وجزادين خرزية مرصعة بالخرز الأحمر باسمي نهلا وماهر. بل إن أحد الجزادين حمل إضافة لاسميهما اسمي (شمس وقمر) .

***

إثر إحدى مشاحنات الأمور الصغيرة خرجتُ بقصد تغير الأجواء بجانب البحرة[18] رأيتُ سمر على البعد، وبدا واضحاً أنها تتوجهُ إليَّ، وشعرتُ بحرجٍ حينما اقتربت مني بحذر، فَتُهمتُها دعارة، وهي تحاول أن تتحدث إلينا، ونحن نحاول جاهدات أن نتجنَّبها ما أمكن ذلك .

سمر ومثيلاتها يدخلن السجن عادةً بالتهمة ذاتها والذنب نفسه، وتقيم فيه أياماً وأسابيع قبل أن تخرج وتعود إليه بعد أسابيع قد تطول أو تقصر .

ردَدَتُ تحيتَها فبادرتني بكلام استمعتُ إليه بحذر، قالت إن لـ (نهلا) معزّة خاصة عندها، وأنها تريد أن أوصلَ إليها أمراً، سارعتُ إلى إعلامها

[18] بحرة صغيرة مع نافورة

أني سأناديها ولها أن تكلمها وجهاً لوجه، لم أشأ أن أطيل وقوفي معها، لكنها أوقفتني؛ سمر سمراء تكاد تكون خلاسية، جذابة دون الخامسة والعشرين، وهي أقرب إلى حسان أمريكا اللاتينية اللواتي نراهن بالأفلام الأجنبية. قالت: "إنها أصبحت تعرف معنى الحب"، أوقفتني مرةً ثانيةً، تابعتْ أنها في آخر مرة دخلتْ إلى هُنا شاهدتْ قبالة الباب الخارجي ماهر مع أنثى تعتقد أنها زوجته أو خطيبته على الأقل، فهو قبل الدخول لزيارة نهلا خلع محبسه من إصبعه وأشار لها أنه سيعود سريعاً، وأن الفتاة بدت جميلة كـ(نهلا) ولكنها ميتة، سألتها: "شو يعني؟. أجابت: "يعني ما فيها روح". في المساء تقاسمتُ سري مع رنا وقرَّرنا عدم البوح.

***

اقترب العام الثالث من نهايته وجاء ماهر محمَّلاً بالمؤن والهدايا أكثر من كل مرة سابقة وسلمَّها رسالةً، ودَّعها وودَّعنا بحرارة، قَرَأتْ الرسالة، وقرأنا كلنا الرسالة، ومضمونها حمل إلينا خذلاناً جماعياً ولها صاعقةً خشينا فداحةَ تأثيرها لدرجة أننا قررنا المناوبة ليلاً ونهاراً إلى جانبها، "سأتزوج بمن تختلف عنك في كل شيء، ليس فيها شيء منكِ، فهي دونكِ، أنتِ نادرة، وأنا لا أستطيع أن ألومك، فشلتُ في انتظارك فسامحيني"، بهذه البساطة، دخلتْ العروس إلى بيتٍ اختارت نهلا أثاثَه وتجهيزاته الكهربائية ومعلقاته الجدارية وكاسيتات فيروز والشيخ إمام وقصائد محمود درويش ونزار قباني وأغاني مارسيل خليفة.

وتربَّع في مهجعنا عزاءٌ حقيقي كاد يُحطم أرواحَنا. في اليوم الرابع خرجت نهلا باسمةً، قالت: "هذه هي الحياة ولا بد أن تعاش". اغتصبنا ابتسامات تضامنٍ واستعرنا ضحكات صفراء كاذبة ما لبثت أن اكتسبت رونقاً حتى غدت حقيقية، وعادت نهلا إلى الحياة وعدنا معها .

***

صنعنا مع ميساء ورنا ونهلا زوارقَ ورقية ودفعناها في مياه البحرة الآسنة واقتربت منا سمر وسلَّمت، توجَّهت بالحديث لـ(نهلا)، قالت لها: "إن الحبَ حلو وأنه يستحق أن يموت الإنسان من أجله". سألتها نهلا بتوبيخ: "ولك ليش هيك عم تحكِي يا سمر اليوم؟" أجابت: أنها ليست مثل أية واحدة منا ولكنها بشر مثلنا، وأنها لا تريد أن تُخيَّرَ بين الموت والحب. أما ميساء فقالت: "عم تصعبيها اليوم علينا يا سمر". طريقة كلامها وحزنها اجتذبا منا تعاطفاً على الرغم من أننا لم نفهم ماذا كانت تريد أن تقول، لا سيما أننا كنا نستعجل الابتعاد عنها كي لا نُدان من قبل رفيقاتنا الصارمات، نصحناها بالإقلاع عن شكل حياتها الحالي لتستبدلها بحياة أخرى نظيفة فوافقت على الفور، قالت إنها تريد ذلك فعلاً ولكنها تعتقد أن هذه الحياة ستكون مستحيلة إلا إذا سافرت وابتعدت عن البلاد.

بعد أيام حصلتْ سمر على إخلاءِ سبيلٍ، وقفتْ بباب مهجعِنا مترددةً وأشارت إلى نهلا، ترددتْ نهلا بسبب ترددنا، ولكن رجاءَ عينيها جعلنا نعدل، سعت نهلا إليها ورافقناها إلى الباب، همستْ: "أنها لن تعود إلى هنا أبداً ولذلك تريد وداعَنا"، وأصرَّت وسط ارتباكنا على تقبيلِنا، وفور عودتنا بعد ذهابها، قوبلنا بجلسة انتقاداتٍ حادة حاولنا دفعها عنا بمبرراتٍ إنسانية لا تستثني حتى الآثمات.

***

قبل ما يقارب الشهر من الإفراج عنا جاءتنا السجانة أمينة وأعطتنا جريدةً بعد أن فتحتها على الصفحة المطلوبة، وقرأنا فيها خبر مقتل سمر، تأثَّرنا جميعاً، ورفيقاتنا المتشددات بَدَونَ مرتبكات وشبه مذنبات، بكت نهلا، وجاءت التفاصيل لتعطينا تفسيراً لما تعذَّرَ علينا فهمه من حديثها السابق معنا، فشقيقها هو من يؤمن الشغل والزبائن، تعيله ويعيلها، وحين تدخل السجن يعمل على إخراجها ليزجَّها بالعمل

من جديد، إلى أن أحبتْ شخصاً وأحبها، وقررا الزواج والسفر خارج البلاد فكان مقتلها على يد شقيقها .

***

جاءنا الإفراج بلا بشائر ولا نذر، بلا حس ولا أثر ولا خبر، فالأمر بدا وكأنه تكرارٌ لمساومات سابقة، الأنماط ذاتها التي غدت لنا معروفةً وممجوجةً، تركنا كلَ حوائجنا، وتسلحنا بقطع الصابون الصغيرة التي يسهل إخفاؤها والفوط النظيفة التي نحتاجها لأغراض مختلفة. هم يعرفون ما سيقولونه لنا، ونحن نعرف ما سنجيبهم، لم يساوِرْنا أي شك بأن واحدةً مِنا قد تضعف لتكون ممسحةً، سينقضي الأمر كله بكل الأحوال بعد أسبوع، أكثر أو أقل.

حملتْنا الحافلةُ مع قيودنا وسارت بنا في شوارع دمشق العتيدة، دندنتْ ميساء (شآم)[19] تلت بعض كلمات القصيدة فبدأت بغنائها جومانا وانتظمنا خلفها تباعاً حتى شمل الجميع، كنا نملأ عيوننا من المدينة وأبنيتها وسكانها، وأحسست بحبٍ هائل للمدينة وبكرهٍ لا يقل عنه لدوما[20]، بدأت الدموع بالتجمعِ في مآقي العديدات منا حتى خشينا أن نضعف، وحين اقترب وصولنا إلى الفرع أسكتنا أحد أفراد الشرطة وحسناً فعل.

بدا اللطف شيمة الجميع في الفرع، من كان في استقبالنا من الضباط حتى الأفراد والحجَّاب، فكوا قيودنا، أوقفونا ثلاثة صفوف، أحدُ الضباطِ ألقى كلمةً قصيرةً فينا، أكدَّ فيها على وطنيتنا وأخلاقياتنا قبل أن يُعلمَنا أن القيادةَ قرَّرَت إكرامنا بالإفراج عنا، هكذا ببساطة، خرج، وتبعه آخرون، وبلغ الأمر فينا حدود البلاهة فلم نتحرك، صاح أحدهم: "يلا

---

[19] رائعة فيروز – الرحبانية – سعيد عقل: سائليني يا شآم
[20] حيث سجن النساء

اطلعوا"، وآخر "شو ما عنا شغل غيركن"، وضحك ثالثٌ محذراً بأنهم سيرمون بنا خارجاً إن لم نخرج طوعاً. حين صرنا خارج الفرع عرضوا توصيلنا بالسيارات إلى ساحة المدينة وكان رفضنا جماعياً وقاطعاً .

سرنا معاً في البداية، شرعنا بعدها بإيقاف سيارات التاكسي، نودع بعضنا على وعد أن نلتقي قريباً، تبادَلنا عموميات بدلَ عناوين، وتوصيفات بدل هواتف نسيناها، وأكدَّ الجميع للجميع أننا سنلتقي، كنا لا نزال تحت رحمة أن يكون كل ما حدث معنا اليوم حلماً، ولا عجب فالكوابيس الجماعية كانت تنتابنا أحياناً. وصلنا إلى منازل ذوينا -على مراحل- إلى مختلف محافظات البلاد، وبدأنا صياغة حياتنا من جديد، وكان الوصل صعباً إلى درجة الاستحالة بعد رحلة مليئة بالتشوهات والجراح والندوب التي تأبى أن تندمل أو تزول لا سيما في ظل استمرار وجود الأجهزة الأمنية ذاتها التي زجتنا في (جوف الجب)، وذاتها أخرجتنا وأصرَّت على دس أصابعها الغليظة في حياتنا وأرواحنا ومصادر عيشنا وبثِّ الرعب الدائم في نفوسنا. أثبتت الحياة لنا بالمطلق أن الأيام لا تمحو الأيام، وأن الآمال لا تزيل الآلام فلكلٍّ مساحاته التي لا يخليها أبداً .

***

صادفتُ نهلا بعد شهرين، قالت إنها التقتْ ماهرَ صدفةً عند أحد الأصدقاء المشتركين وعلمتْ أن عنده ولد وبنت، وبحيادية أعلنت لي أنها لم تشعرْ تجاهه بأي من المشاعر السابقة، وعنت قبل السجن وأثناءه، وصمَتْتُ حين لم أجدْ تعليقاً داعماً مناسباً .

قالتْ قبل أن نفترقَ: "قدرُ الماضي أن يرحل ويخلي المكان للحاضر الذي عليه أن يُحضِّرَ ذاتَه للرحيل، فالمستقبل لا بد آتٍ". علَّقتُ على حكمتها وامتدحتُ تفاؤلَها وساهمت أنا بإيراد عبارة سعد الله ونوس الشهيرة (إننا محكومون بالأمل)، ذكَّرتني بـ(سمر)، فترحَّمتُ عليها

ولعنتُ قاتِلها، أخرجتْ من حقيبتها جريدة دمشقية، فَتَحَتْها، وأرتني صورتها على الصفحة السادسة، ذكَّرْتها أننا قرأنا الخبر قبل الإفراج عنا، فأفادت أن هذه الجريدة طازجةٌ، وفيها أمر مختلف، قرأتُ الخبرَ وأنا أستعيد وجهها، وفوجئتُ بسردٍ مخالف تماماً لما ورد سابقاً ولمعرفتنا لخلفيته، مفادُ الخبر: إن القضيةَ ستعالج أمام القضاء الجنائي على أنها قضيةُ شرفٍ وفق المادة /548/ من قانونِ العقوبات، وسيقدم شقيقُها القاتل على أنه قتلها بدافعِ الشرف بعد أن علم أنها لوثَّتْ شرفها وشرف العائلة، وقد لا يُحكم بأكثر من عدد الشهور التي أمضاها موقوفاً.

***

لم تنته قصة نهلا بعد، فقصتها متعرجة وطويلة، بعدَ أشهرٍ تعرفَّتْ إلى شابٍ ناضجٍ احتواها كطفلة وهام بها عشقاً، وبعد ثلاثة أشهر قرَّرا الزواج، وحددا الموعد، وهذه المرة بلا استعدادات ولا خيارات ولا لهفات ولا نوايا ولا مخططات تحلق عالياً، وبدا أن قطار حياة نهلا قد تمَّ وضعَه على السكة .

قبل ثلاثة أيام من موعد الزواج تمَّ اعتقالُ الشاب على ذمة انتماءٍ يساريٍ وكتابات سياسية تجاوزت الخطوط الحمراء وصُنفت تحت عنوانٍ "ثرثرة صحفيين"، أو "ثرثرة مثقفين"، ومن جديد بدأت نهلا مسيرة آلامها الجديدة، إلا أن نهلا لم تفعلْ كما فعلَ ماهر، ما إن استقرَّ بسجنِه بعد انتهاء التحقيقات حتى أتمَّت تجهيز كافة الإجراءات اللازمة لعقد القران. بعد عام غدت زوجته شرعاً وقانوناً، وزياراتها له أصبحت دورية وعادية.

تعمل نهلا في مكتبها الهندسي وترعى زوجها في سجنه. في العام السادس لسجنه تبيَّنتْ إصابته بمرض عضال. بعد عامين أفُرجَ عنه، دفنَ ثمانية أعوام من عمره وفعلت نهلا الأمر ذاته خارج سجنه. حين نتأمل حجم

العمر المهدور نكاد نصاب بالصرع، فنسبة ضياع العمر -في (جوف الجب) وخلف القضبان- إلى عمر الإنسان مذهلة حقاً، ماذا يعني (60/10) أو (50/15)، (نسبة أعوام السجن إلى أعوام العمر)، هناك نسبة (60/29)، أليست ضريبة باهظة، أليست كلفة مجنونة ثمناً لموقفٍ أو رأيٍ مخالف، فليس ثَمَّةَ قتل أو سطو مسلح ولا مخدرات ولا خيانة أوطان، الأجيال الأوروبية الحالية تأبى تصديق ذلك، فهذا خارج إدراكها أو وعيها، أعضاء لجان العفو الدولية يفغرون أفواههم دهشةً واستغراباً. بدا الوضع الصحي سيئاً حتى اليأس إلى أن أطلَّ خيطُ أملٍ من أحد المستشفيات الأوروبية المتعاملة مع هذا المرض بالذات، وبدا الحصول على جواز سفر وتأشيرة الخروج حلماً، إلا أن الأمور تحلحلتْ تدريجياً وسافرتْ نهلا لتكون إلى جانب زوجها في محنة علاجه.

حين التقيتُها بعد عودتها قلت لها: "يا مقصوفة الرقبة أنت اليوم أحلى من أيام الجامعة".

تنحنحت وضحكت أجابت "صادقة البعيد"[21]

ابتسمتْ وتابعت: الحياة التي لا بد أن تعاش .

زارتني في منزلي، احتضنت عيناها وروحها أولادي، وقبل خروجها باحتْ بكلماتٍ بسيطة مدماة. قالت: "يبدو أن مسألة الحصول على طفل صارت أضغاث أحلام، فالأمومة المتأخرة خطرة على صحة الجنين، وأنها تبذل جهوداً مضنية للتصالح مع الزمن، ولكن الزمن -على ما يبدو- لا يريد التصالح معها، ونهلا تستشعر الحدثَ قبل وقوعه.

***

[21] كاذبة

كانت البلاد قد دخلتْ مرحلةً جديدةً، بدا أن للتغيير فيها فرصةً حقيقيةً، وانتشرت في مدائن البلاد وأريافها منتديات ثقافية وسياسية واجتماعية عديدة، عنوانها استشراف المستقبل، وانجذبت نهلا وزوجها إلى حقول الشأن العام كغيرهما من المثقفين، ولفترةٍ بدت هذه المنتديات شموعاً حاولت تسليط الأضواء على زوايا منسية كئيبة فاسدة حتى الهلاك، إلا أن الأهم كان محاولة استعادة الألوان المختلفة للبلاد بدل اللون الواحد الوحيد الذي فرضَ نفسه أربعين عاماً بقوة القمع العاري وأجهزة الدعاية الواحدة والتنظيمات الموالية.

تم إطفاء شموع المنتديات واحدة إثر أخرى، وأُعيد صبغ البلاد باللون الواحد، وزوار الفجر زاروا منزل نهلا ومنتداها وأخرجوها من كليهما وقادوها إلى زنزانة معتمة جديدة، هذه المرة لم يطل بها البقاء سوى أسابيع لا تُذكر مقارنة بما مضى ومرَ معها، حين خرجت بدت منهكة يائسةً .

بعد شهر ذهبتُ وزوجي لمعايدتها، بدت طبيعية لدرجة خشيت أن أفتح موضوعاً يعكر عليها مزاجها، تحدثت معها عن المسلسلات التلفزيونية والأفلام الأجنبية، وحاول زوجي جرَّ زوجها إلى تقييم الموسم الكروي للبلاد ومسيرة فريق الكرامة العتيد .

منذ أيام قام زوجها بكتابة مقال سياسي في إحدى الصحف الصادرة في بلدٍ شقيق تم احتسابه على أنه تجاوز للخطوط الحمراء التي لا يعلم إحداثياتها إلا الجهات الأمنية ذات المزاج المتقلب والمتأهب أبداً؛ استُدعيَ إلى جهةٍ أمنيةٍ نافذة أكدتْ سطوتها على غيرها من الجهات، وبنجاحٍ تمَّ إنعاش ذاكرته السجنية، بعدها أُحضرتْ إضبارة زوجته، ثم بعد هذا تم تذكيره بانتمائه من حيث الجنسية إلى بلد شقيق آخر (وهو في هذه البلاد منذ أكثر من ربع قرن، وسُجنَ في سجونها ثمانية أعوام)، وقد تذكرَ ذلك بالفعل، فأعلموه بأن قرارَ سحب إقامته وترحيله إلى

الحدود لن يكلفهم أكثر من ساعة.

تبتسم نهلا من دون أن تقوى على إطالة الابتسام. تسخر: "ألم يعد لدى الحياة سوى نهلا لمناكدتها، وهل لا بد من أن تبقى فوق رؤوسنا ورؤوس العباد أشباح الجلادين والسجانين والقضبان، أما آن لهذه الحياة أن ترينا وجهها الآخر؟ ."

قاومت نهلا التهميش، نهلا ما زالت تحاول أن تعيش. كم ستعيش؟.

***

حـكـاية زينة

حكاية زينة حكاية مثل كل الحكايا، لكنها حكاية حزينة على النمط التراجيدي الشكسبيري الذي ينتهي بالممات، إلا أنها تبدأ بالممات وتنتهي به. زينة لم ترَ أباها، فقد غرسها ولم ينتظرها، بل غادر دنياه ودنياها، وأمها لم تتأخر عنه إلا بما يلزم كي تضع حملها، وشقيقتها البكر تصبح أمها الصغيرة. تغدو هيفاء معلمةً وترعى زينة، لكنها تعتنق فكراً سياسياً يسارياً ترى فيه تغييراً حياتياً نحو الأفضل، لكنه يودي بها إلى السجن، فتحمل (زينة) حملها وتسير على خطاها عملاً وفكراً، تخرج هيفاء من السجن بلا محكمة ولا قضاء ولا دفاع بعد أربع سنوات، وتتزوج، فلا تنجب، تنفصل، تتزوج زينة من شاب مُلاحق فتدخل السجن قبله وتقضي خمس سنوات لا ترى خلالها لا قاضياً ولا محامياً، وزوجها يلحق بها إلى سجن آخر ليقضي أقل من ثلاث سنوات من دون تهمة أو دعوى. لا انتظار بعد الآن، أنجبا ولداً ألحقاه بآخر، والحياة غدت أقسى وأشد إيلاماً، وتحالف الفقر والمرض والقبضة الأمنية على نشر تعاسةٍ لا تُنسى، وزينة تنجب ثالثاً، ولكنها مع خروجه إلى النور تغادر الدنيا .

توصي هيفاء وهي على فراش الموت خيراً بالزوج والأولاد والبلاد، البلاد ذاتها التي لم تكن يوماً حنونة لا مع هيفاء ولا مع زينة ولا مع الزوج ولا مع الأولاد.

تتزوج هيفاء الأب المفجوع، فالخالة خيرُ أم بعد رحيل الأم. أما البلاد فلم تغدُ أكثر حناناً، أقل قساوة، أكثر عدلاً، ولم ترحم أحداً، والحياة صارت أصعب، أصبحت مستحيلة، والرحيل غدا أملاً، أمنيةً تحققت بصدفة ربانية، هاجر الجميع إلى بلاد الله الواسعة حيث لا حساب على فكرٍ ولا رقيب على ضمير ولا سجن ولا تعذيب على النوايا والأحلام الرومانسية إلى بلاد يوجد فيها حقٌ للحياة وآخر للعمل وثالث للسكن ورابع للعلم وخامس للرأي وسادس للخلاف وسابع للقضاء والدفاع وثامن للترشيح والانتخاب لمدة زمنية محدودة وغير أبدية.

زار أحد الأصدقاء الأسرة المهاجرة إلى البلاد الغريبة، حيث سكنت إحدى مدنها الجميلة وقام مؤخراً مجلس بلديتها باستبدال سكنها السابق -على نفقته- بسكن جديد لائق متعدد الغرف يفي باحتياج عدد أفراد الأسرة الكبيرة -وفقاً لمعاييرهم- في صدر قاعةٍ واسعةٍ شاهد صورة زينة، أيقونة حقيقية، رمزُ عطاء إنساني لعمرٍ قصير لم يتعد الثلاثين، لم تبخل به، وزَّعته على بلادها وأقبيتها وسجونها وأسرتها. جاء رحيلها مخرجاً من حياة طفحت بالأسى والعذاب والقلق والرعب والإهانات والفقر والتهميش. جسد زينة حضنته حفرة صغيرة في مقبرة فقيرة تخص إحدى الجمعيات الخيرية

***

يا بنات، عشقكن حرام[22]

1- من سبارتاكوس.. إلى نزار

كان لا بد من أن نصل إلى هذه المحطة، فقد أمضى بعضنا وراء هذه الأسوار عامين، وأخريات ثلاثة أو أربعة، في طريقنا إليها اجتزنا محطات عديدة ومديدة، مررنا، عرّجنا، مكثنا طويلاً أو كثيراً في ربوع السياسة والاقتصاد وعلوم المجتمع والفلسفة والفلك وتاريخ الثورات وحروب الأنصار، وتوقفنا عند سبارتاكوس وغيفارا والكومونة وأكتوبر وكوبا وفيتنام والجزائر، وبحكم الانتماء الأنثوي مددنا جسوراً إلى ماضي جدّاتنا، فصفصنا مسيرة حواء ومريم وخديجة وفاطمة والخنساء وسكينة وزنوبيا وشجرة الدر، روزا لوكسمبورغ وكروبسكايا وكسمودميانسكيا .

بعدها جاءت انعطافاتنا باتجاه أعمال فولتير وروسو ومونتسكيو وأسعدتنا أدبيات هيغو وديكينز، موباسان وسارتر وتولستوي ودوستويوفسكي، وتشيخوف وغوركي، ثم ترنمنا بأشعار نيرودا وناظم ودرويش، زياد وسميح والنواب، أكثرنا (غلباويةً) وعناداً أصرت العودة إلى ديورانت -تاريخ الحضارة- مؤكدةً ضرورتها لتسويغ احتجازنا في

[22] إشارة إلى أغنية: يا بنات إسكندرية عشقكن حرام

سجن النساء للعام الخامس في إحدى بلدان العالم الثالث المنسية بلا محاكمة ولا قضاة ولا محامين، بلا أهل ولا أزواج وأحبة ولا أولاد، بدل ذلك حصلنا فجأةً على الأعمال الكاملة لـ (نزار قباني).

هكذا وصلت المحطة إلى قطارنا حاملةً أهم مواضيع الإنسان حميميةً وخلافيةً وإثارةً، (الحب)؛ (أما الحب يا عيني عليه)، هنا حطَّت قافلتنا الرحال وبركتْ النوق والجمال. صحَّحت (ميساء) وهي أكثرنا حماساً ودقةً: "لا جِمال ولا رجال"، فجلجلت ضحكاتنا حتى دمعت عيوننا، ودمدمت (حسيبة) أسوأنا صوتاً فانتظمنا خلف أفضلنا حنجرةً وأداءً في مسعى حميم لقراءة (فنجان نزار وعبد الحليم) .

***

2- يا دارة دوري فينا

انسلَّ إلى صباحاتنا الباكرة وأمسياتنا المتأخرة إلى ما بعد إطفاء النور الإلزامي موجٌ غطى دوائر ضيقة اتسعت أحياناً؛ لتستقطب أرواحاً أوفر، حضن حبنا الأول وابن الجيران وزميل الجامعة وزواج بعضنا ومشاريع ومغامرات لم ولن تكتمل، وأدهشتنا ضحالة رومانسية حكاياتنا وخذلتنا معظم محاولات مخيلاتنا لجعلها أشد جاذبيةً وأكثر إثارةً، لاحظت خرِّيجة كلية الآداب: أن الحب في العربية يمتلك -كما السيف والأسد- مرادفاتٍ عديدة، فهو هيام، غرام، عشق، شغف، وهوى... إلخ. وأصرت ليلى على اعتماد مفردة العشق بديلاً وحيداً للتداول بدل المفردات الآنفة الذكر جميعها. أشارت نزهة إلى ابتذالها، وانصبَّت في مجرى المناقشات مداخلات متنوعة وخلافية قادتنا إلى مساعٍ زودتنا -بعد انتظار- بقاموس المحيط، ومن أعماق المحيط استخرجنا: "العشق أقصى درجات الحب" الذي طوَّرته أكثرنا ميلاً للمبالغة والتطرف، فغدا

جنون الحب أو الموتُ حباً، ودارت الدارة فينا ونسينا أساMينا[23]، من تلافيف أدمغتنا أخرجنا ثنائيات العشق: قيس وليلى، جميل وبثينة، روميو وجوليت، استعدنا غادة الكاميليا ومجدولين وعشق إدوار الثامن وعرشه، بيلا ليرمونتوف وبطل زمانه، لوليتا وغيرها، وعدنا أطفالاً إلى سندريلا وحذائها وأميرها والملكة وفارسها، الطالبة ومدرسها، وجميعنا غدونا داعيات ومحاضِرات في موضوع واحد متعدد الزوايا والأضلاع والثغرات، فالعشق لا يعرف الجغرافيا ولا يعترف بالوِراثة والأنساب والألقاب ولا بالمذاهب والقوميات والطبقات، يعادي المنطق ويقهر المألوف، يزيل الحواجز، يحلِّق، يرتقي، يغيِّر، يفجِّر، يذيب، يبخِّر، يفعل عجباً لعجبٍ فوق عجب، وطفحتْ صفحات جريدتنا السجنيَة السرية المتداولة بيننا بخاطرات وقصص قصيرة رشحت عشقاً حتى الثمالة، حلَّقنا عالياً، عالياً جداً.. وبعد، ماذا بعد؟ إحدانا ستكسر مجاذيفنا وتلوي أذرعنا: "يا بنات هل ستمكثن طويلاً في الأعالي". "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة". يا بنات انتبهن فأجنحتكن شمعية لن تقوى على الصمود، يا بنات دعوني أسدي نصيحةً، أعشقنّ ماءً، هواءً، طعاماً أو جدراناً عالية أعلى من قاماتنا وأعمارنا، يا بنات استيقظن، تذكرن أنكن تقبعن في سجن النساء.

***

3- حبيبي قال انطريني

تحرَّكت شفتان قرب أذنٍ وهمست أخريان بأذن ثانيةٍ. تنبه وجهٌ وأشاح آخرٌ، وتوسعت حدقات عديدة شكاً، استغراباً أو سخطاً. هل يعقل هذا؟ ولماذا؟ فهي بالذات إحدى مصادر اعتزازنا وركائز صمودنا (قبل..

[23] إشارة إلى أغنية فيروز: يا دارة دوري فينا

وفي)[24]. مدرِّسة جامعية بمركز وظيفي ممتاز وأصول عائلية معروفة وهامة، وسرعان ما غدتْ لنا سؤالاً بلا جواب، لغزاً استدعى تسخير انتباهنا، نباهتنا وذكائنا ومن ثم مراقبتنا ورصدنا حتى اضطررنا للتحديق بأعين بعضنا خشية أن تتحول أعيننا إلى أعينٍ أمنية ساهرة لا تنام ولا تدع أحداً ينام.

سأنكفئ بالحكاية إلى البداية بلقطات خلفية سعياً إلى حبكتها المثيرة وصولاً إلى خاتمتها المحيِّرة على الرغم من بساطتها .

حصلتْ فتاتنا على رواية آنّا كارينينا لـ(تولستوي)، قرأتها مرتين وسردت علينا باهتمام ودقة بعض تفاصيلها التي نعرفها، وتعاطفتْ، من دون تحفظ، مع بطلتها زوجةً، أماً، عاشقةً انتهت تحت عجلات قطار، ثم تمكَّنت من تهريب ستندال لتعيد قراءة أحمره وأسوده، وفاجأتنا عيناها بدموع لم تعهدها ولم نعهدها في عز أزمتها أو أزمتنا الأمنية والسياسية، ومجدداً تفهَّمتْ حيثيات خيانة زوجية أمومية في عشق راهب شاب فقير، وإذ اعترضَتها بعض تحفظاتنا، استغرابنا أو فضولنا المتشكك جعلت انعطافتها ملحميةً باتجاه إلياذة هوميروس قبل أن تتناول طروادة وأسوارها وحصانها وأبطالها ببعض اهتمامها الذي انصبَّ بمعظمه على مثلث العشق المتمثل بـ (هيلين، مينلاوس، باريس) .

لأيام ثلاثة خلتْ حصلت على جوارب نايلون غالية، والبارحة ارتدتها، لسنا في عرس ولا حفلة راقصة ولا مهرجان ولا حتى جامعة، ما قصتها مع الملابس الداخلية وماكياجها وتسريحتها المتعوب عليها طويلاً؟. تعتزم إطالة شعرها، لعلَّها نسيت أنها صاحبة اقتراح جز الشعور أو على الأقل تقصيرها قدر الإمكان تجنباً للصيبان والأوساخ وتوفيراً للصابون، فلسنا نحتكم على موردٍ مدلَّل، لعلها لم تلحظ أنها استهلكت ثلاثة أمثال

---

[24] السجن

مخصصها الشهري من المنظفات، دأبتْ على استعارة بلوزة إحدانا البيضاء الحريرية وتنورة إحدى (القضائيات) السوداء اللماعة العصرية، وبأوثق علاقة ارتبطت مع أم كلثوم عبر أغنيتها (عودت عيني على رؤياك) ومع عبد الحليم عبر (بتلوموني ليه) قبل أن تهوسَها أغنية مشوار) وأغنية (حبيبي قال انطريني) الفيروزيتين، فتقوم بتحويل المسجلة الصغيرة -ملكيتنا المشتركة العامة- إلى ملكية خاصة بحكم وضع اليد، حتى أعلنت سعاد أن الأغاني الأربعة قد "طِلعتْ من مناخيرها". اشترتْ طلاء أظافر وصبغت أصابع يديها وقدميها، واتبعته بقلم حمرة أوصتْ بالحرص على جنسيته الفرنسية خشية التقليد التايواني وأخفته عنا، عرضتْ خاطرةً عشقيةً كتبتها بأناةٍ وشرود طويل وابتسامات ساهمة وتعذَّر نشرها في جريدتنا الداخلية بسبب الإغراق في رمزيتها، بعدها انكبت على الكتابة حتى التخمة، ثم مزَّقت كل ما كتبته بعصبية غير مبررة وبدأت الكتابة من جديد، الورق لدينا أيضاً ملكية مشتركة وسلعة نادرة وغير متاحة وغالية الكلفة والوسيلة، والجميع متفق أنه للجريدة أو لرسائل سرية قد يسعدنا الحظ بتهريبها للخارج، انفردتْ بإحدى النساء القضائيات وتهامسن، ناولتها شيئاً ما أخفته عنا، ضحكت ضحكة خافتة وقهقهت الأخرى عالياً، فتلقفناها بتحقيق سريع تهرَّبت منه بارتباك ونصف احتجاج قبل أن تدمع عيناها ويختنق صوتها منذراً ببكاءٍ انفجاري تجنبناه بإشارات عيوننا إيذاناً بالكف عن إرهاقها ودفعها للعداوة والتطرف. رفضت سميرة بمبدئية عالية العلاقة مع السجينة القضائية وبررت: إن تساهلنا السابق بالعلاقة مع السجينات الأصوليات تسبب بفقدان إحدى رفيقاتنا قبل أن نتمكن من جذب إحداهن لصفوفنا فكيف نعوض خسارتنا الآن إن حدثت؟. بصقت إحدى متشائماتنا بقوةً أطارت رذاذ لعابها بعيداً "كش بره وبعيد."

***

4-   أنا بانتظارك، لم أمَلّ

جاء موعد الزيارة، بدت حلوةً كلعبة، الجميع يعرف أن لا زوّار اليوم لها، ولن يحدث ذلك قبل أربعة أو خمسة أشهر، توازعنا زوايا الرصد وترقَّبنا الشبك الحديدي ورجال الشرطة والضباط ومتعهد الأرزاق وخضرجي السجن والزوار من أقاربنا أو أقارب القضائيات وفشلنا في تحديد زوايا نظراتها واهتمامها وفشلنا بالتعرف إلى خصمنا العتيد .

أعادت التنورة مساءً وبعدها البلوزة ونزعت عنها الملابس الداخلية، وليلاً سحبت ساقيها من الجوارب الحريرية، بعد إطفاء النور سمعنا بكاءً خافتاً ونهدات حزينة جداً.

أشاحت بوجهها عنا صباحاً، وحدقت بالحائط، ونزل خط مزاجها البياني في الأيام التالية حتى وصل الحضيض قبل أن يعاود ارتفاعه مجدداً مع اقتراب موسم الزيارات، من جديد بدأت قصص الشامبو والبلوزة والتنورة والأغاني الأربعة وتسريحة الشعر المبتكرة والعلكة وقراءة قصص العشق وإصدار نهدات الأمل والنجوى، فأعددنا للأمر عِدَّته، وأعدنا تنظيم صفوفنا وفق قواعد ومخططات جديدة متماسكة ومبتكرة، وكدنا نلتقط في وقت ما شيئاً ما أفلت منا جميعاً قبل أن تتبين أن ذلك بالكامل كان وهماً أكيداً، فذهبنا لمواجهة مباشرة معها، استنطقناها بتوددٍ، بعصبية، بتعاطف، باللين، بالقسوة، بالإهانة، حتى وقعنا فيما حرصنا على تجنبه، فحدث الإشكال الذي أودى بنا إلى شركِ مواجهات كنا نعتقد أنها بيننا جميعاً وبينها، فاكتشفنا أنها بيننا وبيننا، قبل أن نوقن أن انفصاماً حاداً قد استحكم في ذواتنا وأفعالنا، دلال احتضنتها وبكت ورفست أختها الجاهزة للعراك، واستنفر الجميع وصمتتْ فصمتنا، ابتعدتْ وانتظرنا .

تكرر الأمر على امتداد زيارات أربع، بعدها خيم فوق رؤوسنا جميعاً سكون مقيم. سكوننا بدا مقبولاً ومنطقياً، أما سكونها فقد بدا كارثياً، استبدلتْ الشبك الحديدي بالحائط المقابل، تجلس قبالته ساعات، لم تعد تهزّها أخبار الزيارات والرفيقات والشجارات، بدأت بإهمال الأشياء وانتهت لإهمال الذات وكأنها هجرت عالمنا وعالمها وانتمت لعالم الحيطان، بناءً على تواتر طلباتنا وإلحاحنا تم عرضها على طبيب عضوي تلاه طبيب نفسي لم يفيداها بشيء، عيناها لامتانا، لُمنا بعضنا وكدنا نشتبك بالأيدي قبل أن نصمت جميعاً، تساءلنا من دون صوت أو إشارة ماذا يجري معنا؟ شككنا بتحليلاتنا وسلوكياتنا وصحة محاكماتنا العقلية وعدالتنا وحرصنا، وكدنا نتَّهم أنفسنا بالجنون والظلم والخيبة حتى صرخت جومانا: إن العيب ليس فينا وليس فيها، وأن السبب ليس في دواخلنا، وأن المذنب الأكبر هو الجدران العالية التي تحيط بنا، متى سندرك ذلك؟ يا إلهي! كيف نسينا ذلك، هل أصبح أمراً عادياً أن نكون في سجنٍ؟ وأمراً استثنائياً أن نكون خارجه.

***

سيرين: حدثٌ وذاكرة

سيرين بلا هموم، وُلدتْ وترعرعتْ في أجواء مريحةٍ أو مُحلِّقةٍ، درستْ بسهولة من الحضانة حتى الجامعة، حياتها سلسة كجدولٍ عذبٍ لا يعكره شيء ولا يلوثه أحد، ملابسها، ماكياجها، أناقتها، نمط قضاء أوقات فراغها في الكافيتريات والمسابح والرحلات داخل وخارج البلاد، إلخ. باختصار سيرين لم تهتم للبارحة ولا تقلق للغد، سيرين تعيش يومها؛ تحديداً لحظتها .

أهدتها الحياة إحدى الحكايات من دون مقدمات، حكاية النظرة والبسمة والإعجاب والموعد واللقاء، بدأ الأمر عادياً وتحول إلى عاصفةٍ عشقية، وكما دأبت الحياة على تقديم وجوه مختلفة لمسالة واحدة فإنها ارتأت أن يحمل الشاب -الصدفة- في ثناياه هموم واحتياجات الناس المتعبين والفقراء المساكين وأحزان العالم المشغولة بأيدي الطماعين والجلادين، جاءها الشاب بأحلام بشرية محمولة على أجنحة الأغاني والقصائد والروايات والرؤى الاجتماعية والسياسية قبل أن يطمح لإشراكها بأحلامه وأحلام رفاقه التغييرية للوطن والعالم، حاول أن يريها الوجه الآخر للحياة، وحتى لا تبقى الأمور ملتبسةً أعطاها جريدة حزبه السرية.

لم تتوقف سيرين، لم تتأملْ ولم تتغيرْ، بدتْ منجذبةً إلى أمور أرضية

واقعية تجلَّتْ برجولة وخفة دم الشاب ومروءته ومواصفاته الشخصية العالية. تبتسمُ لحماسته وأحلامه وتحليلاته وتقوده إلى أجوائها. عانت علاقتهما مداً وجذراً وانقطاعاً مؤقتاً متعدداً قبل أن يصبح دائماً ويذهب كلٌ في حال سبيله.

ستنسى سيرين الشاب وكل قصصه وأحلامه وجريدته، وستعود إلى مسيرتها ومظهرها وأجوائها، نسيت سيرين كل شيء بالتأكيد، ونسى هو أو تناسى كل شيء، ولكن هناك على ما يبدو-بالإضافةِ إلى الله- من يعرفْ ولا ينسى ولا يتناسى.

تم اعتقال سيرين بتهمة لا تكاد تعرف معناها، خلفية الاعتقال قراءة جريدة الحزب السرية. تحاول سيرين في معتقلها -حيث طال اعتقالها- سبرَ لغزٍ صعبٍ من دون أن تُفلح، تحاول استعادة شريط أخذِها الجريدة وتَذكُر محتوياتها أو التأكد فيما إذا قرأتها أو أهملتها، سيرين مُحبطة، فذاكرتها لا تسعفها وكل ما جرى ويجري لها خارج منطقها وإدراكها .

سيرين... يا سيرين يا بنت الناس، إذا لم يكن ما تريدين فأريدي ما يكون، هكذا فكرت سيرين قبل أن تتساءل، طرحتْ مائة سؤال بالسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد والثورة والتغيير والسلطة والأحزاب. سيرين يصعب إدهاشها كما يصعب إقناعها، فهي لا تُمرِّر شيئاً هاماً، دون ذلك تتساهل.

حين تحتار سيرين تقلب شفتيها، تؤشِّر بيديها، ترفع حاجبيها، تذهب لتغسل وجهها من جديد قبل أن تندس في فراشها. استيقظت في أحد الصباحات لتسأل في منتهى الجدية عن سلاح التغيير، التفتت جومانا باتجاه الإسلاميات وغمزتْ بعينها قبل أن تقترح استبدال سلاح التغيير بأدوات التغيير، وحين وافقت سيرين لم تتلقَ عبارات حماسية ثورية محبوكة، بل رموزاً متواضعة، فميساء مدَّت لسانها وحرَّكته، رفعت سميرة قلمها وكتبت بالهواء، أما رزان فقد نقرتْ دماغها عدة مرات،

وسيرين لم تضحك ولم تُعلِّق، نهضتْ، قالت إن اليوم مناوبتها السيرلانكية[25] وأن على الجميع أن يأخذ حذره، بعد يومين صاغت سيرين رؤيةً واضحة استنكرتْ فيها الأحوال التي يُعاقب الناس فيها على الأفكار والرؤى والنوايا والأقوال.

هذه الفتاة لم تكن من وسطنا أبداً، ولكنها لحقتْ بنا، ثم توسَّطتنا بثقة لافتة، وقبل أن ننتبه تقدّمتنا واعتادت التحدث إلينا بلغتنا ومخاطبة الآخرين باسمنا وعنا.

حين جاء الإفراج الجماعي العتيد وتواعدنا بالدموع والعناق على مفترقات الطرق لم نتذكر أننا لم نَكَدْ نعرفها، وأننا لطالما انتقدنا تصرفاتها ونمط حياتها. واستغربنا رابطة رفيقنا بها. يبدو أن الحياة غنية بل في منتهى الغنى، متغيرة وقادرة دوماً على إدهاش البشر بالجديد المفاجىء الذي لا يخطر ببال، فتجعل المستحيل واقعاً ممكناً ولا تبقي حالاً على حال في كل الأحوال.

***

[25] التنظيف والخدمة العامة

خواتيم

خلّف نبأ اعتقاله في سويدائها حزناً وذهولاً، ولم تمكثْ لتسمعَ تفصيلاً، فلقد قذفها خارجاً سخط ٌويأسٌ عارمان، طافتْ شوارع مألوفةً وعاينت أماكن لقاءاتهما، وكادت تسأل عنه أشجاراً وأعمدة إنارة ومواقف حافلات نقل عام، خمَّنتْ المصيرَ والبعادَ والانتظارَ واستبعدتْ احتمال رؤيتهما المشتركة عما قريب للأشياء والناس والأضواء. أجهشت في غرفتها إشفاقاً وشوقاً وعاهدتْ ذاتها على أمورٍ تعلَّقتْ جميعها بشخصه، ماضيه، حاضره، مستقبلهما معاً رغم أنف معطيات آنية تفقأ العين بداهةً.

لأنَّ احتمال تسقّط أخباره أو تحديد مكان اعتقاله أو زيارته، لم يحتويها هامش العقلانية، ولأن الاعتقال السياسي نادراً ما طال النساء فإنها أسقطت ممكنات استعادته بصرياً أو سمعياً ولوعن بعد، وحتى لا تخرج خاسرةً لاذتْ بعالمِ أمنيات لا يخدم المستحيل، وتمنَّت رؤيتَه أو سماعَ صوتِه.

المفاجأتان جاءتا سويةً بعد أسابيع قليلة لتجعلا المُحالَ متاحاً، قِيدَتْ معصوبةَ العينين عبر ممرٍ بدا بلا نهاية، لازمه صوت ألم بدأ خافتاً وازداد حدة وقوة، حين أُوقفت انفجرَ قبالتها خواراً شقَّ صدرها وعثَّر قدميها فكذبت سمعَها إذ أكَّدَ صارخاً أن مقلتيه لم ترياها وأن هويتها مجهولة

لديه بقدرَ ما هي معلومة لديهم، قدَّم المحقِّقُ مساعدة مجانية ساخرة مفسراً جهله أو تجاهله لهويتها بسبب غياب عينيها فأمر بنزع (الطميشة) عنهما.

كانت عيناها قلقتين وقد بان في النور جسدٌ مهشمٌ مختصراً بعينين مخضبتين من دون بؤبؤين أو بياضين، انصبَّ المكان المجنون داخلها رعباً، على الذاتِ والآخر، فاصطكَّتْ أسنانُها وارتختْ ساقاها وغزا معدتها غثيان كثيف، استنفر داخلها هاجس احتياجٍ لإقياء أو خروج معوي، وقبل أن تلفَّها غمامةٌ رمادية لمحتْ وجهاً بلا قسمات يقطرُ ألماً وأسىً، والتقطتْ أذناها -كمن يكلم نفسه- تأكيداً بجهله هويتها. المياه الصقيعية التي صفعتْ وجهها وغمرتْ ثيابَها وجسدَها استردَّتْها لتؤكدَ أيضاً جهلها بهويته وعدم لقائهما -سابقاً- صدفةً أو تدبيراً.

توقَّفَ استجوابُها لأسباب تجهلها، وأُعيدت عصابتها إلى عينيها وسلكت الممر الطويل عائدةً برفقةِ سجَّانِها وأصواته التي بدتْ قويةً قبل أن تتلاشى تدريجياً.

أحسَّت وهي في زنزانتها المنفردة الشديدة البرودة والقذارة أنّ جسدها منهك وروحَها ملتاعة ومعنوياتِها منحطة، إلا أنها لم تتردَّدْ في محاسبة ذاتها وتعنيفها، فاعتبرت أنها مهووسة خرقاء وذاتيةٌ إلى حدود الأنانية المفرطة، وغبية إلى درجة جهل أن الرياح قد تجري بما تشتهي السفن وأنَّ الأقدار قد تناكد الأخيار وتعابثهم. أكان لا بد لها أن تتمنى ما تمنته؟.!

تمنَّتْ قبلَ أن تغفو -وخشيةَ فصلٍ مرعب جديد. عدم سماع صوته أو رؤيته، وحين استيقظتْ سكنها هاجسٌ مجنون: ماذا يعني لو تحقَّقتْ أمنيتُها الجديدة بحذافيرها؟ أيعبثُ القدرُ معها مرةً أخرى فيريها نجوماً في الظهيرة؟ ولم لا؟ فَهِمَةُ الجلادين كانت عالية ومعدات التعذيب

أظهرتْ فعاليةً، وتهالك جسدِهِ بدا واضحاً، وأجواء المكان -بالإجمال- وشَتْ برائحةِ خاتمةٍ مُفجِعةٍ، سارعتْ للاستنجاد بأمنيةٍ ذكيةٍ متعددة الوجوه بغيةَ الحصولِ على خواتيم سليمة، لكنها سرعانَ ما تراجعتْ مقررة قطعاً أبدياً مع عالم الأمنيات الذي قد يُصغي لهواها قليلاً ويتصرَّف على هواه كثيراً.

***

كذبة.. وثمن

تزاحمتْ الأيدي والعيون بطلبِ جرعة ماءٍ، فالحلوق غصت باللقمات، أصواتُ حيواتٍ بشرية انصبَّتْ بشدةٍ غير مسبوقة في وجبتنا اليومية الثانية، فقاعة التعذيب باشرتْ عملها اليوم مبكرةً، باب مهجعنا انفتح إلى الداخل برفسةٍ حيوانية، وبصوتِ حاجب محكمةٍ هتف السجَّان باسم رفيقتي، وانخلع قلبي رعباً، خشيتُ أن ينطقَ اسمي ثانيةً، نحَّتْ ربعَ رغيفِها، هممتْ أنها شاهدت البارحة حلماً مزعجاً، وتثاقلَ نهوضُها، حاولتْ استنباط (النهفة) من عمق الوجع، دمدمتْ محتجَة وكأنها تتدلل في بيت أهلها وتملك خيارها، "دخيلك يا الله، والله ما جايي على بالي روح"، فخرجتْ كلماتها مرتجفة مهزوزة ومخنوقة، ورسمنا -جميعنا- على وجوهنا ابتسامات بلهاءَ مذعورة على حواف البكاء، همستْ لي مودعةً: "أمانتي في عنقك لا تنسيها"، حاسَبَ تلكؤَها بكلمات زجرٍ مناسبة، تابعت همسها لهيفاء "إني متأكدة أن تاريخ اليوم هو 13 فهو يوم شؤمي". قوام فارع شدَّته بصعوبة فاستقام وخرجت، حال إغلاق الباب بدأت العدَّ وأصغَت البنات... اقتربْتُ من تسعمائة ثانية، سعتْ مُخيلاتنا خلف تفاؤلٍ بالخير بُغيةَ إيجاده، استعرضنا احتمالات: (زيارة، واسطة، مجرد سؤال) تخمينات عنوانها طمأنة ذاتٍ مزَّقها مزيجُ صراخ، وعويلٍ وأنين أنثوي حاد وشتائم سجَّانين فاجرة، ألحقتها بتسعمائة أخرى قبل أن أُسَلّمَها لـ(زين) التي تابعت من المئات

ست وثلاثين اختلطتْ فيها أصوات المحققين بزعيقِ الجلادين برعبِ آلام أنثوية وأخرى ذكورية بلسعات سياط لحمٍ قد يكشفُ عظماً، بانخباط عصيٍّ على هياكل بشريةٍ، أنجزتْ هالة أربعمائة وسبع وخمسين، ثم، ثم، "خلص... خلص" ساد هدوءٌ نسبي متعبٌ مريح مربكٌ مفرح وانتظار مقلق، مقلق جداً، هل توقف الزمن أم إنه طال؟. صرَّ بابُ جهنم مرتين وانفتح باب مهجعنا وأُعيدت فتاتنا. وجه الصبية أصفر على أخضر، بنطالها مرفوع حتى الركبتين، جلد ساقيها وقدميها يحتمل كل ألوان قوس قزح غروبي، أرحناها، مخدة، جرعة ماء، بطانية، ماذا يحتاج الإنسان كي يبدو سعيداً؟... تذيقه نارَ جهنم ثم تبعده عنها، ابتسمتْ وابتسمتُ... وأنا أمسح ساقيها وباطن قدميها بخرقة مبللة ناكدُتها: "ذهبتْ وصيتُك سدى"، اغتصبتْ ضحكةً وأجابتْ عيوننا القلقة المستفسرة: "ليس سوى دولاب وسبعين مباركة[26]"، قاطعوا معلومات فوجدوا كذبة صغيرة، طلبتْ أن تأكل، ستستريح ثم تأكل، دخلنا وبعضنا بتفاصيل بدت هامة، أصبحت ثانوية ثم أهملناها، أحسسنا بجوع، هممنا بالطعام فباشروا بالبشر من جديد، وهؤلاء دخلوا على خطوطنا وزاحموا بآلامهم جوعنا وأعصابنا، أهيَ لعبةٌ تفرضُ أن يبقى الجرحُ مفتوحاً، يرسل دماً وقيحاً يخلِّف فينا أسىً ويأساً، خوفاً وقرفاً أم إنها لعنة.

***

[26] جلدة أو عصا

محكومون بالـ "لا أمل[27]"

لم تستطع رفيقاتنا تصديق أن ما يجري بيني وبين نجوى -أعز صديقاتي- يمكن أن يكون جدياً، فلقد علا صراخنا وتبادلنا اتهامات قاسية بالكسل والفوضى والأنانية، بعضُ فتياتنا ما زلن نائمات، "الصبح لكِ يا الله". موضوع الخلاف (رواية)، تمكّنا بطرق ملتوية وصعوبات بالغة من تهريبها إلى داخل السجن، وأجرينا قرعةً تَرتَّبتْ بموجبها الأدوار وحُددتْ مدة بقاء الكتاب بحوزة قارئته بصورة صارمة. في صباح هذا اليوم كان على نجوى تسليمي الكتاب على الرغم من أنها لم تتمكن من إنهائه. رجتني بدايةً فتمنَّعت، حاولت إقناعي فرفضت، أصرَّت على الاحتفاظ به فأثارت حفيظتي وحفزت عدوانيتي، فهو دوري وحقي، ولا بد أن يأخذ الحق مجراه .

في عز الإشكال الذي جعل الكتاب في قبضتينا معاً ارتفع صوت السجانة مطالبةً بالانتباه، تبعته تلاوة أسماء مجموعة من رفيقاتنا اللواتي كان وضعهن الصحي المتردي قاسماً مشتركاً بينهن، ورفيقتي خصمتي الآنية إحداهن، وانتهى البلاغ بالاستعداد للرحيل الفوري إلى الفرع الأمني صاحب العلاقة .

---

[27] إشارة إلى جملة المسرحي العالمي سعد الله ونوس "نحن محكومون بالأمل"

تفاءلت أكثريتُنا باحتمال إفراج مبكَّر ودبت فينا مشاعر متفاوتة، وذلك فرحاً لحظِّهن بمرضهن سبب الإفراج وأملاً بإفراج آخر ليس بعيداً عنا، أنا اجتاحني سخط ٌعلى الذات وندم وأدنتُ خشونتي المستندة إلى حقٍ سخيف بالإمكان التغاضي عنه قليلاً مع نجوى ولُمتُ نفسي لعدم إبدائي مرونة كافيةً لطالما قررت تبنِّيها وممارستها ولطالما أخفقت في اتباعها... رغبت في حضنها وتقبيلها والاعتذار منها، وبدلاً من ذلك بيّنتُ إصراري الفظ على أن تأخذ الكتاب معها لأني لم أعد راغبةً بقراءته، ثم أكَّدتُ أنها يمكن أن تأخذه لها وحدها علماً بأنه ليس ملكي أو ملكها- ثم هرعت إلى زاوية المهجع وأخرجتُ دفترين كانا بحوزتي ودفعت بهما إليها، ثم عدتُ لأجلب لها قلماً وأربعة دبابيس شعر، بعدها انهمكتُ بإقناعها وسط مراقبة الجميع قبل أن أنتبه لوضعي ووضعها والأخريات؛ لننفجر جميعاً بضحك صاخب تلته دموعٌ في المآقي استبطنت دموعاً في القلوب، وبدا موقفنا حزيناً وفرحاً بوداعٍ وفراق وبقاء لا أحد يعرف كم يطول، فلقد انصرمت على اعتقالنا سنوات .

شرعتُ في مساعدتها بجمع حاجياتها ومستلزمات إقامتها في فرع التحقيق الذي قد يطول أياماً أو شهوراً قبل إطلاق السراح. دأبت السجانة على طلب السرعة وإبداء التعليقات الجادة والسخيفة على حدٍ سواء، ومع آخر تعليماتها غدت الفتيات جاهزات للرحيل فانطلقت حملةٌ من عناقات وقبلات ودموع ووداع.

سِرْنَ راضيات مبتسمات دامعات وهن يلوحن بأيديهن ملتفتات إلى خلف متعثرات، وعيوننا تابعت ابتعادهن حتى اختفينَ.

مسحتُ دموعي وعدتُ لزاويتي حيث الكتاب بانتظاري؛ سأحرص على إنهاء قراءته وتسليمه في الوقت المحدد أو قبل ذلك، ولكنني عدلت وعرضت على الجميع التخلّي عن دوري لمن تريد، وابتسمت الفتيات تفهماً ورضاً.

افتقدنا المفاجآت اللطيفة، فشرعنا نتمناها ونحلم فيطول غيابها، صرنا بداخلنا نرجو حدثاً أياً كان ينتشلنا من ركودٍ مستنقعي قاتل؛ وجاء يوم آخر، وارتفعت جلبة، وسمعنا أصواتاً نسائية مختلفة، أسرعنا على إثرها بالالتصاق بالشبك الفولاذي قرب الممر لنتبين رفيقاتنا جميعهن عائداتٍ من دون استثناء بمن فيهن نجوى، أمامَهن انفتحت الأبواب، وأُغلقت خلفهن الأبواب، وفي فضاء السجن الصغير إنْفَلَشَ لغطٌ نسائي كبير تراوح ما بين فرحٍ عشوائي بلقاء، وخيط قنوط شبكنا جميعاً كما خيط الخرز المشغولة به جزادين السجن البائسة أو السلسلة الفولاذية الطويلة التي تمرر عبر قيود عشرين أو ثلاثين سجيناً عند نقلهم من معتقل إلى آخر، أسئلة، أجوبة، شرح، تفصيل، الجميع شرح، فصّلَ، تساءلَ، أصغى، قاطعَ، شاغبَ، وفهمنا سبب العودة، باختصار: كان رفض المساومة[28].

غاب آخر أثر لألوان لقاء العودة الزاهية، وحل في داخلنا يأس قاتم مقيم، كيف لا؟ فإذا بدا الإفراج مستحيلاً لمريضات فكيف لنا نحن - من يصّنفوننا ظلماً- سليمات؟ يبدو أننا كنا نمسك ذنب السعادة الأملس. كما في مثل أُمي الشعبي المفضل.

انزلق الأمل وابتعد كما تنزلق وتبتعد سمكة لزجة عبر أصابعنا، هل سيبقى الإفراج حلماً والحرية مستحيلة؟ وهل ستبقى أرواحنا حبيسةَ أجسادٍ أخذ الاحتمال يخونها؟ فنحن جميعاً تحولنا من أصحّاء إلى مرضى جسد، ومن مرضى جسد إلى مرضى نفس، وقد يتساكن المرضان معاً، فأين المفر وإلى أين المصير؟ .

أُطفئت الأنوار، في تلك الليلة، أبكرَ من المعتاد، فقلنا أنهم تقصّدوا ذلك وشتمناهم وكِلنا لهم أدعية بعدم التوفيق. لملمنا في العتمة حوائجنا وبسطنا فراشنا فلم نرَ رثاثته التي اعتدنا ملاحظتها مؤخراً، ومرّت نصف ساعة شق بعدها سكون الليل صوتُ ميساء متوسط

الارتفاع، تساءلتْ: "هل سلام نائمة؟" وأجابت عني: "سلام لا تنام وهذه الليلة تحديداً لن تنام!". انطلقت همسات وهمهمات وأنصاف جملٍ أو كلمات ظلت كلها أخفض من صوت ميساء .

تابعت ميساء: "والله يا سلام نجوى رفضت المساومة وعادت خصيصاً من أجلك لتأخذ دورك فلا تتساهلي معها ولا تعطيها الكتاب". ضج المهجع بضحكات عالية وتعليقات مرحة ساخرة استقدمت السجانة التي شتمتنا وأنذرتنا بعواقب وخيمة. وأخيراً هدأ المهجع. لكني لا أزال مستيقظة لا أنام، فكَّرتُ أن وجود ميساء معنا جعل حياتنا في السجن أقل وحشة وقسوة، وتمنيتُ أن لا أبقى بعد الإفراج عنها يوماً واحداً، حين فكرتُ بأمنيتي مجدداً أعجبتُ نفسي وسررتُ، فأنا لم أتمنَ ولن أتمنى أن أخرجَ قبلها أبداً

***

طيف.. وصوت.. وزيارة

عِبْر الأصدقاء والمعارف وأهل الخير كان على شقيقي السعي دوماً لتأمين زيارة على النفس الطويل، وكان عليه، عند موعد الزيارة، أن يأتي (من آخر ما عَمَّر الله). واجهة الزيارة التي كنت بانتظارها ككل البنات معنوياً ملأى بالتوق والشوق ومعرفة أخبار الأحبة؛ أمّا باطنها فماديٌ مساند لبطوننا التي التصقت بظهورنا أو أجسادنا المتآكلة حتى الاهتراء شكلاً ومضموناً. وزيرة اقتصادنا طالعتني بابتسامة بالغة العذوبة، أكَّدتْ أني اليوم سأتلَّقى زيارة، وكدتُ أسالها عما إذا قرأت ذلك في فنجان القهوة عندما تذكرتُ أننا لم نحتسيها منذ شهور، فكَّرتُ بأنها تمتلك قناةً سرية ما مع الخارج لا يجوز أن أسأل عنها، وسُررتُ بذلك، حين أكَّدتْ الأمر ثانيةً شعرتُ إلا بفرحٍ غامرٍ قرَّرتُ أن لا أتمتع به طويلاً كي لا أُعرِّضَ نفسي لخذلان شديد وتعاسة قصوى في حال لم تتم الزيارة، لأن بالأمرِ خطأً ما، تعليمات جديدة ما، كذبة ما، غمزتْ بعينها، حاولت مقايضتي، قالت: الزيارة لي وحمولات الزيارة لنا. ضحكنا، فهذه القصة محسومة سلفاً، فأنا وهي ننتمي إلى شعار الكومونة الذي استبسلنا في الدفاع عن استمراريته. اقترحتْ عليَّ الانسحاب من الكومونة والتمتع بخيرات الزيارة وحدي مع تقديم المساعدة في تأمين المقايضات اللازمة مع الإسلاميات أو القضائيات شرط منحها (كومسيون) محترم، فاقترحتُ عليها أن تستجيب لأول مساومة معروضة فتخلص بضربة واحدة منا

ومن الكومونة ومن وزارة الاقتصاد العتيدة ومن الجدران التي تخنقنا، ضحكنا وضربنا كفاً بكف. أنذرتُها: إن كانت خبرية الزيارة مزحة فإني ليلاً سأغطي رأسها بأكبر مخدة حتى أكتمَ أنفاسها. نوديَ على سلام، كنت لا أزال أرتبُ نفسي بمساعدة البنات بعد أن استعرت ملابس من هنا وهناك وحذاء وجوارب وحتى مشابك شعرٍ، وحين اقتربتُ من الجاهزية جاءت ميساء لتخِّربَ كل شيء، قالت عبثاً يُجهزْنني فإن على أهلي أن يروني في أسوأ حال وليس في أحسن حال، (منشان يفردو إيدن أكتر)، (ولك سلام، قولي لهم إنك جوعاني وعرياني وكل شيء ناقصك: رز وسكر شاي وقهوة وصابون؛ سلام لا تنسي القهوة، قلّلْكْ نسكافيه، أى نسكافيه، لأنو مبارح شفتا بمنامي، لا تنسي الغيارات الداخلية سلام الله يخليكي، بنطلونات وكولونات صوف، لعمى البرد فات لعضامي)، لم تنتهِ طلباتها إلا عندما هبَّ الجميع بإبعادها عني؛ عن بعد قالت إنها هذه المرة لا تمزح، (جد... جد سلام لا تنسي النسكافيه وكولونات الصوف) ثم ما لبثت أن انضمَّت إليهن في وضع اللمسات الأخيرة، همستْ في أذني إنها تتمنى أن تكون أخبار الأهل والأحباب على ما يرام، ونصحتني أن لا أطلب منهم شيئاً إلا إذا ألحوا، وأن أتجنب ذكر أي من همومي وآلامي، فهم لن يستطيعوا مساعدتي وأكون بذلك زدتُ إلى همومهم هموماً أخرى لا طاقة لهم بحملها، ومرةً أخرى شعرتُ بودٍ طاغٍ تجاه هذه المخلوقة الذكية القادرة على استخراج الأمل من وسط الأحزان وفرز الغث عن الرث وتحديد الأساسي من الثانوي، الحياة في مهجع واحد مع ميساء غير الحياة بدونها، قبّلتُها وطرتُ عبر الشبك الفولاذي الذي غدا الجميع خلفه، وصرتُ بجانب باب الساحة الداخلي، لكن شقيقي لم يكن قد اجتاز الباب حيث ينبغي أن ألقاه وأدخل معه غرفةً صغيرةً جانبية أشبه بمغارة، بدايةً انتظرتُ، ثم لم أعد أفهم سر عدم انفتاح الباب ليدلف للداخل، السجَّانة فتحتْ الباب قليلاً وتهامست مع سجَّان آخر بالخارج، ثم أغلقتْه وابتعدت عني وعنه، (شو القصة

وين الزيارة ؟). (طَوْلي بالِك)، قرعٌ خفيف على الباب، استلمتْ السجانة أغراضاً، هل هي أغراض لي؟. ما من جواب، (طولي بالك يا مخلوقة)، صاحتْ السجَّانة بعصبية و(بدون طول بال أسأل لمين ها الأغراض)، (إلك، استلميها)، (وين أخي)، (بره)، (إيمتى راح يفوت؟) (ما بعرف يمكن ما يفوت)، (ما مسموحة الفوتة)، (يمكن ما رايد يشوفِكْ حتى ما يتأثر)، إحدى البنات صرخت محتجةً، طلبتْ أن يتمَ إدخاله، والسجانة طلبت منها أن تخرس فالزيارة ليست لها... ناديتُه باسمه، وسحبت الأغراض إلى جانبي، كررتُ النداء وقلت إني سلام، وقد لا يُدخلونه، ولكني أريدُ سماعَ صوته وأخبار الأهل والأصدقاء والأقارب وأخبار الصغار، قلتُ إني بخير وصحة جيدة، وأني مشتاقة للصغار بصورة خاصة... (حكي أخي... حكي أنا سامعة)، لكنه لم يجبْ، سألته: لماذا لا يجيبني؟ وهل هو هنا أم أنه رحل؟. ولم أسمع سوى صوتي، مرةً أخرى وبرجاءٍ حار سألتُ السجَّانة: لماذا لا يجيب؟ قَلبتْ شفتيها، قالتْ كلاماً متناقضاً: "يمكن ما عما يسمحلوا الأمن بالكلام، يمكن ما عم يطلع صوتو ولأنو متأثر، يمكن طلع، راح"... بدأتْ دموعي تسيل وتهدّج صوتي، وشرعتُ بقذف عبارات قاسية بحق مسؤولي السجن والأمن والشرطة، وسارعت رفيقاتي خلف الشبك لإحداث ضجيج يعيق وصول عباراتي إلى حيث لا يجب أن تصل. ما يجري بدا لي محيِّراً، فالزيارات غدتْ منذ فترة متاحة، وكان مقدَّراً لي أن أعانقَ شقيقي وأبكي على كتفه وأمسح دموعه الفرحة والحزينة من أجلي، المفروض أن أستلمَ الأغراض وقد استلمتهم، خطرتْ بذهني فكرة، "سرقوا جزءاً منها"، فليفعلوا ولكن هاتوا شقيقي، سألتُ الشرطي: "كل الأغراض هون؟ ما ناقصين؟ سأتفقدهم"... بدأتُ من جديد مناداة شقيقي، حثثته على ذكر الأغراض التي جلبها لي، السجانة شتمت أبي وأهلي وقالت: "نحنا ما حرامية يا واطية"، ومن ثلاثين فماً نسوياً وأكثر انهالتْ شتائم بدا بعضها سوقياً وغير معتاد لأذني إلا من (سجينات الدعارة)، وخرستْ السجَّانة وخرس الشرطي، بدأتُ

البكاء، فانهالت عبارات التشجيع كي تساندني، وسمعتُ شهقات رفيقاتي حزناً عليَّ، اقتربَ الشرطي مني وكأنه يتفقد الأغراض، همسَ إن شقيقي لا يريد أن يتكلم، هكذا طوعاً، هو بخير وكل شيء بخير، وأخوكِ يسلم عليكِ كثيراً. قال كل ذلك بسرعة، ناديتُه مرةً أخرى ورجوته أن يخبرني إن كان والدي لا يزال على قيد الحياة، ولم أسمع شيئاً، حاولتْ السجَّانة إعادتي فزمجرتْ رفيقاتي، لا زلن مثلي يأملنَ أن أحظى بسماع صوت شقيقي، استكنتُ، صرختُ للمرة الأخيرة، شكرتُه على الأغراض وطلبتُ منه السلام على الوالدين والأشقاء والشقيقات والأولاد... إلخ؛ وسألته مرةً أخرى إن كانوا يمنعونه من الكلام. أخيراً رفستُ الأغراض برجلي واتَّجهتُ صوب الباب لأخبطه بقبضة يدي قبل أن أصرخ: (ما دام ما في شوفة وما في حكي بلا الزيارة كلها)، انفتح الباب ومرقتُ للداخلِ كسهم. هكذا انتهت الزيارة، والمعادلة التي رسمتها وزيرة الاقتصاد بدت مختلفةً، فلقد وصلت الأغراض، ولكن لم أحظ برؤية أو بصوت، كانت زيارة فريدة، محيِّرة، غير مفهومة، وبدوتُ مكسورةً ومهزومةً، طيَبتْ رزان خاطري واجتهدت بصياغة فكرة أن يكون فقَد صوته مؤقتاً بسبب التهاب في الحنجرة، ولكن رنا لكزتها وتنحنحت فمنذ يومين فقط كانت تحدثني عن قريبها الذي فقد صوته وبعدها أُخضعَ لعملية استئصال الحنجرة لسبب خبيث، وتعاونتْ مع حسيبة على إقناعي بأن أُسميها نصف زيارة، فالمهم أنه اطمأن عليّ وسيطمئن الأهل عني، أما اللغز فلا بد أن نكشفه قريباً، ووزيرة الاقتصاد ابتسمتْ وأضافت: (وجاب مونة محرزة كمان). تلك الليلة بدت رزان محبةً وحريصةً على رفع معنوياتي؛ كانت تحاول إبعاد شبح فكرة الحنجرة التي حاولتْ بإخلاص تقديمها كتخريجة فجاءت كاحتمال مصيبة، وشعورها بالذنب جاء مبالغاً إلى درجة تطلَّبتْ مني أن أواسيها وأقنعها باحتمالات أخرى .

كان عليّ الانتظار أربعة أشهر أخرى لأَحظَى برؤية شقيقي وزوجته، وليفهمني سر الزيارة السابقة، فلقد تعرض والدي لنكسةٍ جديدة تطلَّبتْ

إسعافه ومراقبته أياماً عديدة متواصلة، وقد حدث ذلك بتاريخ الزيارة التي استطاع صديق شقيقي الدمشقي تأمينها باسمه الشخصي بوسائلٍ مختلفة وعبر صعوبات جمة، وكان على الصديق الوفي أن يتحملَ مغامرةً كاملةً يدَّعي فيها أنه شقيقي متجنباً إبراز بطاقته الشخصية بوسائل ملتوية مادية ومعنوية طالتْ عدة أشخاص من ضباط وعناصر وصولاً إلى السجانة والشرطي المناوبين لإيصال المؤونة من جهة ولتحقيق الزيارة، فتغيب الزائر قد يُفسرُ بأسوأ التفسيرات التي تغزو السجين في مثل هذه الأحوال، وكان عليه بعد هذا كله أن لا يُسمعني صوتَه كي لا أحتج بأنهم يخدعونني، فهذا ليس صوت شقيقي، فتحدث الطامة الكبرى ويتم الأذى على الأقل في أدنى مستوياته انتحال شخصية، هذا إذا لم تجرِ الأمور مجرى آخر لا يعلمه إلا الله

الآن أروي هذه الحادثة على أنها مغامرة بسيطة ولكنها كانت في تلك الأيام المجنونة السوداء بمرتبة الجنون أو الحماقة اللامسؤولة. العمر يمضي سريعاً، وأنا خارج الجدران، (رُبَّ أخٍ لم تلده أمك)، هذا الصديق فعلاً بمرتبة شقيق، هكذا كان في تلك الأيام الصعبة، وحتى بعدها وإلى الآن، دائماً على أهبة الاستعداد لبذل العون هو وجميع أفراد عائلته وأشقاؤه، حين زرتهم بعد السجن استقبلني الجميع بالدموع والفرح، يبدو فعلاً أني شقيقتهم التي لم تلدها أمهم.

***

خواطر[28]

1- ربيعٌ مبكر

كما رمية حرة قَذَفْتُ حقيبتي المدرسية وأتبعتها بمريلتي وشموعي واختزلْتُ مراهقتي، فبدا العالم لي أمهاتِ كتبٍ وأساطيرَ ورؤى ثورية، وعلوماً عادلةً مركزها وهدفها إنسانٌ أمنيته الحرية، سبله متعرجة، متعثرة، لكنها أبداً صاعدة، منتصرة أبداً بالتأكيد.

***

2- هو وأنا

هو كان كل أمل... وكل فرح

انهمار مطرٍ على مطر... على مطر

همسُ عاشقين في شوارع مغسولة

تألق عينين وخفقان قلبين ورغبات غير معقولة

[28] مقتطفات من جريدة حائط سرِيّة أُخرج بعض أعدادها السرية خارج الجدران العالية

وارتعاشة يدين في تلويحة خطر

***

3- خوف على خوف

أخافُ لو سردتُ حكايةَ أجمل لحظاتنا أن يَخْبُوَ بريقها

أخافُ لو استعدتُ أتعس ذكرياتنا أن يسحقني ألمها

وبين الذكرى والسلوى أحيـا... فتأكلني الأيـام.

***

4- منفى

حزنٌ يُعَشِشُ في كياني، يقظتي ومنامي

منفى يأكل ما رحل وما تبقى من عمري

عمرٌ يذهب بما تبقَّى مني

حلمٌ يولـد في ثنايا عشقي

يتوج رؤىً تسعى لدحر حقيقة المنفى

***

5- عندما يأتي المساء

هذا المساء بدا حزيناً

القمر يختفي خلف غيومٍ كئيبة

ومطرٌ يهطل بتكاسل عجيب

وحبيبي بعيد، بعيد جداً

وأنا مشغولة أحاول بداخلي إخفاءَه من جديد

***

6- مخبأ وزمن

أنت وأنا غيمتان شاردتان. مشردتـان

مساحتـا حزنٍ متلاحق وآلام تدوم

أما من مخبأ من وجه الزمن؟

أما من وسيلة لاستعـادة مسافرٍ بعيد؟

***

7- مشروع لم يكتمل

قصيدتي ممزقة، لوحتي مهشمة على جدار منخور

بسمة ءأنتَ، مشروع ضحكةٍ لا تكتمل

وزَّعتْ حزناً على كل سنيني

هروبي... منكَ... إليكَ...

خلّفَ في أعماقي حلماً ناعماً

وفي عظامي ألماً حارقاً

***

8- حلم

على وسادة بحجم كتاب أسعى كي أغفو

ذكرى وصور تغرقني، تلفني

حلوة... مرّة... مرحة... حزينة... حامضة... لفانة

جميعها، جميعها بعيدة... عميقة... مستحيلة

ينبثق من ركام حلم، حلم يأبى أن يتحقق

حلمٌ مستحيل، اسمه الحرية ...

***

9- قهر

عيناكَ -كما الأبد- بحر عميق

الحزن -اليوم- فيهما أكبر

وسواد ليلتنا -اليوم- حالكٌ أكثر

ضجيج خطواتنا على أسفلت الشارع فضيحة

صمتنا يغلّفُ وحدتنا

ارمِ نظرةً، قل كلمة

فالعين مغرفة الكلام، والدنيا ظلمة

والخوف سيد المكان... سيدنا

ألوذ بكَ... تحتمي بي

أي ملاذ؟ أية حماية؟ أي أمان

رعبٌ... قهرٌ... ومزيد جرعات من هذا وذاك

***

10- العين لا تبكي

حزن المساء كان طاغياً

والزهرة ذبُلت أو تكاد

صمتٌ لف الناس والأشياء

تطلَّعتُ -عبثاً- إلى مدينة خرساء

وحدها النافذة تحدَّثتْ همساً

قالت: أشياء... وأشياء

سالَ دمعي... مسحت وجهي

ما من أثرٍ لبلل

أيقنتُ أن الذي يبكي هو قلبي

***

رسالة إكبارٍ.. متأخرة

أيتها الراقدة تحت التراب سلاماً واحتراماً

الإعصار الذي اكتسحنا جميعاً وصل إلى ذروته قبل أن ينحسرَ قليلاً، ولكنه لا يزال يخيم على بلادنا. فتحتَ التراب غَيَبَتْ العصبية التكفيرية -بالسلاح الأبيض- الزوج والابن البكر، وتكفلت القبضة الأمنية بولديكِ فأودعتهما سجنين متباعدين قبل أن تسوقكِ اليد ذاتها إلى أقبيتها. لا تزال صيحات ألمكِ ولعناتكِ وتحدياتكِ تشق طريقها عبر طبقات الآذان إلى القلوب والوجدان. ولكي تكتمل مسيرة الألم والعذاب بتركيزٍ أعلى وبفاعليةٍ أشد منحتكِ الحياة مرضاً لا شفاء منه، فتصّديت له في السجن طويلاً ولم يتصدَّ له أطباء أو مشافٍ ولم تُقدَمْ لك الأدوية اللازمة التي تأتي في درجاتها الدنيا أدوية تخفيف الألم الذي أصبح لا يطاق، حتى اعتاد شبح الموت طرق نوافذ مهجعنا ليسميكِ بالاسم والكنية فصارعتهِ وصارعناه معكِ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ولكن ذلك ذهب عبثاً خلف عبثٍ، وحين اقترب حتى لامس ثيابكِ وأواخر أيامكِ تم إخلاء سبيلكِ حيث لم يكن بانتظارك سوى جدران منزلٍ نصف متهدم، باردٍ ومهجور، وقف الموت حائراً بين رحمتين لا ثالث لهما. الأولى: أن لا يأخذكِ قبل أن تكحّلي عينيكِ برؤيةِ ولديك وهذا يعني تركك لمرض لا يفتأ يأكل حتى نقي عظامكِ ويذيقكِ مرَّ الألم.

والثانية: إنزال أحمالك وآلامك وعذاباتك بلحظة واحدة وهذا يعني ألا ترين ولديكِ اللذين لا أحد يعرف موعد فرجهما، وقد حارَ الموتُ وتردد حتى غدا الرحيل نعمةً، فرحلتِ عزيزة يا أم كرم .

لطالما بدا حب الوطن هماً جمعنا تحت سقف سجونه ومعتقلاته وغيبنا في غياهب أقبيته وذلك عبر قناعات مطلقة تُعلي الذات وتنفي الآخر تحت يافطات ضيقة أو فضفاضة. وشر البلية أن كلاً من السجان والسجين، الجلاد والضحية، الحاكم والمحكوم يدَّعيان امتلاك الحقيقة كاملةً من دون نقصان.

أنا اليوم أنتمي إلى نمطِ تفكيرٍ آخر يفهم الأمور بصورة مخالفة، عماده البحث عن الحقيقة التي قد تكون موزعة بين الأطراف والخصوم، وأبتعد عن تماهي المفاهيم وتوحيدها وشخصنتها؛ فأدركُ أكثر من أي وقت مضى أن الوطنَ شيءٌ والدولة شيءٌ والحزبَ شيءٌ والزعيمَ شيءٌ والسلطةَ شيءٌ آخر تماماً. وأعلم أن السلطة ليست غنيمة ولا مكافأة ولا رمزية ولا أبدية، إنما مسؤولية مؤقتة محدودة صراحةً بفترة زمنية كافية لبيان مدى تطابق الأقوال مع الأفعال والوعود مع الوفاء، وأن الطريق إليها أو الاستمرار فيها لا يمر عبر القوات المسلحة والفروع الأمنية والمليشيات الحزبية، وأن أمن الوطن ليس ذاته أمن النظام ولا أمن الحزب ولا أمن الحكومة ولا أمن الزعيم. أنا الآن مقتنعة أن الوطن ليس صخراً أو شجراً وليس تراباً أو ماءً، وأن أفضل تجليات الوطن هو الإنسان، ومن يعشق وطنه يُعلي الإنسان فيه، فلا يهديه شعارات طنانة ووعوداً خلابة بل يعمل معه يداً بيد للوصول إلى الكرامة والكفاية والحرية والعدل عبر مشاركة حقيقية في المسار والمصير والقرار والاختيار وصولاً إلى المواطنة بكل أبعادها الإنسانية وحقوقها وأولوياتها: حق الحياة، حق العمل، حق العلم، حق السكن، حق التعبير والتنظيم كما حق الانتخاب والترشيح والخلاف والاختلاف .

اعذريني أمَّ كرم فقد كدت أنسى أنك لن تتمكني من محاورتي كما كنتِ تفعلين ببساطة وصدقٍ نادرين لا أزال متأثرة بهما، وأنا أعلم الآن أني بشخصكِ قد سُعِدتُ بالتعرف إلى نموذج إنساني راقٍ ومُميزٍ، بساطةً، وضوحاً وكبرياءً وشجاعةً وأصالةً، نبلاً وانسجاماً مع الذات والغير .

أخيراً يا أم كرم التي غدت ذكرى غالية عزيزة، ما يمكنني فعله اليوم في زمننا القاحل الصعب ليس كثيراً، أقف احتراماً، أذرف دمعة، أضع على قبرك وردةً، وأبذل لكِ عهداً أن أُحدِّثَ ولديكِ عنكِ وأولادي وأولاداً آخرين.

***

كأنه ذبحٌ.. لكنْ في ليلة القَدْر

تحتَ الأرض، دوماً تحت، حيث لا شمس ولا هواء، لا ليل ولا نهار. بهدوءِ سيلانِ زيتٍ على بلاط يسري وقتٌ بلا توقيت. بدايةً غاب تاريخ اليوم، تلته الساعات، بعدها ضاعت الشهور بيسر، وجباتُ البقاءِ أحياءً صارت معيار الزمن الوحيد. صبايا من كل الأعمار؛ عازبات، متزوجات، طالبات، مهندسات، طبيبات، من أربعة أركان الوطن، من البحر والصحراء والنهر والجبل.

عبر أيام جمرٍ غدونا قاطنات مطوقات بقاطنين. في الأعلى محقِّقون وجلاَّدون وسجَّانون، على يسارنا كومة من أهل اليمين؛ على يميننا كومة أخرى من أهل اليسار؛ افرحن يا بنات، فأنتنَ محاطات بحصنٍ ذكوريٍ متين يستعصي على مناجيق غزاة أو أحبة؛ ومن تحتنا وبين أقدامنا فئران تقودها جرذان، وحشرات تطوف على أجسادنا أو تختفي داخل تجاويفنا وطيات ملابسنا التي غدت رثة. أمامنا مهجع مهيب وزنازين خُصِصَتْ لمن سموهُنَّ عنيدين وحقيرين في طور تكسير العظام أو التدجين. يقابلنا ثقب بابٍ بحجم بؤبؤ عين تشمخ وراءه قاعة التعذيب.

تناوبتْ العيون الأنثوية على رصدِ حركاتِ أجساد يائسة بائسة طائشة، وأطراف مغلولة، مشلولة، جريحة أو نصف ميتة.

تصدَّرتْ سلعةٌ نوعية بوقار أقبية البلاد وأرعبت العباد. نسخةٌ وطنيةٌ

لأصلٍ حملَ خاتمَ بلد المنشأ العريق صناعةً وحروباً وأفراناً بشرية: فتحٌ مهيبٌ؛ إنه الكرسي الألماني الذي عرفَتْهُ وهابَتْهُ وجرَّبَتْهُ الأجساد والظهور والفقرات وخلّفَ دوماً فيها آهات وعاهات.

بشرٌ، بشر: فتيان وفتيات، شباب وشابات، كهول، إخوة، أقرباء، أصدقاء، أحبة، رفاق ورفيقات عرفناهم اسماً أو شكلاً، رفقةً أو صلةً، وهمّاً وطنياً مشتركاً.

ارتدَّتْ العيون الأنثوية دامعةً، امتلأت كلُ الرئات وأصدرت زفرات قهرٍ، فاضت جميعها بلغماً لا يُبتلع ولا يُبصق. يدٌ مرتجفة عجنت قطعة خبزٍ وأغلقتْ مرصدنا. انهدَّت أجسادنا متعبةً؛ ربما توافقنا جميعاً على حجب البصر، لكن أين نذهب بأصوات البشر؟

إن كنتَ تُبصر فتلك مصيبةٌ، وإن كنت تسمع فتلك مصيبة أخرى، أما إذا كنت تبصر وتسمع ما يصنع البشر بالبشر فتلك كارثة لم نستطع استمرار إقناع أنفسنا بتجنبِها، ولم نتحركْ لردع اليد العصبية التي عالجت الحشوة بأظافرها وهي تقسم: أنه صوت زوجها؛ سعاله وأنينه وخواره وشتائمه. "شبابنا يا بنات معلَّقون"... في زمان ما، في مكان ما، رقمٌ على لوحة سيارة بلدية ما... تباً!... إنها ذاتها التي تحمل ذبائح المسلخ إلى قصابي المدينة، (الكلاَّبات) تلتقط الأطراف والأجسام وهي تنوس في كل اتجاه... ليستا نسخة واحدة تماماً؛ ففيها خلافان اثنان: (الجلد غير مسلوخ والرأس غير مقطوع) .

تفجَّر فحيحٌ أخرس عويلاً، وقوفاً وقوفاً، فـ"الأشجار لا تموت معلقةً"، موجةُ أجسادٍ انداحت بجنونٍ جماعي؛ انقبضت الأيدي وانفلتت الأرجل وضربتْ الحديدَ والاسمنتَ، وانطلقتْ بضعة ألسنٍ بشتائم سوقية لم نعهدها في قاموس أيةٍ منا، حتى جاءت موجة كاسحة فردّتنا إلى عمق المهجع بإصابات تراوحت بين جروح ورضوض وآثار جلد؛ إنها

الكابلات الرباعية... نهضتْ رافعة رايتها، وتوسّطَتْ المسافة بين الذئاب والأغنام، أشارت إلى قاعة التعذيب: "أهذه شياه؟.. أهذا مسلخ؟ أما آن لهؤلاء الفرسان أن يترجلوا؟. " أزْبَدَ بَدينُهم، قال: "سيقتلع كلَ عينٍ تتلصص، ويُعطبُ كلَ أذنٍ تسترق سمعاً، وحذاؤه الذي داس للتو غائطاً سيدسه في كلِ فمٍ يجأر". نطقت رايةٌ مكسورة بصوتٍ توشّح بالبكاء: "بالله عليكم، بجاه الأنبياء والرسل والأولياء والقديسين كفُّوا فهذه أجساد من عظمٍ ولحمٍ ودم، أما آن لكم أن ترتاحوا وأن يلعقوا جراحهم ويرمموا عظامهم. أما آن لنا أن ننام." قهقه قصيرُهم: "لن ننام وشعبنا في الخيام". كانت حسيبة بجانبي، رفعتْ صوتاً أدركناه، فأصدرنا ضجيجاً منعَ وصول تفاصيله إلى أصحابه. أجابت: "إذن هنا فلسطينكم وجولانكم واسكندرونكم وهذه خطوط جبهتكم ونحن عدوكم". منذ دخلتْ هذا المكان وهذه لازمتها التي تبوح لنا بها، وكم خشينا وصولها إلى عنوانها. صوتٌ صافٍ صدر من زاوية المهجع البعيدة يعلو، ويدين مشغولتان أبداً بصنع كنزات صوفية تنتهي لتبدأ من جديد، رفع دعاءً مركباً عجيباً منسوجاً برزمة أمنيات وتشفيّات، أصغى إليه الجميع وكأن يداً سحرية دبَّرتهُ؛ تمنَّت لهم ذريةً صالحةً، فتياناً وفتيات بجمالِ أقمار، تربيةَ كلِ شبرٍ بندر؛ ليغدوا شباناً أقوياء ملء العيون وصبايا فاتنات متعلمات حتى يُسلِّط عليهم رب العالمين جلادين شبيهين أو متفوقين، لا يمهلون ولا يرحمون، يستلُّون ماء أجسادهم ويطحنون عظامهم، أمهاتهم تُبصر وتسمع حتى إذا ما حان الأجل قُذفوا بوجوه ذويهم عجزةً أو مرحومين؛ ومن دون أن تتوقفَ يداها عن شغل الصوف، ومن دون أن ترفع بصرها عنه، أردفت: "سنتوصل إلى معرفة موعد ليلة القدر، وحينها ستكرر دعاءها هذا وكلُ دعاءٍ ليلتها مستجاب". صاحبة الدعاء (القنبلة) هي أم كرم، وهي بالهوية: (ابنة الوطن، أرملة خمسينية، المتطرفون الدينيون ذبحوا بالسلاح البارد أمامها زوجها وابنها البكر، وسلطات الأمن أودعتْ ثاني أبنائها وآخر عنقودها في معتقلين

متباعدين، من شغل يديها في سجنها بطرق ملتوية تؤمن بعض احتياجاتهما، إنه عامها الرابع. أَرْعَدَ طويلهم: "بشّرها بالتعليق أو الكرسي الألماني أو كلاهما معاً" ولكنه خرج فجأة وخرج جميعهم خلفه.

بعد ضجيج إرتاج الباب دخلنا في حالة ذهولٍ سحري لذيذ خلَّفه الدعاء الفريد الذي بدا فاعلاً على الجلاد والضحية، ويبدو أن قناعةً شاملةً أسرت عقولنا وساقتنا إلى (طاقة ليلة القدر) فشرعنا التحري عنها همساً وصراحةً حتى بدونا وكأننا دخلنا في حلم جماعي موضوعه صياغة دعاءات انتقامية مبتكرة كدنا ننجزها لو لم تقطعه ميساء التي لا تخذلها النكتة أبداً، اقتحمت خطوطنا المشغولة بحالةٍ جدية، ونجحت باستبدالها بحالة أخرى؛ لدرجة أن بعضنا لم يتمكنْ من حبس ضحكاته على الرغم من قساوة اللحظة وظروف المأساة جوارنا، قالتْ إنها تخشى أن يتم اعتقال ليلة القدر وهي في طريقها إلينا، وقد تُقاد إلى الدولاب أو الكرسي الألماني، وقد تجرِّبهما معاً .

***

يوميات إضـراب

بدَتْ الهمةُ عاليةً والتفاؤلُ على أشده في اليوم الأول لإضرابٍ عن الطعام، لا بدَ أن إدارة سجن النساء ستهتم، وتلبِّي كلاً أو بعضاً من طلبات السجينات المتواضعة وغير المكلفة: أكلٌ نظيف مقبول، طبابة ودواء بالحدود الدنيا، حل إشكال الاكتظاظ العددي الذي غدت تنوء به المهاجع والمراحيض وساحة التنفس، وأخيراً، السماح بالزيارات -دوريةً أو شبه دورية- لأقارب الدرجة الأولى على الأقل .

بدتْ الأمور في اليوم الثاني للإضراب وكأنها على حالها من حيث المعنويات والثبات على الرغم من بعض الشحوب الذي علا بعض الوجوه المصممة على المضي قدماً.

في اليوم الثالث للإضراب ظهر الوهنُ على الأجساد المتحركة بتثاقلٍ لافت، لكن الأمل ما زال يعشِّش في النفوس.

تنقلت السجينات بمساعدة بعضهن أو بمحاذاة الجدران في اليوم الرابع والخامس؛ أما التفاؤل فقد بدأ بالتضاؤل.

عجزتْ أكثرية المضربات، في اليوم السادس عن السير، واضطررن للجلوس أو الاستلقاء وشغلْنَ أنفسهن بالحديث بأصواتٍ أقرب للهمس

مر اليوم السابع والثامن والتاسع، وغزا اليأس القلوب والنفوس وترنَّحت

الأجساد وأغميَّ على بعض المضربات، وأدى التوتر إلى خلافات لسانية لأسبابٍ سخيفة، إلا أن التعب والمرض تكفَّلا بحسمِ الأمور .

قامَ مدير السجن -في اليومين العاشر والحادي عشر- بجولةٍ على المهاجع، ولم يُكَلفْ نفسه التحدث معهن أو استطلاع أوضاعهن المزرية، ولم تتمكن أي منهن من صياغة جمل مفيدة تدفع بها الموت الزاحف أو تحفظ ماء الوجه .

بدا واضحاً في اليوم الثالث عشر كشمس، أنّ الإضراب الذي يأكلُ أجسادَ وأرواح المضربات لا يعني أحداً غيرهن. عند الظهيرة استُدعيتْ الحكمةُ من أعماق العقول، وبعد اجتماع قصير ومناقشة أقصر وقناعة أكبر أعلنت المضربات إنهاء الإضراب، وفشلَت محاولة تحويل السجن إلى مكانٍ أقل سوءاً، ومرة أخرى انكسر الإنسان فينا وانتصرت القسوة.

***

لم يرغب الله باسترداد أمانته

ميادة أشدنا مرضاً، وأكثرنا عنايةً بنا، وأعلانا تحصيلاً علمياً ومنصباً أكاديمياً. الجميع يقول: تقطع من الضعف قوة. من أين تأتي ميادة بالقوة، تُسجل أسماءنا بين المرضى، وتُنقل للمشفى فقط بحالات إسعافيه، وعندها نخشى مصارحة ذواتنا أننا قد لا نراها ثانية، كانت تجد القدرة والجرأة على إفحام المحققين والتصدي للجلادين والسجانين، وتستنبط حلولاً لأكثر المسائل تعقيداً.

عند الإفراج الأول عنها افتقدناها حتى إننا اعتقدنا معها أن عودتها جاء تلبية لرغباتنا الداخلية. عندما جاءها الإفراج الثاني حذَّرنا بعضنا ومنعنا عنا اشتياقنا واحتياجاتنا لها كي لا نستعيدها، وواظبنا سؤالنا عنها خشية أن نفقدها نهائياً.

حينما تُبَشَّرُ هيفاء بزيارةٍ ينتابُها فرحٌ مجنون تعبِّرُ عنه بحملِ ميادة بسهولةٍ لافتةٍ والدوران بها حول البحيرة. تهتف: جِلْدٌ وعظم، جلد وعظم، ما في لحم، ما في دم .

تحاضِر بنا ميساء: ميادة أكبر برهان أن الفكر والروح أوزن من الجلد والعظم واللحم والدم في الإنسان. عندها تسافرُ روحي إلى شقيقي الثالث خلف الأسوار. يقول ضاحكاً: إن الرجل كي يكون رجلاً ينبغي أن يكون

وزنه أكثر من /60/ كغ. ودائماً كنت أساله: وماذا بشأن الإناث؟. أعتقد أن وزن ميادة لم يتجاوز حينها 35 كغ.

يميل لون وجهها ويديها وساقيها للاصفرار تدريجياً ليتسلل البرتقال إلى بؤبؤي عينيها، وحينها تنطق أعيننا: دم... "ميادة لازم تاخد دم". ونعرِضُ دماءَنا بزمرها المختلفة. وحين تُسعف لا تكفيها الأكياس الأولى، وكانت تحتاج لأخرى لاحقاً. قوتها الداخلية تكاد تضفي عليها جمالاً خاصاً يفرض نفسه على الصديق والخصم والمراقب والمحايد، حين يجري الحديث عن فلسطين والمقاومة والعمل الفدائي واجتياح لبنان وتل الزعتر نُدركُ أننا بمواجهة ظاهرة إنسانية استثنائية، ولكنها أشد حالاتها البشرية تواضعاً وصفاءً وغيريةً ونقاءً. اتَّبعتْ دورتيّ عملٍ فدائي قتالي وإسعافي، وانخرطت في مشروع شهادة كان عليه أن يقفو أثر دلال المغربي وسناء محيدلي ولولا عبود وحميدة الطاهر، الاعتقال خرَّبَ عليها نواياها ومشاريعها وتعبها الساعي نحو الأرض المحتلة لتعانق أديمها .

تصف الدكتور جورج حبش عند نزوله من الباخرة التي أقَّلت المقاتلين المُبعدين عن بيروت، وآثار ضربة (جلطة دماغية) على جسده والضربة الإسرائيلية العربية على روحه، وصديقها الذي فشلت الشظايا بتكسيره وتكفلت الهزيمة بتمويت قلبه وأحلامه، وقريبها الذي تبخر أمام عشرات العيون بقذيفة متطورة فحَّمته وأحالته رماداً. بعد صمتٍ غاضب حزين مستسلم -لا تقطعه أية منا- تخلص إلى استنتاجات سياسية تتمحور حول الأنظمة العربية التي هزمت شعوبها بدل إسرائيل وخسرتْ أراضٍ جديدة بدل استعادة المفقودة، وتعلن أن عراضات الشعارات القومية والوطنية والطبقية ابتلعت حقوق البشر وإنسانيتهم وجعلتهم قطعاناً هتّافة خنوعة راضية بالذل والعار. ووجب على أبو عمار أن يقاتل إسرائيل من تونس واليمن، وعلى الدكتور جورج أن يعتذر

لمئات المقاتلين الأمميين الذين وفدوا لينتصروا للأرض والإنسان والزيتون فحصدهم رصاص العرب قبل رصاص إسرائيل، تحاولُ ختم حديثها، فتطلب سيجارة على طريقة الشحاذين المحترفين، فتحصل عليها بصعوبات مركبة وطرقٍ ملتويةٍ، وبعد زفيرها الدخانيّ تزوِّر حكمة سعد الله ونوس فتقول: "نحن محكومون بالهزيمة واليأس ."

خلال دراستي الجامعية ونشاطاتي الاجتماعية ومشاركاتي بفعاليات سياسية مختلفة لم يسبق أن التقيت ميادة، وقد استغربتُ ذلك، فقد كنا نتحرك تقريباً في مجال حقلي واحد، يبدو أن الحياة وفَّرت لقاءَنا إلى حين اعتقالي.

بدأتْ مسيرتنا المشتركة بتحركنا في سيارة أمنية واحدة لنقلنا من عاصمة الشمال إلى عاصمة البلاد حيث الفرع الأمني سيء الصيت الذي أسمته ميادة "فرع النكبة" ومنه إلى سجن دوما النسائي.

لطالما سدَّت رفقة ميادة وسعة صدرها وقوتها الخفية ثغرات واحتياجات في لحظات ضعفي الإنساني المشروع في مواجهات قاسية كانت تفاجئني وتكاد تطحنني، أعتقد أنها الوحيدة التي اعتدتُ محادثتها وكأني أُحِدثُ نفسي؛ فأتلو عليها مونولوجاً داخلياً سرياً .

بيني وبينها مسافة عمرية قدرها عشر سنوات، بتُ أخشى نقلها إلى مكان آخر، ثم خشيت أن يُطلقَ سراحها وأبقى في زنزانتي وحدي. لُمتُ نفسي حين ساء وضعها الصحي وتمنيتُ لها إفراجاً استثنائياً سريعاً قد يحفظها بعيداً بدلَ بقاءٍ سائرٍ إلى زوال سريع في سراديبنا الملتوية وجحرنا الحالي، وبلغ الأمر بي أني لم أعد أشك بأن خاتمة تراجيدية تنتظرها وتنتظرني.

صباح الثلاثاء بدا أنّ ميادة تغذّ السير بثقة ملكية نحو الهلاك، ولم يبق سوى خيط أمل رفيع كان يهدهدنا ويهدئنا، فـ(ميادة) هزمتْ الموت مراراً وهي لا تزال تتحلى بالجهوزية العالية ذاتها، فهل تفعلها مرة أخرى؟

ما أزال حتى الآن أستعيد مبادراتها وتصرفاتها التي تجترحها من صلب الأحداث والأجواء الثقيلة، الدموية، المجنونة، حين علقوا رفاقنا من الأيدي والأرجل شلّنا الخوف على آلامهم وحياتهم، وحدها ميادة تماسكت وبدأت بخبط الباب قبل أن يعلو صوتها، أصرَّت على طلب الضابط المناوب، أخذتْ تصرخ وتبكي، وعملنا على تهدئتها قبل أن ننضم إليها صراخاً وعويلاً وخبطاً على الأبواب بقبضاتنا وبالعلب البلاستيكية، حين جاء الضابط كاظماً غيظه واضطرابه، مسحت دموعها وهَدَّأَتْ صوتها وحاولت استفزاز ضميره .

قالت: "شوف يا ابن الناس، هدول ما خواريف للذبح، هدول بني آدميين متلك، ومتلك عندن أهل وزوجات وأخوات وأولاد". وعندما أعادوها من حفلة تعذيب محمولةً، تماسكتْ بعد ساعة استلقاء مريح وسطنا لتعلن اكتشافها أن الإنسان بإمكانه احتمال الضرب أكثر من حمار، وعندما اشتد اكتظاظ المهاجع ولجأنا للتسييف[29] كانت تعزي نفسها والآخرين: "سعرنا بسعر سمك السردين هوي خلقتْ الله ونحنا كمان". عندما وضع الجلاد سكينة على رقبتها وبدأ (الحز) لفتت نظره إلى خطأه، إذ أنه يفعل ذلك بالطرف غير الحاد، وقد دُربت على ذلك في معسكر التدريب الفدائي وتنبهت إلى أن الصهاينة إن ظفروا بها أسيرة فقد يفعلوها، ولذا عليه إما ذبحها أو تركها. قالت: إنها فهدة وليست نعجة.

دائماً عشية تولي حسناء (السيريلانكا)[30] "تحط ميادة الحزن بالجرن"، تنكش النكد من تحت أظافرها، تستهدف تقتير حسناء بالمواد الأساسية المؤممة المشتركة، تمسح شعرها، تلاطفها، تتوسلها (فَرْدَ

[29] النوم على الجانب رأسا لرجلين وظهراً لبطن
[30] خادمة أو مدبرة منزل

يَدِها)[31] قبل أن تقسم أن مائة مسطرة على سلاميات أصابع حسناء لن تنجح في فتح يدها، وحين تستلم حصتها من الشامبو بغطاء القنينة تعمل (فضيحة بجلاجل)، تهرول بيننا، تُرينا النصف الفارغ. تهتف: "نصف غطاء شامبو يا ناس، المسرفون إلى النار يا ناس" تصنع أهزوجة، تُلحِّنها، ترقص بحصتها الشامبونية، وفي إحدى المرات ستقوم بالبرهان على بخل مروَيٍّ جاحظيٍ حسناويٍ حين ستكسب حصتها في عينها على أنها لا تكاد تكفي كقطرة عينية .

تبّدى حماسها في ذروته عندما انخرطنا في حملة المطالبة النشطة بالسماح لنا بتقديم فحوصنا الجامعية -ولو بالقيود- مع تنظيمٍ لاستجرار المقررات والكتب بطرق مبتكرة عن طريق الزيارات ومتعهد الأرزاق وبعض الشرطة، وبعد الفشل الذريع الذي أخذ شكل خذلان أثيم قررنا "إلحاق الدلو بالحبل"[32] فتحولنا للمطالبة بالمطالعة داخل السجن، ميادة استحضرت حكمة (من يقرأ لا يهزم) لم تفوِّت ميساء حكمتها، واستنكرتها. "ما خرب بيتنا إلا القراءة". قالتْ: "هزمونا وهزموا أهالينا وميادة لم تتراجع، الآخرة يا فاخرة ."

نقاشات انطلقت حول السلطة والتغيير وإسقاط النظام، قالت ميادة إننا مجانين، كل الأحزاب الثورية مجنونة. انشغلتْ بالأداة وتجاهلت الناس، الناس هم الأساس، ماذا يريد الإنسان؟ توجهت إليّ: ماذا تريد سلام؟ فكرتُ قليلاً، قلت: أريد أن أعيش، رفدت جومانا كلماتي: "بكرامة، بحرية، بكفاية، بعدل". بقي النقاش مفتوحاً على المجهول.

صباح اليوم الثاني أعدنا تعريف مفردات بديهية بتعمُّق أكبر؛ الوطن، الحزب، الإنسان، القائد، الجيش، الأمن، الحكومة، مجلس الشعب،

---

[31] كرم
[32] متابعة خسائرنا

القضاء، وخلصنا إلى أن المصائب تبدأ ولا تنتهي مع تماهي الوطن والقائد، الأمن والجيش، الحزب والعقيدة والتداخل (المخلوطي)[33] بين السلطات الثلاث؛ ليبقى الإنسان المسكين بلا حقوق ولا حريات ولا سلام ولا أمان. تساءلتْ ميادة: "هل يمكن الحفاظ على الأوطان، وما قيمة الأوطان بلا إنسان؟". بعد يومين تلقينا إشارة مشجعة من مكتب العقيد ففتحنا ملفنا النضالي السجني للوصول إلى مكتبة السجن، وبعد أقل من شهر وافق مدير السجن على استقبالنا فانتدبنا للمهمة خمساً منا، وعبر حوار هادئ أوضحنا نوايانا الحسنة وأبدى الضابط تفهمه قبل أن يقول إنه ليس صاحب قرارٍ فنحن لديه برسم الأمانة لصالح الفرع الأمني المختص، إلا أنه يعد برفع طلبنا مدعماً بموافقته نظراً لحسن سلوكنا، هنا بالضبط هنا، أي بالفسحة الزمنية التي أعقبت انتهاء كلام العقيد حدث ما لم يكن بالحسبان، وسيكون له عقابيل وحرمان، فالطبيعي كان أن نقوم بشكره على أريحيته ونحشِمه بتأمين طلبنا البسيط هذا، وهو سيكبس الجرس ويطلب الشرطة ليعيدوننا إلى مهاجعنا حيث سنقص على رفيقاتنا سير مقابلتنا وحصيلتها ولنحلم معهن بالكتب والروايات التي تحتفظ بها مكتبة السجن التي شكَّلتها المنهوبات والمصادرات من بيوت المعتقلين من اليسار واليمين والتي لم تجتذب عناوينها أعين ضباط الأمن فعفُّوا عن الاستيلاء الشخصي عليها .

ما حدث بالضبط هو تماماً عكس كلمة "وغطاها واللخر بلاها" وهو شعارنا وسلوكنا بمواجهة التحقيق والتدقيق، فالجواب على قدر السؤال وأقل، لأن استجرارك لكلامٍ أكثر يعني تعرضك لأخطاءٍ وأخطارٍ أكثر، "والكلام من فضة والسكوت من ذهب". ماذا حدث؟ الذي حدث جاء بمنتهى السخافة والغباء اللذين لن تغفرهما ميادة لنفسها زمناً

[33] نسبة إلى أكلة المخلوطة الشعبية

طويلاً، والذي أحدث لديها ولدينا أزمة مكعبة حرنا بكيفية تصريفها لتبقى في الذاكرة النكتية لسنوات ما بعد السجن مستدعيةً أشد الضحكات ضجيجاً، فـ"غلطة الشاطر بألف". قوَّمت ميادة ظهرها ونطقت بحكمةٍ سقراطية كمن تحاضر على مدرج الكلية، "أنت تعرف يا سيادة العقيد أن من يقرأ لا يُهزم". من هول المفاجأة أنا شهقتُ، ولم أعد أذكر بعدها إن كنت قد أرسلتُ بعدها زفيراً. افتعلتْ جومانا سعالاً طويلاً حتى الاختناق، أما رفيقتانا الأخريان فقد شارفتا على الإغماء، أما الضابط الذي يبدو أن كيله طفح بهزائم الحدود والجغرافيا والتاريخ المرصعة بثقوب التخلف والفقر والتهميش... ولم يعد قادراً على تمرير هزيمةٍ أخرى قد تُلحقُها به مجموعة سجينات رأي مسكينات ولا سيما أن وزن من تعِدْ بذلك هو دون وزن الذبابة. والعقيد أمطرنا بسيل من مفردات الإدانة والشتم والإهانة والسخرية والتحقير والتصغير وصولاً للطرد والتدفيش واستدعاء رجال الشرطة لسوقنا بالكرابيج إلى مهاجعنا. وميادة ستدخل دهليز كآبة ولوم وتقريع وسخرية من الذات وستصفع نفسها مرتين قبل أن نمسك يديها، أقفلنا الدائرة حولها وسلكنا إليها درب تهدئة وتخفيف وعرة، وأعلنا استغناءنا عن المكتبة والقراءة، وقالت وَجْد: إن الرسول كان أمياً، وأن العرب الأميين أزالوا ثلاثة إمبراطورات قارئات كاتبات متحضرات. هتفت سميرة: "تسقط القراءة" ولم نستعد ميادة، وأصابنا هلعٌ حقيقي ودائرتنا اقتربت منها حتى لامستها، داهمنا وضعها الصحي وشحوبها وحركتها المتباطئة، وهمست دكتورة رنا بإذني، ووقفت حائرةً، فجأةً وجدت حلاً، لكنه حلٌ أعرج، فـ(ميادة) اختصمت مع مَنْ روحها وعقلها قادران على تحقيق اختراق أمثال هذه المآزق والزلّات والحالات وذلك بسبب سياسة توزيع أطعمة ومنظفات الزيارات المشتركة المؤممة والموزعة على أيام الأسبوع بشكل فج، وجاء الحل مفاجئاً وساراً فقد سارعت ميساء خصمة ميادة اللدودة واندسَتْ بها، قبّلتها: قالت مُناكِدةً ونصف

ضاحكةً: " سياسة الإطعام يا ميادة تبعك ما بتمشي إلا على جثتي". وأردفت: "صرعونا بذكائك، طلعتي غبية متلي ويمكن أكتر". شرعت رواية قصةً وأتبعتها بأخرى بينت بوضوحٍ لحظات الغباء التي تصيب الإنسان أحياناً، تحدثت عن جدها أحد وجهاء المدينة عضو الكتلة الوطنية في الخمسينات الذي يمتلك علاقات إنتاجية واجتماعية مع ريف المدينة وأطرافها الصحراوية بعشائرها المختلفة، وقد اصطحب ابنه الصغير في جولة دعائية انتخابية لصالح المرشح هاني السباعي، واعتاد أن يفتتح المهرجان بآيات من الذكر العظيم يتلوها ابنه الصغير، وأصاخ السمعَ البدوُ ومشايخُهم بانتظار آيات الله البينات، حيث قام الطفل بفتح الكتاب كيفما اتفق وشرع بقراءة سورة التوبة حتى وصل إلى "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم" ثم أتبعها بالآية الثانية: "ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء والله سميعٌ عليم". وشرع المشايخ بالتململ والضيف بالحرج، ولكن ما حدث حدث، حين ودَّع مشايخ العشيرة ضيفَهم طلب دعمهم وهمتهم، فأجاب أحدهم أن على هاني بيك أن يبحث عن ناخبين أقل كفراً ونفاقاً، بعدها امتدحت ميساء ذكاء أحد أقربائها الذي لم يمنعه من إحراق إحدى كازيات المدينة؛ فقريبها يحاول منذ أسبوع أن يجد الوقت المناسب لإحراق (شرشوبة) خيطية في حذائه الرياضي الجديد ولم يحظَ بهذه اللحظة إلا عند اقترابه من خزانات البنزين؛ ليكلم صديقه ابن صاحب الكازية حيث انحنى بقداحته ليتخلص من (شرشوبته)، انفجرت الخزانات واحترقت ثيابهما وجلودهما وبقيا حيين بعد المشفى بأعجوبة .

خرجت ميادة بدواءٍ صحية قبلنا، واظبنا الاهتمام بأخبارها، وخشينا فقدانها، عانت مثلنا أو أكثر، ومعاناتها خارج الاعتقال استمرَّت بوجوه أخرى، باستدعاءات دورية وتحقيقات طيارة، واستمارات دراسية

ومساومات سياسية، وهمّ العلاقة مع الأهل والأقارب ورعب الجميع ممن ليس بوسعه أن يستريح أو يريح، أدركت معها في جلسة جمعتنا معاً أن المراقب عن بعد لتجربتنا السجنية ركَّز علينا واهتم بمسيرتنا ومصائرنا، لكن أحداً لم يلحظ مسيرة ومعاناة ناسنا، أهلنا وأحبتنا الذين ساروا على الشوك ليسمعوا معلومة صغيرة عنا، وتعرضوا لإهانات وذل لم نعيه إلا بعد خروجنا. وقصصنا التي بدت لهم مرعبةً رأيناها جزءاً من معاناتنا المشتركة وإياهم. قالت ميادة بجدية: "إنها تحنّ لأيام الجدران الأربعة والأسوار العالية وبطن الغولة"[34] ونعّتتها بـ (المازوخية)[35] ولكنها

فسرَّت: "إنها الآن لا تشعر باحترام الذات كما آنذاك" وأوضحت "إننا رددنا الإهانة والعذاب بالصمود والمقاومة، والآن الإهانات يقابلها الجميع بالصمت والمقت والتحوير وأحياناً التهريج"، لم ولن تستعيد ميادة عملها أبداً، ولم تحصل على أي تعويض، وكان عليها أن تعيش على حافة الجوع لولا بقية تضامن أسري، لم تتمكن من إيجاد عمل بسهولة .

كانت تشرح أنها تريد عملاً من أجل العمل وليس كي لا تموت جوعاً، وفي النهاية وافقت على عملٍ بسيط أَحْيَتْهُ وجعلته فاعلاً وهاماً وأحبّته

وانتفع أولي الأمر بضرورته، وذلك في إطار مؤسسة صحية فلسطينية إنسانية. وهذا ما فعلته بـ(الجحر) الذي سكنته بالإيجار لتملكه بمساعدات أسرية أولية وتحوله إلى قطعة فنية ترتاح لها النفس والعين والروح. قلتُ لها على سبيل المديح أنها تحيل الظلمة إلى نجمة ومن لا شيء تصنع شيئاً. أجابت: "بعدك يا سلام على نياتك، ايمتَ راح تعرفي

---

[34] عوالم الاعتقال والتحقيق والتعذيب والسجن
[35] لذة تعذيب النفس

أنو من الطز ما بتحسني تساوي مرحبا؟."

انتقدت إلحاحاتي المتكررة بالسؤال عن صحتها، وطمأنتني أنها (بنصف) خير، ولكنها (سنكة طق عند الطلب)، ولعل ربها على ما يبدو غير متعجّل على استرداد أمانته... ميادة لا تُنسى.

***

ترسم وتحلم وتنتظر..

أتمَّت ريم الرابعة عشر وحصلتْ على شهادة الكفاءة، فكُوفئتْ بتهمةٍ أصولية أودتْ بها إلى اعتقال قادَها عبرَ زواريب وأقبية وتحقيقات وعذابات إلى سجن النساء، وفيه سياسيات يساريات ويمينيات، وفيه قضائيات (قاتلات، داعرات، أو محتالات).

كبرتْ في السجن وغدتْ صبيةً جميلةً لم تنقصها الفطنة أو الحكمة، فعملت بتلقائية لافتة وجعلت الصعبَ ممكناً، حيَّدتْ السياسة وألحقته بنبذ كراهية الأغيار، وحدَّدتْ التزامها بحدود أداء الواجبات الدينية اليومية قبل أن تجاهر بعشقها للطبيعة والأساطير وميلها منذ الطفولة للرسم، قرأتْ مكتبةَ السجن وكل ما وقع تحت يدها من صحف ومجلات ومخلفات الزيارات قبل أن تجتاحها رغبات الرسم العاصفة فرسمتْ غيوم السماء وشجرة الباحة اليتيمة والنوافذ العالية والشمس والقمر والنجوم؛ لتتحول بعد حصولها على قلم فحم جيد إلى رسم وجوهنا بطريقة خلبتْ ألبابَنا، فوجوهنا بدتْ حقيقية ولكن مضروبة بنسبة جمالية قد تتعدى الضعف وذيلتْها بالتاريخ وتوقيعها.

رسمت بعدها قيس وليلى، وروميو وجوليت، بصورة مبتكرة وطريفة، وأتبعتها برسم خيالي لـ(هيلين) المطلة على حصان طروادة، ثم فاجأتنا بوجوهِ جورجينا رزق وميرفت أمين وحسين فهمي ونور الشريف، ذهبت

(القضائيات) لملاقاتها، فهنَّ ميسورات ومرحات وقد أصررْن -لقاء رسم وجوههن- على الدفع نقداً أو عيناً، وكانت غالباً ترفض وأحياناً تقبل بعد إقناعنا لها.

كان الغمز واللمز من قناة الرسم والنحت والانفتاح قد بدأ مبكراً من قبل السجينات المتزمتات وازداد العتب حتى وصل التهديد والوعيد، تعاملت ريم مع هذا الأمر بهدوء لافت توَّجته ذات صباح ربيعي بكشف شعرها ولف حجابها على عنقها، بعد أسبوع ارتدت بنطال جينز وبلوزة خفيفة وذرعت الباحة وممرات المهاجع مع مذياعها الصغير وصوت فيروز الذي يشدو بأغنية "مشوار" التي أثارت لغطاً أصولياً انتهى ببلاغ: "لا نعرفك ولا تعرفينا، لسنا منك ولست منا ."

لطالما كانت ريم قريبة من قلوبنا وعقولنا رغم الانتماء المختلف، فهي الأصغر والأجمل وصاحبة الموهبة المميزة، حينَ كنا ندخل سوية معها إلى عالم الأحلام والأمنيات كانت ريم تعرف ما تريد. تجيب ببساطة: "باستثناء الإفراج ترغب بثلاث: شهادة الثانوية، كلية الفنون الجميلة، أمير على حصان أبيض" وكي لا تُفهمَ خطأً تُفسِّر: الأمير شابٌ قوي وجميل مثقف ميسور، أما الحصان فهو مرسيدس سياحية حديثة بيضاء حكماً، تغمز بعينيها وتتساءل: "صعب مو هيك؟."

حين زُجَّتْ فتاة الإعلان ذات العينين الخضراوين المشهورة بإعلان مبيض الغسيل التلفزيوني في سجننا -بتهمة الدعارة- رسمتْ وجهها بالألوان التي أحضرها أحد ضباط السجن على جناح السرعة، وكرَّرتْ ذلك حين احتفل السجن بمقدم النجمة المصرية المشهورة في عالم السينما بتهمة حيازة المخدرات، وعند خروجها قبلَّتْها ودعتها لزيارة القاهرة بعد الإفراج فقد تصبح نجمةً سينمائية أو فنانة مميزة في مجال الديكور.

تعرضت ريم لأمراض مختلفة غير خطيرة، فاستدعى هذا الأمر ترددها إلى المشفى الحكومي، فكانت تعود منه دائماً مكسورةً ومستسلمةً لترسمَ أبواباً ونوافذ فولاذية نصف قضبانها مكسورة أو ملتوية، وأسواراً عالية بثغرات مختلفة الأحجام تمرّر فأراً، أرنباً أو جملاً. عند الزيارات تخبو كشمعة في آخر ذوبان لها، أضاعت ريم أحلامها الثلاثة بالشهادة والكلية والأمير واستبدلتها بأمنيات متواضعة وحيرة مشروعة .

أمنياتها أن ترى أمها، ويتعافى أبوها، وتحضن ابنة أختها التي وُلِدتْ بُعيدَ اعتقالها. أما حيرتها فمفادها: "إن خرجت هل ستكون كما دخلت بالحجاب أو النقاب أم كما هي الآن بالبلوزة والجينز وبلا حجاب؟."

تسقَّطتُ أخبارَ ريم بعد (الجب) فكانت التالية :

- حُكمتْ بالسجن لمدة أربع سنوات وأفرج عنها بعد ثمان سنوات .
- تخرَّجتْ من كلية الحقوق .
- التقت مع زميلات السجن على شاطئ البحر واستعدّنَ واستعادت معهن ذكريات إقامة (تنذكر وما تنعاد) .
- قسمتْ البيدر بالنصف؛ ففي مدينتها تضع الحجاب وتلبس البلوزة والجينز وتنزع حجابَها عندما تغادر المدينة، سبحتْ بالبحر بالثياب ولكن من دون حجاب، ولا تزال ترسم وتحلم وتنتظر.

***

ألا يمكن لهذا الوطن أن..

رنَّ جرس الهاتف وتحدَّثَ صوتٌ أنثوي مرتبك أعلن أنها الآن ضيفة المدينة وسألت عن العنوان، رنَّ جرس الباب وفُتح فدلفت امرأة ثلاثينية بجلباب أسود ونقاب أشد سواداً تبعتها طفلة جاوزت العاشرة من عمرها، أغلقتِ الباب خلفها واستندت إليه وأظهرت وجهها، "أنا من طرف أختك سلام"، نادى صاحب المنزل زوجته ورحَّبَ بالمرأة ودعاها للدخول، وكرر ترحيبه بسلامة وصولها، قالتْ إنها تحمل من سلام أطيب التحيات وأغزر الأشواق وأنها بصحة جيدة، وناولته لفة متواضعة فتحها فظهر فيها جزدان خرز ومصنوعات سجنية للأطفال، جاءت الزوجة وقبّلتها، قالت إنها جميلة كابنة حميها سلام وسألتْ إن كانت رفيقتها؟. ابتسمت وأكدت أنها زميلة سجنها ومعاناتها منذ ثلاث سنوات وقد خرجتْ منذ أيام، وأشارت للطفلة: "كان عمرها تسعة أشهر". سألتْ الزوجة عن أبيها، أجابتْ المرأة بهدوء متصالح مع الذات "الله يرحمه، لولا لطف الله كنت رحت أنا معه كمان"، ترحَّم الزوجان عليه وعلى موتى الجميع، قالتْ إنها وسلام بحكم الشقيقتين رغم انتمائهما لمذهبين مختلفين وعقيدتين سياسيتين مختلفتين. شربتْ القهوة وشجّعت الطفلة على احتساء شرابها وابتسمت، قالت "بنتكم حقانية وعادلة وصادقة وبنت حلال"، ضحكت وذكرت "حين اقتسام شيء بيننا نستدعي سلام للقسمة"، تنبَّأت بإفراج قريب يتحدث عنه

الجميع مؤخراً داخل السجن وخارجه، ربتت كتف ابتنها إشعاراً بانتهاء الزيارة. استهجنت الزوجة قصر الزيارة ودعتها للمبيت. اعتذرت المرأة وأصرَّت على العودة إلى حلب بآخر باص، وقبل أن تنهض للوداع أفادت أنها تقصَّدت ترك معظم أغراضها بالسجن ذريعةً لزيارة قادمة، وأبدت استعدادها لحمل كل ما يريدان إرساله إليها (أغراض، رسائل، أكل... إلخ) .

خلافاً للعرف مدَّت الزائرة يدها لمصافحة الزوج، قالت مبتسمةً: إن أخا سلام هو أخوها أيضاً. احتضنتْها الزوجة وقبَّلتْ الطفلة وجدَّدتْ رجاءَها بالمبيت، شكرتها الأخرى وتركت عنوانها ووصفت طريقة الاتصال بها .

بعد التحديق بالعين الساحرة للباب وإلقاء نظرة من النافذة لضبط خلو الشارع انسلَّت الزائرة خارجاً. لاحقاها بنظرهما ولوَّحا لها وللطفلة مودِّعين، التفتت مرة أخرى وأزاحت جزءاً من نقابها عن وجهها، ابتسمت وأشارت بيدها مودِّعةً .

تحدثت الزوجة عن انطباعها وتأثرها وشوقها الشديد لـ(سلام) التي كانت مرافقتها الصغيرة الدائمة خلال سنوات زواجهما الأولى، وتساءل الأخ بحيرةٍ وحرقة: "كيف يمكن أن يتسع السجن على صغرهِ لأبناء الوطن وبناته على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم في حين يضيق الوطن على اتساعه بهم بذرائع بغيضة تعتمد التخوين والتكفير وسيادة مفاهيم السلطة الأبدية والمنصب الأبدي والسجون والمنافي الأبدية والرعب الأبدي والخنوع الدائم وغياب حق الإنسان بالحياة والتعبير والعمل والانتخاب والترشيح وتكافؤ الفرص، ألا يمكن لهذا الوطن أن يتسع للجميع تحت سقف القانون ومقولة الأجداد "الدين لله والوطن للجميع "، ألا يمكن للمواطنين أن يكونوا أحراراً في وطنٍ حر؟ .

***

عـروض زواج.. وعرض إفراج

جاءت الحملة الثالثة. أصبحنا نعرف كنهَها وخط سيرها وتعرجاتها ومآلها. إيعازات بجمع الحاجيات، أوامر بالسرعة تنفيذاً لتعليمات. وداع رفيقات وزميلات، ركوب حافلة بشبك فولاذي وقيود فولاذية وارتباك في الصعود والنزول وتعليقات سخيفة أو فاجرة وانطلاق في شوارع العاصمة ورؤية الناس والمحلات واللافتات والآرمات وأزياء النساء والواجهات الأنيقة وحركة الناس العادية إلى درجة تثير فينا يأساً وغضباً .

تمَّ نقلنا هذه المرة بحافلة عادية مدنية معقولة بنوافذها العادية، ولكن بقيودنا العادية أيضاً. قال شرطي مدني: "قدْ يُطلق سراحكن". أجابته هدى: "وأنت قد تأخذ إجازة". ابتسم وسألها: "كيف تعرفين؟"، أجابته: "وأنت كيف تعرف؟". استأذنت ميساء الشرطي بالذهاب للخلف فتردد، فقالت له إنه لطيف ويذكِّرُها بابن خالتها، وأن وجهه يوحي بطيب قلبه ويختلف عن عناصر الأمن الآخرين. انضمّت إلينا سميرة وفاطمة ولحقتْ بنا أخريات. تقدَّمنا بحذرٍ. وتساءلَ عما نريد فعله. أجبتُ: "إننا نريد أن نرى خلق الله"، فضحك .

النافذة الخلفية كبيرة وعريضة ومغسولة جيداً. مررنا بمجموعة فتيات ببناطيل جينز وبلوزات جميلة وكتب في أيديهن، رفعتْ ميساء قيودَها ولم تنتبه أي منهن، رفعتُ أنا أيضاً قيودي فلفتنا نظرهن. أشارت

إحداهن مستفسرةً. أرسلتْ ميساء إشارة لم أفهمها ولم تفهمها الفتيات الحائرات، إلا أن عيونهن انشدَّت إلينا؛ وصنعتْ إحداهن إشارة أسى وضمَّت أخرى يديها إلى صدرها متعاطفةً وابتعدنا، راقب الشرطيّ تصرفاتنا وتطّلعً حوله؛ قال: "أرجوكما لا تعملا لي مشاكلا."؛ قلت: "حسنا لن نفعل شيئاً". حاول إعادتنا لأماكننا فصارحته سميرة مؤكدةً أننا لن نقفز من الزجاج، فابتسم.

مررنا بمجموعة شباب جامعين، على ما يبدو ميسوري الحال وفقاً لثيابهم وسياراتهم المركونة جانبهم، بدوا وسيمين ومرحين لدرجة الحسد. توقَّفت الحافلة لحسن الحظ خلف عدد كبير من السيارات عند إشارة مرور ضوئية، رفعنا بوجههم قيودنا وحار الشباب، صنع أحدهم إشارة استفسار بعد أن شكل بيديه شكل المكبل بالقيود بوجوهنا، أشرنا إشارة الجهل، وجددنا دسَّ قيودنا بالزجاج، وبعينينا أعطينا انطباعاً بالاعتزاز والصمود. حاول الشرطي إبعادنا. شابٌ أسمر ابتسم، رفع الإصبع البنصر وعمل إشارة تثبيت الخاتم وأشار إليَّ وسارع رفيقه وحذا حذوه وأشار لـ(ميساء)، ولم يتأخر ثالثهم عن إبداء ولهه بسميرة، ضحكنا وضحك الشباب وكلهم صنعوا نفس الإشارة وتوازعونا، والدقائق الثلاث الـ(خرساء) تكفَّلت بالوئام التام، وضحكنا، وضحكوا مجدداً، وهززنا رؤوسنا أسىً وفعلوا مثلنا تعاطفاً، والشرطي سحبنا. قال: "إننا بالتأكيد سنخرب بيته". وإننا إذا لم نطعْه فوراً فسيحدِّث رؤساءَه بما فعلناه. أجابت فاطمة: "ونحن سنجيب أنكَ عرضت علينا الهرب"، وحين شرعَ بالغضب والندم سارعت ميساء لتخفيف احتقانه، أكدَّت أننا نمازحه، وأننا نشكره من كل قلبنا لأنه كان لطيفاً جداً معنا.

استُقبلنا في فرع التحقيق واحدة تلو الأخرى، ثم سويةً، بدأ الأمر بالكلمات اللطيفة، وفناجين القهوة وانتهى باللكمات والرفسات وأسوأ

الكلمات والتهديد بالدولاب والكرسي الألماني والسجن الأبدي حتى الممات.

عدنا جميعاً بعد تسعة أيام، رفضنا جميعنا المساومة، قلنا ما اتفقنا عليه سلفاً: "نوافق على عدم ممارسة العمل السياسي ونرفض أن نكون عميلات ."

تحدَّثنا عن زجاج الحافلة وعروض الزواج ووجوه الشباب ساعات عدة، وبلهجة توسَّطت الجدَّ والهزل؛ وعدت هدى بالذهاب -بعيد الإفراج- لذات المكان لإيجاد الشاب الذي اختارها بإصرار، واستغربتْ أنَّ ملامحه انغرستْ في ذاكرتها خلافاً لملامح ذويها وأعزائها التي شرعت بهجرها منذ عامين، واعترفتْ أنها فشلتْ في تحديد لون عينيه، فالمسافة كانت كبيرةً، وارتأت أنها قد تحتاج قريباً لنظارة طبية .

سخرتْ حسيبة منا جميعاً، قالت إننا مجنونات، فقد تحدثنا عن أيام المساومة التسع ثلاث دقائق، في حين أننا ما نزال نتحدث منذ تسعة أيام عن دقائق عروض الزواج الثلاث، وقد نستمر بالحديث عنها حتى المساومة القادمة. كانت ميساء تدسُّ رأسها وساعديها داخل كنزة صوفية مهترئة، عندما علا صوتٌ يحذِّرُ هدى من عسلِ الحلمِ الرومانسي وعلقمِ الزمن (الخرا) -لافتةً نظرها- إلى أن نجومَ السماء أقربُ إليها من الإفراج، وأنَّ البحثَ عن الحبيب العتيد من دون معرفة لون عينيه معضلة، وإذا ما قرَّرَ المستحيلُ أن يغدو ممكناً فإنه سيلقاها برفقة زوجته وأولاده؛ دخلت لينه على الخط محذرةً من اليأس والشؤم و(البوم)، وقالت إن الإفراج قد يأتي غداً أو بعد غدٍ، أمّا وفاء وهيام وسوسن فقد وَعدْنَ بمرافقتها للبحث عن الفارس الموعود وإيجاده وإلزامه بالوعد (عن جد)، فبنات الناس لسْنَ لعبةً أو مَضْحَكةً. وتهافتنا -جميعنا كفراشات حظيت بنور لمبة كهربائية- على نقاشاتٍ هزليةٍ

حامية الوطيس نصفها -على الأقل- جَدِّي (عن جد)، ولم تنتهِ إلا مع إطفاء الأنوار وإلزامنا بالخلود إلى النوم .

***

كفـى.

فتحت الأم القوية الشكيمة أبداً الباب لترى ابنتها بعد غياب سنين، غالبت دموعها وأخذتها إلى حضنها (خمس سنوات وسبعة أشهر)، "لم يبقوا شيئاً منك، جلد وعظم". قوَّمتْ صوتَها الذي تهدَّج رغماً عنها، عانقتْ أمها ومسحت دموعها ودخلت لتطالعها وجوهٌ مألوفة ولكنها لم تكن معروفة لها تماماً. الجميع يُحدِقُ بها، الأطفال خصوصاً فهي الآن عمة أو خالة، غافلوها وعملوها، وُلدوا أو كبروا بغيابها. مرَّت ساعتان سادهما عناقٌ وفرحٌ وضحكٌ وقصصٌ وشرحٌ وتفسيرٌ... رنَّ جرسُ الهاتف مرة، ثم مرة، ثم مرة، وثلاث جهات أمنية طلبت لقاء العائدة من مكان قد يعود بعضهم منه بعد زمن أو لا يعود منه أبداً، لهم عذرهم فقد خرجتْ من الحقل المركزي ودخلتْ حقلهم المناطقي النائي. رتَّبَ هذا الأمر عليهم واجبات ومهمات، الأم التي صرفتْ كل مخزوناتها الاحتياطية من الصبر والاحتمال لم تعدْ قادرة على حمل مثقال ذرة إضافية يخص ابنتها -العائدة- آخر عنقودها، اختطفتْ سماعة الهاتف، صرخت أن المتكلمة والدتها وأنها لن تسمح بعد اليوم لابنتها بالخروج وحيدةً لأي جهةٍ كانت، فإذا أصروا فإن عليهم أن يطؤوا جثتها أولاً، خبطتْ السماعة ووقفتْ متحجرةً وسطَ ذهول الجميع؛ بدا وكأن عواطفها المحبوسة انفجرتْ دفعة واحدة وأن قوَّتَها التي طالما اعتدّت بها قد تلاشت.

فكَّرت الفتاة: لو حدث واعتقِلتْ مرةً أخرى، لا سمح الله، لن تكون لأمها طاقة لاحتمال انتظارٍ آخر، فللعمر أيضاً حق على الروح والجسد .

***

ملف مفتوح.. وضريبة لم تدفع

موهبةُ وَجْد في الرسم أفادتنا في رسم جريدتنا السرية التي دأبنا على إصدارها دورياً داخل السجن، والتي حاولنا تهريبها إلى خارج السجن لإعطاء فكرة عن أوضاعنا المزرية المتردية، والحقيقة أنَّ عناصر الجريدة من محررين ورسامين وخطاطين متوفرة بما يكفي ويزيد، أما العنصر الأساسي المفقود دائماً فهو الورق الذي نعمل على تأمينه بوسائل مختلفة أهمها علب الدخان وعلب كرتون المواد وورق الجرائد الحكومية المرمية أو المهملة وتهريب ما أمكن من ورق أبيض من الخارج عبر صعوبات جمة. كما أفادتنا ريشتها في كل مصنوعاتنا السجنية من هدايا ومعّلَّقات ولوحات صغيرة التي نسوِّقُها داخل السجن للقضائيات الميسورات، وخارج السجن عن طريق متعهد السجن، فتؤمِّن لنا دخلاً معقولاً يُشكِّل سنداً مادياً لعيشنا المشترك.

اعتقلت وَجْد، طالبة كلية الآداب -فرنسي- على خلفية قراءة جريدة الحزب السرية وقضت كأخريات كثيرات أكثر من أربعة أعوام في معتقلات مختلفة، وفي سجن النساء المركزي عنواننا الحالي. المحققون والجلادون لم يعذِّبوها لسبب لم تعرفه ولم يتعرّفه أحد، ربما واسطة مجهولة، ربما عدم احتياج لمعلومةٍ معلومة، ضربة حظ أو مشيئة قدر، هذا ما حصل فعلاً وارتقى لمستوى الغرابة، وبهذا غدت مختلفة إلى حد الشعور الدائم بالنقص أو الحرج أو الذنب، "كيف عذَّبوكِ؟" أيكون

الصدق غريباً وكريها حتى الإثم؟. "ما عذَّبوني". أيكون التعذيب الجسدي ضريبة واجبة الدفع أبداً، طبيعية ومطلوبة إلى حد الخيانة؟.

اُفرِج عن وَجْد بعد أربع سنوات ولم تُعذَّبْ جسدياً. سؤال مفتوح برسم إجابة... ملفٌ لا بد من إغلاقه فهل من مفيد؟ .

***

"أم مازن" أمْ "غادة"... تذهب للإعدام

بعد عودتنا من المساومة، أعدنا ترتيب حوائجنا، وبدأنا باسترداد هدوئنا المفقود وحياتنا السجنية الرتيبة، تهزُّ المساومة كل ثوابتنا ودعائمنا وتكادُ تودي بكرامتنا وأجسادنا، فعرضُ الإفراج قد لا يوجد ما يعادله إغواءً. كنا قد أبدعنا له وصفاً مرعباً. "بِعْ رفاقك ومواطنيك واشترِ نفسك، وحاول بعدها أن لا تنتحر ."

سألتني الدكتورة رنا: ما رأيك بعقوبة الإعدام؟. أثارتْ ردّة فعلي ضحكها عالياً عندما سالتُها ببراءةٍ وجديةٍ: وهل سيعدموننا؟. بعدها استغرقنا في ضحكٍ تخلَّله سعالي الذي لم تدعه يمر بسلام، إذ أكَّدتْ لي للمرة الثالثة ضرورةَ تسجيل اسمي في قائمة المرضى غداً وليس بعد غد؛ نادت سلمى وسلوى وفاطمة وسميرة وجومانا وميساء وأخريات وقصَّت عليهن سؤالها وجوابي وضحكتْ البنات حتى قاطعتهن داعيةً (رنا) لبيان خلفية سؤالها الجدِّي الذي غدا هزلاً بامتياز، وتفهَّمتْ حِدتي وابتلعتْ ما تبقَّى من ضحكها وحاولت إيراد تفسير مُرْضٍ فبدتْ معتذرةً بما يكفي لإرضائي. شرحتْ: "إن موتَنا أثناء التحقيق والتعذيب كان وارداً، ولكن تبيَّن أننا بسبعة أرواح كقطط الشوارع، ثم إن الإعدام يتَطلَّب محكمةً ما ولو صورية وهذا لم يحدثْ، وثالثاً لماذا يعدموننا؟ نحن لم نحملْ سلاحاً ولم نقتلْ أحداً، وذروة اهتمامنا الوطني تبدَّتْ في آخر عدد من جريدتنا السرية المسكينة وآخر بيان بأعدادهما الهزيلة فكرَّسا موقفاً

عدائياً من الاستبداد والإرهاب، فهلْ هذا أو مثيله يبرر للسلطات الأمنية تفجير مخزونها العنفي الهائل بوجه كل الحركات والأحزاب السياسية والنقابات واستباحة المجتمع وزرع الخوف فيه حتى نقي العظام؟. خمَّنتْ: "لا... لا... لا... أعتقد لحد هون وبس، ليس لديهم مبرر حقوقي أو أخلاقي". انتظرت جومانا لحظة الختام على جمر، هتفتْ ساخرةً: ما هو مبرر اعتقالنا من دون تهمة أو محاكمة، إذا قرروا إعدامنا فلن يقدِّموا مبرراً، ستعلن إذاعتهم وصحفهم أننا قصفناهم بمدفعية بعيدة المدى وأنزلتْ طائراتنا فوق دمشق آلاف القنابل العنقودية قبل أن يعرضوا هوياتنا المتوحشة، فقد ذبحنا آباءَنا وأمهاتنا وارتكبنا كل الموبقات من سفاح القربى وحتى أكل لحم الأموات، وقد بدا صوتها قبل النهاية مختنقاً مرتجفاً، ولم نفهمْ سبب حدة الردِّ، فسارعنا للملمةِ الحوار، حيث أبدت رنا استغرابَها بحركات عينيها قبل أن تدير رأسها وتصمت.

توقَّف الجميع عن الكلام، بدتْ جومانا نادمةً ورنا ساهمة، تنحنحتُ وبكوعي لكزت رنا: هيه... وين رحتي؟. لم تجب فوراً، ثم جاء جوابها بعيداً عن الجو تماماً. قالتْ: (أم مازن). تساءلتُ: "شو جابها على بالك؟". قالت: "ما راحت من بالي". سألتْ سميرة: "شو اسم هالمخلوقة؟". جزمت فاطمة أن لا ابن لها، وهي لم تتجاوز الثلاثين وأنها لم تتمكن من معرفة تهمتها الحقيقية حتى الآن. قالت رنا إن البعض يقول: قتل، سطو، مخدرات. أضافت سيرين: دعارة؟. "أبداً" جزمت رنا، وأشارتْ إلى مهجع الدعارة ونزيلاته وسلوكياتهن الحياتية وأشكالهن المنفرة، أنا وعدت أن أناديها باسمها مجرداً حال تعرفي عليه. انتقتْ ميساء لها بضعةَ أسماء قد تلائمها، (ليلى، هند، سمية، هيفاء، غادة). قالتْ سيرين: "غادة، كل الأسماء جميلة ولكن غادة هو الملائم لأنها غادة حقيقة، سأناديها غادة مهما كان اسمها، هكذا سأقول لها". من جديد دخلت جومانا على الخط وقالت: هذه المخلوقة جميلة بكل المقاييس الجمالية، وإنها تحقق عموديّ الجمال عند العرب، وهما

الطول الرديني والبياض الياسميني. قاطعتها ميساء: هيا استطردي بالوصف كي أظنك مثلية وأتردد بالنوم إلى جانبك. ضحكنا حتى حدود إزعاجٍ عبَّرَتْ عنه جومانا بجوابها: الكلام صفة المتكلم. تدَّخلتْ هيفاء مصالِحةً: "دعونا مع الواقع فَحول جمال أي امرأة يمكن أن يختلف التقدير، أما حول جمال غادة فلا خلاف"، ثم اعتذرتْ لميساء التي لم تمرّرْ المقاطعةَ التي قالت ضاحكة: "بيقولو: بلا مقطوع عن حديثك ويقطعون أبوه الذي خلَّفه حتى يصعب وصله من جديد."

تابعتْ ميساء التي طالما استطاعت إضحاكنا في عز أزماتنا: إنها البارحة شاركتْ غادة قراءة القرآن الكريم، وكانت محبطةً حزينة، وباءتْ محاولات إضحاكها بالفشل، ولم تحصل منها إلا على ابتسامةٍ شحيحة مستعارة، بعدها صارحتها بأمرين، الأول: أنها أبدت استغراباً فاق إعجابها بنا كسجينات سياسيات بسبب مبادئ وأخلاقيات تصل حدود الأوهام والأحلام، والثاني: أنها تساءلت عن قدرة الأفكار المثالية على إعداد الناس لمغامرة تصل حدود الموت مقارنةً بقدرة الطموح أو الطمع الإنساني لامتلاك عناصر الغنى المادي الحقيقي، واعتذرتْ لأنها في الحقيقة لو خُيِّرتْ الآن من جديد بين دخول السجن بسبب فكرة أو في سبيل مليون ليرة فإنها ستختار الثاني بالتأكيد، حيث أنها تعرف ماذا ستفعل بالمليون، ولكنها تجهل ما تفعل بالأفكار، وضحكتْ بلطف وناشدتها أن لا تُزعل من صراحتها. تابعت ميساء: بعد دقيقتين شرعتْ بالبكاء، فعملتُ على تهدئتها وتشجَّيعها على بوح ما يعتمل في روحها، ولم ينفع ذلك، سألتُها عن سير المحكمة، لم تجبْ وابتلعتْ دموعها وتمخَطتْ قبل أن تنهض وتتجه لزاويتها مشيرةً بيدِها كي تنتظر قليلاً، حين عادت كانت تحمل بيدها صرَّةً صغيرةً. نهضت ميساء إلى زاويتها القريبة وحملتْ إلينا الصرَّة، وأنا فتحتُها وأخرجتُ محتوياتها، (شلحتان وصدريتان من النوع الفاخر). قالتْ ميساء: إنّ غادة أصرَّت على إهدائها لها كي تتذكَّرها، عندها واستها بضحكة وأكدت لها أنها ستخرج قبل كل

السجينات السياسيات في هذا البلد، لكن غادة أكدت أنها لن تخرج إلا إلى القبر. وكي تُبعد حسناء أسانا تساءلت بمرح مصطنع: "وهل هذه الملابس الداخلية ستكون مؤممة ومتاحة للجميع؟". تنهدَتْ ميساء وقالت: "لمن سنرتديها يا حسرتي؟". انتهى الحديث ووجوهنا ترسم ابتسامات باهتة .

اعتزمتُ أمراً، قلتُ إني سأذهب إلى أم مازن وسأبلغها أنها غدت، كما هي حقيقةً غادة، حتى ولو كان اسمها نظيرة أو حبسة أو حفيظة، لحقتْ بي جومانا وفاطمة وسميرة، وقفنا ننظر إلى غادة المضطجعة متدثرةً ببطانية النمر الفاخرة، ملفوفةً بإحكام ووجهها للحائط، وجارتها همستْ أن أم مازن ليست نائمة ولكنها لا تريد الكلام مع أحد، ودعتنا إلى تركها لحالها، عدنا وفسَّرنا عودتنا السريعة، تنهَّدت رنا وقالت إنها تعتقد أنّ "بالرز في بصل"[36] وما كادت تنهي عبارتها حتى انطفأت الأنوار فانسحبنا إلى زوايانا بغية نومٍ أيقنا سلفاً أنه سيكون مؤرقاً. حدَّقتُ بالعتمة تحت بطانيتي وتبيَّنتُ أننا لم نذكر أهم ما لفتنا بـ(غادة) وقربها من أرواحنا على الرغم من علمنا بانتمائها إلى عالم الجريمة القاسي، ففي يوم الحمام تتقصد الدخول متأخرةً جداً، وحين تخرج آخر المتحممات تبدأ غادة بالغناء، ودائماً تغني لأم كلثوم. لا أستطيع تقييم حنجرتها، ولكن يمكنني الإشادة بأدائها الحلو، يوم سمعت أغنية "أنت عمري" التي أدَّتها كاملةً قبل خروجها بكيتُ حزناً، كانت بلسانها تؤدي الوصلات الموسيقية بشكل معقول، أما الكلمات والحروف فكانت تنطقها بشكل مدهش واضح، أما بكائي حزناً فسببه أن شقيقي البكر أعلمني أن هذه الأغنية أبدعها العملاقان عبد الوهاب وأم كلثوم وأذيعت لأول مرة عندما احتفلت الأسرة بمرور أربعين يوماً على ولادتي، وقيام أمي بالسلامة لتستأنف واجباتها المنزلية .

[36] مثل شعبي "إن في الأمر سراً ما"

لن أنسى أبداً صبيحة اليوم التالي، فقد بدا السجن مختلفاً حتى حدود الغرابة، وكدتُ أنكُرُ معرفته بعد إقامة ثلاث سنوات. لم يكن الضجيج العالي سبب استيقاظي فهو في هذا الصباح كان الغائب الأكبر بامتياز، وإنما ذلك الفحيح -غير المسبوق- المشحون بالقلق والرهبة والرعب

الذي حلّق فوق رؤوس التجمُّعات الأليفة الغريبة بين عدد قليل من السجينات وبعض الحرَّاس والسجَّانات، وقد بدا الهمس سيد الكلمات والاضطراب مفتاح وجوهر الاستجابات. فهمتُ دفعة واحدة أن الصمت المفجع يُصدرُ ذبذبات تفوق فعاليتها أكثر الأصوات ضجيجاً لتقترب من حواف الانفجار. عن بعد، دعتني رنا بإشارة من يدها وعينيها وحركات شفتيها، فسارعت إليها؛ همستْ في إذني فارتجفتُ من أعلى رأسي حتى أسفل قدمي، ولاحظت رنا ما قالته لاحقاً لي بأن شفتيَّ ازرقتا حتى بدتا بلون الكحل، والأمر تأكَّد برمته، وقد فهمته تقسيطاً وأسجله الآن كاملاً باختصار شديد.

جاء الحراس والسجانة في الرابعة صباحاً، أيقظوا غادة، همسوا أن الأجل حان، وأن عليها ارتداء ثيابها وتلاوة صلاتها، وحين بدأتْ بارتداء ثيابها تذكَّرَت أنها صائمة فأشاحوا وجوههم، نزلت عن المصطبة فتعثرت، خطت ثلاث خطوات وترنحت فساندوها، طلبت الذهاب إلى المرحاض ثم عدلت، أمام الباب توقفت والتفتت وشملت السجن بنظرات نصف ميتة، تنهَّدَتْ وبدا أنها ستفقد الوعي فحملوها .

كان الحكم بالإعدام قد صدر منذ أيام وأحيلت إضبارتها إلى المفتي والرئاسة، وبقي الأملُ معلقاً فوق عنقها كغيمة قد يسعفها أو يهجرها، حين تبلَّغ مدير السجن الأمر بالتنفيذ في ساحة التنفس قال إن لديه بين القضائيات والسياسيات مريضات قلبٍ، وأن مشهد غادة معلقة فور استيقاظهن في الصباح الباكر سيجعل الإعدام جماعياً، وهدد بتقديم استقالته، وتوصَّلوا إلى حل وسط، نصبوا مشنقتها في ساحة السجن

الخارجية. رنا وهي تداري اضطرابها عرضت أن تريني المشهد عبر شقٍ بيتوني يُطل على الساحة، سألتها فيما إذا نظرت عبره، فهزت رأسها نفياً، وأنا رفضت رؤيتها، قلت: "الله يرحمها ويرحمنا". ابتعدتُ بسرعة كي لا أوافق على رؤية الجثة، فقد بدا مرعباً لي رؤية حياة ما تتحول إلى شيء ما، إنْ تُرِكَ بضع ساعات سيتفسخ وتسعى إليه الديدان والحشرات، اندسستُ في فراشي الرطب دائماً وانتابتني موجة سعالٍ حاولت ضبطتها كي لا تسمعها رنا .

لم أغفُ -طبعاً- رغم رأسي المطمورة بالبطانية، أبعدتُ شبح غادة المعلقة بحبلٍ واحتضنت "أنت عمري" المتدفقة مع مياه الحمام وأحنقتني مسألتان، الأولى: تزامن اختيارنا اسمها الجديد عشية إعدامها، وثانيها: ذهابها للإعدام من دون أن تدري به، وندمتُ على طاعتي لجارتها بتركها بحالها، وأثارت استغرابي مسالةٌ ثالثة: خروجها من الحياة ودخولها مملكة الموت بصمت عجيب، فقد كان بإمكانها إيقاظ السجن بأكمله صياحاً وعويلاً، دعاءً وشتائماً، بل سارت إلى حتفها كنعجة، أعرفُ أن هذا لن يغير شيئاً، ولكن لا أستطيع أن أفهم مغادرة الحياة بهذا القدر من الاستسلام القدري المذل مهما تعددت الأسباب، فما دامت لي قدمان ويدان ولسان فسأدفع عن نفسي الموت أو الأذى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فلا يحق لأحد أن يأخذ حياة أحدٍ أبداً، وهنا بالضبط توقفت، فلقد شعرت أني أبالغ وأغالي، وأنه لا بد لي من التواضع وتبرير محاولتي الانتحار اللتين أقدمت عليهما وتحت أي عنوان يمكن إدراجهما؟. وعندها دخلتْ على خطوطي مقالات ومناقشات عديدة لدول ومنظمات تعمل على إلغاء عقوبة الإعدام، تسرعتُ بمنح دعمي المطلق، ولكني تراجعتُ إذ رأيت فيه رحمةً مقارنةً بسجن السنوات الطويلة والتعذيب والإذلال، ولم أحسمْ أمري، بل دخلت دوامةً خشيت أن لا أخرج منها .

حاولتُ معرفة وصيتها، في اليوم الثاني، فلم أفلحْ، تعرَّفت على اسمها وكنيتها وجملة جرائم شاركتْ في ارتكابها في سوريا ولبنان، ويبدو أنها نسيتْ كتابة وصية ما... ربتتْ ميساء على كتفي وقالت: "إنها تعتقد أن الذاهب إلى الإعدام ينسى أموراً كثيرة ليس أهمها الصراخ والعويل أو كتابة وصية". طلبت منها مثلاً فقلبت شفتيها جهلاً.

زارتني الفتيات في اليوم الثالث، وبدا حديثهن متعاطفاً معي بشكلٍ لافت وطلبن مني -بكثير من الحذر- عدم تحميل الأمور أكثر مما تحتمل، فغادة ذهبت بطريقها "الله يرحمها" ولا ينبغي لتداعيات إعدامها أن تلقي بظلالها على حياتي وعلى حياة من حولي. أجبت بإيماءات آلية متعددة. طلبتْ رنا أن أستعد غداً للذهاب إلى المشفى لإجراء الفحوصات اللازمة فقد سجلت اسمي في قائمة المرضى. ختاماً، أصرت الفتيات أن أبتسم ففعلت .

***

نزهة.. ومخبر.. وتقرير..

ضيوف الأسرة التي التمَّ شملها بعد سنين على شاطئ النهر العظيم، ضمَّت الأب والأم والطفلة التي غدت جامعية والأخرى التي دخلت روضة الأطفال هذا العام، هم أخوة الزوجة الأربعة وأمهم الذين جاؤوا من العاصمة للزيارة.

سار الجميع على كورنيش المدينة بجانب أشجار الكينا المُعمِّرة وصوت فيروز يصدح من مسجلة صغيرة حملتها الفتاة .

خلفهم وعلى بعدٍ محسوب يقارب مائة متر سار شابان ينتميان إلى إحدى الجهات الأمنية في المدينة، همس أحدهما للآخر: "اسمع... هل تعلم أنه إذا استثنينا الفتاتين والعجوز فإن مجموع أعوام سجن هذه المجموعة الأسرية تقترب من ستين عاماً؟. ولعلمك فإنهم جميعهم مثقفون، حقوق، هندسة، طب... إلخ" ما لم يقله الشاب لزميله -على الرغم من معرفته به- أن لا أحد من هؤلاء عُرِضَ على محكمة حقيقية، ولم توجه لأحد منهم تهمة قانونية جدية، ولم يحمل أحد منهم سلاحاً ولم يمارس عنفاً، وأن ذنبهم الوحيد هو عدم تطابق رأيهم مع رأي السلطة الحاكمة وحزبها الرسمي .

صاغ المكلَّف الأمني تقريره اليومي في وقتٍ متأخرٍ ليلاً وجاء فيه: بضع

عائلات افترشت الأرض بجانب النهر. الأطفال والكبار ذهبوا للسباحة والصيد، والنسوة انشغلت بإعداد الطعام وجمع الزهور البرية، أحدهم اصطاد سمكة كبيرة وآخر ثلاث سمكات وسط، وانشغل الجميع بالشوي على الفحم، شاهدنا صندوق بيرة وآخر كازوز، غنى الجميع أغاني مارسيل خليفة والشيخ إمام وأنشدتْ الفتاة قصيدة محمود درويش (سجل أنا عربي)، أدركوا أننا نراقبهم عن بعد، جاء الأخ الدمشقي البكر وجلب لنا بعض السمك والكباب المشوي فرفضناه، اثنتان من النساء كانتا محجبتين من حلب وسبحتا بثيابهما، الثالثة تحدثت الكردية مع أطفالها، أنا لم ألحظْ أداء أي منهم لأي من صلوات الظهر والعصرُ والمغرب، ولكن زميلي يؤكد أنه رصد أحدهم عندما ابتعد عن الجميع ليؤدي صلاة المغرب علماً أن زوجته غير محجبة .

أنهى عنصر الأمن تقريره باعتقاده بعدم وجود سلوك حاقد تجاه الدولة أو نية مبيَّتة لزعزعة أمن الوطن واستقراره وذيّلهُ باسمه وتاريخ اليوم والشهر والعام.

عندما آوى إلى فراشه أسرَّ لامرأته أنه لم يعد متأكداً من أنه سيجدد عقده مع الأمن، وأنه يفكر حال خروجه من السلك أن يمارس مهنة المحاماة، وبرر ذلك بأنه لا يرغب أن يكون ضحيةً، ولكنه أيضاً يأبى أن يكون ظالماً .

في صباح اليوم التالي تبعهم حتى كراج البولمانات، وقبل تحركه بقليل تقدم منهم فلاقاه الأخ الأكبر، بادره باسماً: "عذبناك معانا". دارى عنصر الأمن خجله وتمنى أن يجدوا له عذراً فهو مجرد موظف يؤدي واجبه الوطني. ضحك الأخ الأوسط وبطيبة ملغومة تساءل: "وهل هذا النهر هو خط الجبهة مع العدو؟"... حار الجواب وبدا متضايقاً، ولكنه أعاد مصححاً: أنه يؤدي واجبه الوظيفي وأتبعها بـ "الله معكم... توصلوا بالسلامة إن شاء الله". لوح بيده مودعاً وعاد لينهي تقريره الأخير،

فضمَّنه أن الأخ الأوسط واسمه إياد قال: "إن الجميع في هذا الوطن صفٌ واحد خلف القيادة الشجاعة والحكيمة لحماية الوطن والشعب والثورة ."

***

عشاء حار، بعد طول انتظار..

ما أبطأ هذا المساء، الجوع الكافر استبدَّ بنا، وكأن عشاءنا قادم على قواقع السلاحف، أو أننا، لسبب ما، حُرمنا منه. على الرغم من ذلك، نحن نعرف سلفاً أنه إذا وصل سيكون شوربة العدس الحارة، وجبة العساكر والسجناء التقليدية اليومية، إرث الأحفاد عن الآباء والأجداد.

وصل العشاء أخيراً. تحرَّكتْ بأيدينا علب الحلاوة البلاستيكية الفارغة، صحوننا الدائمة، وامتشقنا معالقنا أملاً بصبٍ سريعٍ وانقضاض طعامي أسرع، فتاتنا المناوبة الرقيقة تسلَّمتْ القصعة الرئيسية ومنحتنا ابتسامة لافتة سرعان ما غاصت في تقطيبة جبينها وازورار عينيها، تراجعتْ بقرفٍ مستفزٍ مشيرةً بيدها إلى جوف القصعة، انضممنا إليها بسرعة وحدَّقنا باتجاه إشارتها، على سطح الشوربة كانت تسبح بهدوء كتلةٌ شعريةٌ تعلَّقت بها أوساخ وأعقاب سجائر وبقايا قشية، وكما بإيعازٍ تراجعنا جميعاً خطوات بينما شمخت القصعة في وسط المهجع وكأنها تسخر منا. بعضنا تخلى عن علبته وملعقته مبتعداً إلى الزوايا والجدران، لينه قالت: "إنها على وشك التقيؤ على الرغم من عدم وجود شيء في معدتها" ووفاء صاحت: "أنهم حقيرون"، وسوسن ندبت حظها التعس الملازم لكل مسيرتها الحياتية فهي اليوم جائعة أكثر من أي وقت مضى. بهمَّةٍ غير متوقعة نهضت علياء مسلحةً بعلبتها وملعقتها وقصدتْ

القصعة، غرزتْ الملعقة الكبيرة وأدارتها بضع دورات قبل أن ترفع الكتلة الشعرية وتوابعها وترميها بعيداً، ملأتْ علبتها حتى الحافة وتراجعت: "لن أنام اليوم جائعة"، وباشرت طعامها. حدَّقنا بها فلم ترفع بصرَها عن طعامها، حاولنا التقاط أثراً في ملامحها لقرفٍ أو ضيقٍ، وفشلنا، التقطْتُ في بعض العيون تفهماً أو موافقةً أو حسداً. مضيتُ وعلبتي وملعقتي وحذوتُ حذوَها، لحقت بي رفيقتان قبل أن يلحق بنا الجميع، وما هي إلا دقائق حتى أتينا على محتويات القصعة العتيدة، ميساء كعادتها علَّقتْ: "لو بقيت الأوساخ في القصعة لما وفرناها ."

***

ما في حدا... لا تندهي[37]...

جولةُ التعذيبِ الأولى كانت بقصد جس النبض واكتشاف مكامن الضعف، جولةُ التعذيبِ الثانية هدفت إقناعَها أن للجسد حدودَ مقاومة لا بد بعدها أن ينثني، كما أنّ للجلاد أيضاً قدرة محدودة -على احتمال الجهد الحِرفي المتقن أو العشوائي- فلا بأس من فسحة راحة وتدخين سيجـارة، أشعلها وحدّق بجسد الصبية المكوَّم على الأرض وسط الغرفة، لاحظَ أن همَها سترُ بطنها وظهرها بقميصها الممزق ويـديها، أما احتمال وتفـادي الضرب فكان يأتي تالياً، استدعى زميله وأنهضاها وأوثقا يديها خلف ظهرها، فكَّ أزرارَ قميصها فشرعت بالبكاء، "أليس عندكم أخوات أو بنات أو أمهات؟" بكاؤها تحول إلى صراخ وعويل، رفع قميصَها الداخلي وأرسل قبس سيجارته في بطنها وضغطه حتى انطفأ، استعملت قدميها، أداراها وأطفأ سيجارتين في ظهرها، وقدماها لم تحملاها فتكوَّمت من جديد بينما ازداد صراخها حدةً وارتفاعاً، أشعل سيجارةً جديدة وغرزها في قدميها أربع مرات، وفي راحتيّ يديها أربعاً أخرى، وزميله اهتم بتثبيت أطرافها وإشعال السيجارة كلما انطفأت من جديد، تحدَّث مع زميله لتسمع، قال: إنه بعد استراحة قصيرة سينتقل إلى الصدر... أفلتت من دون وعي- صرخات أشبه

---

[37] من أغنية لفيروز

بأصوات حيواناتٍ جريحة.

في زنزانةٍ قريبةٍ كان هناك من يسمع نحيبها وصراخها ويتعرَّفها على الرغم من أنه لم يكن يعرف إلا ابتسامتها وضحكتها وصوتها الذي طالما سماهُ "فيروزياً"[38] وودّ لو كان مكانها، وتمنى لو فداها، لكن هنا -في جوف الجب- لا أحد يمكنه أن يساعد أحداً، وعلى كلِ واحدٍ أن يمضي بحمله الخاص -مهما عظم- وحيداً، ولا أحد بإمكانه أن يفدي أحداً، لذا فقد انحلَّتْ ركبتاه، فتعلق بالقضبان الحديدية قبل أن ترتخي قبضتا يديّه فيتكوَّم ويبكي قهراً وعجزاً.

***

---

[38] نسبةً إلى فيروز

نجمة.. وتهمة.. ثم مهمة

سرت شائعةٌ كنارٍ في هشيم، تطلَّبت جهدنا المكثَّف للتأكد من صحتها، فالطائرة القادمة من القاهرة أقلّت الفنانة المصرية المعروفة ماجدة الخطيب للمشاركة في عمل سينمائي محوره القضية الفلسطينية، وتفاصيل استقبالها ودخولها وصلت إلينا بالعموميات، إلا أن الأهم كان تفتيشها الذي أسفر عن أمرٍ كان نتيجته إجراء تحقيق سريع أدى إلى توجيه تهمة حيازة مخدرات تلاهُ احتجازها وإيداعها مؤقتاً في السجن ريثما يبتُّ القضاء في القضية. والإشارات والأخبار التي وصلتنا تباعاً، مفادها أن النجمة الحسناء تقترب من جدران سجننا العتيد وستعبر بوابته قريباً بالتأكيد. وقامتْ قيامة السجن عن بكرة أبيه، من مديره إلى ضباطه فسجانيهِ وشرطييه، وجاء استنفاره بكل نسائه السجينات من الأصوليات حتى الشيوعيات والقضائيات، واحتشد الجميع عند الحائط الجنوبي وأكثرهن شطارةً التحمُّن مع الشبك الفولاذي وبوابته الرئيسية بانتظار النجمة الحدث، اندلع مع إطلالتها بقيودها ضجيجٌ أنثويٌ هائل تأهيلاً وتسهيلاً وترحيباً، وحين عبرتْ البوابة وجدنا أنها غدتْ ضمن مجموعتنا من دون أي تدبير مسبق، وحين اكتشفنا ذلك عللناه بإحجام سجينات الإخوان أو السجينات القضائيات الأوَّليات بسبب الموقف الإسلامي المبدئي من الفن والسينما والرسم والنحت والغناء عموماً، والأخريات بسبب الشعور بالدونية تجاه النجومية.

تحركت النجمة بيننا فقدناها إلى غرفة رفيقاتنا التي قدَّرنا أفضليتها نظراً لنظافتها وترتيبها والتي تشرف عليها رزان المهندسة المدنية المميزة شكلاً ومضموناً. بدَت مقدمة اللقاء عند الشبك مريحة للفنانة التي سرَّها الاستقبال الحافل على الرغم من صدوره عن سجينات تجهل عنهن كل شيء، ولكن الانقباض حدث بعد أن أطلق البعض زغرودات تحية مجهولة القصد والهوية، فتيبَّست كمن أصيبت بطلق ناري في مقتل.

عبَّرت حين جلست بيننا عن استغرابها واستيائها مما سمتّه الشماتة بمصائب الغير، وأوضحت أن أمر توقيفها برمته خطأ بخطأ، وأن استدراكه سيتم بسرعة بالتأكيد فهي ليست تاجرة ولا متعاطية، وتعتبر أن الفن رسالة أخلاقية قبل كل شيء. عملنا على تهدئتها وأكدت سمر بحماس أن الأمر يختلف تماماً عما اعتقدَتهُ، فالزغاريد المنطلقة أرادت إيصال باقة تحبُّب وتقدير وتضامن مع مظلوميتها وليس شماتةً بتهمة لا أحد يشك بأنها بريئة منها، همست ميساء بأذني وكأنها تتابع توضيح سمر (والله أعلم)، بعدها دخلتْ على الخط "نسرين" أكثرنا ثقافةً واهتماماً فنياً، فأشادت بقيمة الأعمال السينمائية التي لعبت فيها دور البطولة الأولى أو الثانية، وخصت بالذكر (دلال المصرية) الفيلم المقتبس عن رائعة تولستوي الشهيرة "البعث"، قالتْ إننا تابعنا مقابلتها التلفزيونية مع مُعَّدِ برامجنا المتميز نذير عقيل حيث أمتعتنا برقصها الشرقي الحلو، ومن جديد همستْ ميساء: "الله لا يوفقك يا نسرين ولِك بها المقابلة القديمة قالت ماجدة إنها كانت تعمل في ملهى ليلي وتؤدي وصلات رقص وغيره". مرت الأمور بسلام، بعدها انتقلنا لإعطائها فكرة عن السجن ونزيلاته اللواتي يتوزعن على السياسات والقضائيات، والسياسات، إما شيوعيات أو إجمالاً يساريات، وإما يمينيات أصوليات إسلاميات (إخوان)؛ أما القضائيات فهنَّ كل ما عدا ذلك من قتل واحتيال ودعارة ومخدرات... إلخ. السياسيات إجمالاً متعلمات، حيث أكثر من 90% منهن جامعيات، مهندسات أو طبيبات

أو طالبات جامعيات. مرَّ الوقت سريعاً، وبدا التعب واضحاً على نجمتنا وضيفتنا. قدمنا لها الصابون والمناشف، أما الدكتورة نسمة التي جاءت على عجل فقبّلتها ومازحتها وحملت إليها إحدى جلاَّبياتها الحريرية العديدة، ودعوناها للاسترخاء والنوم؛ حين لبست جلابية نسمة تبين أن قياسها لا يناسبها فنسمة تفوقها طولاً وجسامةً واضطرت لرفع الأكمام والخصر بوسيلة ما؛ أكَّدت ماجدة وهي مستلقية أن المحامي قد يوافيها في أي لحظة ليخرجها من هنا، وابتسم البعض منا، وكي لا تفهم ابتسامتنا خطأً اضطررنا لشرح طويل، حاولنا فيه دمج الحقائق بالآمال بالتفاؤل، فأوضحنا أننا نعيش منذ ربع قرن في ظل قوانين الطوارئ والأحكام العرفية، وإن البعض منا استُدعي إلى الجهات الأمنية لساعات، ولكن توقيفه استمر ويستمر شهوراً أو سنيناً، وإن معظمنا لم تُوجه له تهمة ولم يُعرضْ على قضاء، وسارعنا لإعلامها أن هذا لا ينطبق عليها بحال من الأحوال، ليس لأنها ليست سوريةً -فلدينا لبنانيات وأجنبيات أوروبيات- وإنما لأنها نجمة معروفة وتهمتها خفيفة، وهذه التهمة يمكن التعاطي معها بسهولة نسبية كما جرائم القتل العادي أو التهريب أو الاحتيال أو الدعارة، فكل هذه الأمور يمكن حلها عبر المحامين المهرة والرشوات واللف والدوران، أما الاعتقال السياسي فلا دواء له أو علاج. قالت ميساء: "يعني يا مدام ماجدة داء الفالج لا تعالج". في صباح اليوم الثاني سألتْ عن المحامي، وظهراً سألت عن مدير السجن، وانهزَّ بدنها ونزلت معنوياتها. بعد الظهر زارتنا فلاستا البولونية وفيرونيكا الهنغارية، فتلقتهما بفتورٍ وتشاغُلٍ بحيث أنهما لم تطيلا الزيارة وخرجتا بوجهين ساخطين. فسرت رنا ذلك لي بطريقتها، قالت: طبعاً جمال أوروبي واضح وتهمة مخدرات (فكيف لـ سِتْ ماكدا أن تتقبَّلهما). استفسرتْ بعد خروجهما فقلنا: إنهما اتُهمتا بذات التهمة. و(ست ماكدا) بدتْ راضية عن ريم التي رسمت وجهها بطريقتين مختلفتين وزادت حسنها كما فعلتْ معنا وأكثر، وقد أدهشَتها بتواضعها وشطارتها، وحاولتْ جاهدةً

منحها مالاً مقابل ذلك فرفضت بشكلٍ قاطع، فقبَّلتها مرات عديدة شاكرةً، وبدت في أحسن مزاج حينما جاءت للزيارة الدكتورة نسمة لتطمئن على صحتها ومعنوياتها وأطلقت مزاحاً لطيفاً استدعى كماً كبيراً من روحها المصرية المرحة، فأغرقتنا بسيل من الطرائف والنكات الفنية والشعبية والسياسية، استهدفت السادات وزياراته لإسرائيل ومقتله الدرامي على يد خالد الإسلامبولي. قرأت نسرين من الذاكرة أبياتاً عديدة للشاعر أحمد فؤاد نجم تحيةً لخالد وهجاءً للسادات، ورددنا معها أبياتاً عديدة أخرى .

غمزتنا نسمة بعينيها ضاحكةً وقالت إن خالد لم يكن شيوعياً بل سلفياً وهمستْ بعد ذلك بإذن (ست ماكدا) بأمرٍ ما، فأكدت عدم الحاجة لذلك الآن لأنها قد تخرج اليوم. أكدت ميساء لي أنها لا تقرأ الشفاه ولكنها متأكدة أن نسمة عرضت عليها بدلات داخلية وفوطاً صحية من النوع الجيد.

نسرين لم تمررها، فأجابت: (بالتأكيد خالد الإسلامبولي سلفي بقدر ما أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام شيوعيين) .

حازت نسمة إعجاب ماجدة بجمالها ونظافتها وأناقتها وتلقائيتها وأريحيتها وكرمها وتصرفاتها الشجاعة وردَّات فعلها المتعالية على السجانات والشرطة وضباطهم، كما لاحظت عدم التزامها بملابس الأصوليات ومواعيد صلاة الجمعة، واستغربت تناقض تصرفاتها المتحررة وانتمائها إلى مجموعة الأصوليات (الإخوان) المتزمتة، أطلقتْ نسمة شحنة جديدة من الهزار العبثي في مسائل جدية فقالتْ: إنها تعتقد أن الشيخ مصطفى السباعي[39] شيوعي ولا يختلف عنه الشيخ

[39] مرشد الإخوان المسلمين في خمسينات القرن العشرين في سورية

حسن البنا[40] وأن تشي غيفارا[41] إسلامي ولا يختلف عنه كارلوس[42] وحار الجميع بالرد على هذا المنطق الأعوج المقصود، وغرغرت نسمة ضاحكةً، فأضحكت جميع الحاضرات بمن فيهن ماجدة، تبادلنا نظرات متفهمة مفادها أننا مدينين بتفسيرٍ لضيفتنا التي اختلطت عليها الأمور تماماً، فتولَّت رزان شرح الأمر باختصارٍ يفيد أن انتماء نسمة الحقيقي منذ سنوات الجامعة الأولى كان يسارياً بامتياز على الرغم من أنها سليلة عائلة عريقة وغنية وانتماؤها كان تحديداً إلى اتجاه المحامي المعارض البارز رياض الترك نزيل الزنزانة المنفردة في فرع التحقيق العسكري منذ تسع سنوات، إلا أن خطيبها الذي ساعدته باستئجار منزل تبيَّن انتماؤه إلى جماعة الإخوان المسلمين أو أنه محسوب عليهم، فكان الاعتقال نصيب الاثنين على ذمة (الإخوان) .

مضى اليومان الرابع والخامس وأطل المحامي واستُدعيت للتحقيق مرتين، وفي كل مرة كانت تلملم حاجاتها وتحضِّر نفسها للخروج، ولكنها عادت ساخطةً متوترةً وقريبة من الانهيار خاصة عندما حاولت بعض السجينات بتهمة المخدرات تقديم نصائحهن المجانية، طيَّبنا خاطرها وعملنا على تهدئتها، وأصرَّت على شراء أكلٍ جاهزٍ واستضافتنا كما دأبنا نحن على استضافتها وخدمتها. في اليوم السادس بدأت الأمور تتلحلح، تدَّخلت المؤسسة العامة للسينما ووزارة الثقافة ونقابة الفنانين وجاء ممثل السفارة المصرية ليطمئنَ عليها ووُعدتْ بإطلاق سراح بعد الظهر. وجَّهتْ لنا دعوة جماعية لزيارة مصر (أم الدنيا) وخصَّت بالدعوى ريم ونسمة، وجميعنا وعدناها أن نفعل بعد الإفراج الذي لا نعرف له موعداً، وهنا تمنينا عليها بذلَ جهودٍ من أجلنا فنحن لسنا قاتلات ولا

---

[40] مرشد الإخوان في الخمسينات في مصر

[41] الثائر الأرجنتيني

[42] الإرهابي اليساري العالمي الذي التزم بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ضد الصهيونية والموساد

إرهابيات ولم نحمل سلاحاً ولم نحاول إسقاط حكومة، أوضحنا أننا سجينات رأي بامتياز. وأبدت استعدادها وجهلها معاً، نظّمنا قائمة بأسمائنا وأعمارنا وسنوات توقيفنا التي فاقت لدى البعض ست سنوات من دون محاكمة، كما كتبنا استدعاءً آخر، طلبنا فيه السماح لنا بتقديم الفحوص الرسمية في جامعاتنا ولو بقيودنا، ثم تذكرنا إضرابنا الفاشل فحاولنا تدبيج كتاب آخر يطالب بتحسين ظروفنا المعيشية وزياراتنا، وهنا تدَّخلت ميساء لتنقذ ماجدة من طلباتنا التي اشتطتْ، تساءلتْ: ألا تردْنَ أيضاً تحرير الجولان وفلسطين وإعادة لواء اسكندرون فالست (ماكدا) قدها وأكثر. ضحكنا جميعاً. سألت ماجدة الخطيب ما لم نكن نتوقعه: لمن نريد إرسال هذه الكتب والطلبات؟. اقترحت رنا: إلى الأمم المتحدة، وسمر رأت أن الجامعة العربية أقرب، وماجدة فكَّرت قليلاً وقالت إنها ستتشاور في هذا الأمر مع يوسف شاهين وفريدة النقاش ونوال السعداوي. أنعشنا ورود هذه الأسماء على لسانها وقهقهنا عالياً حين أردفت مبتسمةً أنهم على ما تظن يمتُّون لنا بصلة القربة، فلقد تأكدنا أنها فهمتنا .

في اليوم السابع ودَّعنا ماجدة الخطيب. رفضت نسمة استرداد جلابيتها منها، عند باب الخروج حبكت النكتة معها، قالت: (دلوقتي لو سَمعتِ زغرودة حانبسط واللهِ أوي) ورنَّت زغاريدنا عالياً، خرجت ماجدة وأُغلق الباب خلفها وأمامنا، وعدنا إلى حياتنا الرتيبة مجدداً. بعد أسبوعين جاءنا بعض الشرطة بمجلات سينمائية ومصرية، جميعها كتبت عن توقيف الفنانة ماجدة في سجن النساء في دمشق ولم يكن هناك حرفٌ واحد يخصنا لا من قريب ولا من بعيد، يبدو أن من يدخل إلينا يتعرَّفنا ومن يخرج من عندنا ينسانا أو يتناسانا. هل ستستمر الأمور على هذا المنوالَ طويلاً؟. سؤال ينتظر على جمرٍ جواباً، ولكن من سيجيب؟.

لطالما وجدتُ وجهَ شبهٍ كبيرٍ بين شقيقتي التي تزيديني بـ 14 عاماً ونجمة

الشاشة الفضية العربية ماجدة الخطيب، إلا أن رؤيتها بشحمها ولحمها خذلتني، فهي إن تحلت بملامح جمالية جيدة إلا أنها كانت دون شقيقتي قامةً وحسناً... حين زارني شقيقي الأكبر وزوجته بعد ستة شهور طلبتُ منه أن ينقل لها أن كفتها ترجح كفة ماجدة الخطيب، ثم استدركت وطلبت منه أن يقول هذا الكلام لزوجها أيضاً .

***

قفقجات*

*قصص قصيرة جداً

1- لحظة عار

اعتقدَ الأخ الثوري السابق بزوالِ المحنة وبدءِ صفحةٍ جديدةٍ بعيدةٍ عن همومِ سنوات سجن طويل، أربكت معاناتها الأخوة والأخوات وهزمت صحة الوالدة وفاقمت مرض الوالد، فانتقل من احتشاء قلبي إلى احتشاء دماغي أدى إلى وفاته. ثم اتضح أنه مخطئ تماماً، فقد راقبوها واستدعوها وهددوها. ولما تأكَّدَ له أنه لا يستطيع أن يضيق بهم ذرعاً فقد ضاق بها، وعندما حدثته عن ظروف اعتقالها واعترفت له أنها خشيت أن يخذلها جسدها الضعيف في جولات التعذيب المتتالية، وتمنت الموت وحاولت الانتحار مرتين لكنها فشلت، تمتم الأخ الثوري السابق، في لحظة يأس قريبة من العار كأنه يبوح لنفسه بسرٍ قد يريحها: "ليتها نجحت ."

***

2- فرصة ضائعة

لأنها زوجةُ قياديٍ فارٍ لم تطله أذرعهم استُدعيت من سجنِها لجلسةِ مساومةٍ قيّمةٍ، عرضوا حريتها مقابل طلاقها، وإذ رفضت بعنادٍ أُعيدت ثانيةً إلى جحيمها. لكن الطريف بالأمر أننا جميعنا كنا نعلم أن علاقتها بزوجها كانت بحكم المنتهية، وأنهما اتفقا على الانفصال قبل دخولها المعتقل وفراره.

***

3- حكايا شهر العسل

دأب العروسان على السهرِ حتى الصباح، العروس تحكي وتبكي والعريس يُصغي، يتعاطف، يحضنها ويبكي، الحب والحزن والدموع، احتضنا الجسدين المرتبطين حديثاً بإلفة وحنان. هكذا قضى العريس وعروسه -المعتقلة السابقة- شهرَ عسلِ.

***

4- هديـــة

حرب طروادة اندلعتْ بسبب امرأة جميلة، وحرب البسوس قامت بسبب ناقة نادرة، والضجيج العالي الذي انصبَّ في ممر المعتقل بيَّنَ - عبرَ ثقب باب (مزدوجتنا)- شجاراً صاخباً بين معتقلَين اثنين بسبب

(فردة شحَّاطة) فتمَّ سوق السجينين بإشراف مدير السجن ومأموريه إلى حفلةِ ضربٍ مبرحٍ حتى سيلان الدماء. رفيقتُنا أخفقتْ في احتمال ما تراقبه، وخنقتها كلمات الوصفِ التي تنقلها إلينا، فحلّتْ مكانها أخرى لم تسعفْها عبارة نقلٍ واحدة، فليس هذا ضرباً مبرحاً بل خبطاً، وليس صراخاً ما يطلقانه بل خوار حيوانين يُذبحان. عصّي وخراطيم وكابلات رباعية، تَنْظمها تعليمات وتحذيرات وتهديداتٌ وشتائم. لكن ما حدث فجأةً علا فوق تشابك الجلادين والضحيتين. حركةُ جريٍ فرديٍ سريع صاخب تَخّلَّف عنه لحاقُ أقدامٍ انتهى بارتطامٍ مُدوٍ خلَّفَ حطاماً هائلاً، ساد بعده هدوءٌ لحظيٌّ مرعبٌ أعقبته أوامرُ وتعليمات وحركات جمَّدتنا في أماكننا كما جمَّدت عقولنا التي لم تُفلح بتصوِّرِ ما حدث، نشطتْ بعدها مخيلاتنا في استحضار الأسوأ. قبل أن نبدأ خروجاً متتابعاً من ذهولنا، بادرت رفيقتان نشيطتان منا وفاعلتان بالسعي، فتصرَّفتا، واحتالتا إلى أن أُحضِرتا -وسط توترنا الجماعي الشديد- تفسيراً لما حدث: فلقد خان الاحتمالُ أحدَ المعاقبَين ولم يستطعْ صبراً فقرر الخروجَ طوعاً، اخترق الدائرة المغلقة، وانطلق كسهمٍ، فاجتاز كاملَ الممرِ بلحظاتٍ وانتهى بصدمِ جسمه بالباب الزجاجي الضخم لغرفة الممرض فتداخلَ الجسمُ البشريُ مع الحاجز المتداعي وتعانقا حتى صَعُبَ فصلُ الخشب عن الدماء، واللحم عن الزجاج. بهذه البساطة (العاقلة) تمكن أحد المهانَين المذلَين المُهَمَّشين الخروج من حقل العنف والتعذيب، لكن المريع بعد ذلك أن طرف الشجار الآخر تفحَّصَ محيطه العبثي بعينين باحثتينٍ عن هدفٍ زجاجيٍ آخر قبل أن يرمقَ جسد رفيقه المنقول سريعاً بنظرات فيها حسد أكثر مما فيها اعتذار أو وداع. حين أُعيدَ مكبلاً إلى مهجعِه أثار إشكالاً مجنوناً آخر، أصرَّ على إهداءِ مدير السجن فردةَ (الشحّاط) الأخرى .

***

5- جميلة

كيف يمكن تصور وجه بلا ملامح؟ بلا حزن أو فرح، بلا سعادة أو كآبة، بلا فعل أو رده؟ أخشى أن أوصافاً كهذه تكاد تنطبق على جسدٍ نحيلٍ يتحرك بلا حيوية أو كسل، بلا سرعة أو تثاقل، ينام ليستيقظ، يستيقظ لينام من جديد، يُحضِّر طعاماً قد لا يتناوله، ويعيد جلي صحوناً قليلة نظيفة، يفتح مذياعاً قد لا تتحرك إبرته أياماً وقد يغفو من دون أن يسكته، يقلّب صفحات كتابٍ لا يرى سطوره أو كلماته، يتحدث بأبلغ لغات الصمت، ويصمت ليكون الصمت من أبلغ اللغات، إنه جسدٌ يخصُّ جميلة .

جميلة الفلسطينية ابنةُ مَدْرسةٍ غيفاريةٍ[43] في الفكر، آمنت بالإضرار بالمصالح الإمبريالية طريقاً لاسترجاع الأرض وخدمة الإنسان. جميلة لم ترفع سلاحاً ولم تقتل أحداً. جميلة -تنظيمياً- حلقة عادية في سلسلةٍ انكسرتْ وانفصلت ثلاثاً: أولها حصدها رصاصُ رشاش كثيف، وثانيها رُفعتْ رقابُها عالياً على حبالٍ متينة لزجة، وثالثها امتلكها حصنٌ أبدي صحراوي[44] وحلمها الجامعي سقط صريعاً في عتبته، جميلة زوبعة احتقانات صبرٍ مرير ذرواتها: حبوب مسروقة تصرع جملاً، قطع أوردة رسغين، اشتعال لحمٍ بشري. جميلة بُشِّرتْ بمؤبدٍ استُدرك تخفيفاً إلى مئة عام وعام. جميلة كفَّت عن حساب أو سباب، تماماً كما كفت عن انتظار أحد أو شيء، دفنت ثمانية عشر عاماً وخرجت محنطةً بنت سبعة وثلاثين. جميلة غير مشغولة، فخطيبها كان من سلسلتها وأنشوطته كابوس عنقها الليلي .

[43] نسبة إلى تشي غيفارا
[44] سجن تدمر

6-   حساب.. على جلدة كتاب

في حصةِ فراغٍ سمعتْ التلميذةُ كلاماً لم تستسغْه، فكتبت على كتابها بقلم الرصاص عبارةً جوابيةً ساخرةً غفلتْ محوَها قبل أن تقع جلدةُ الكتابِ في حدقةِ المدرِّسِ الذي ارتعدَ هلعاً لم يبارحْه إلا بعد أن ساقها إلى الإدارة حيث المدير والموجه وبضعة مدرسين، ما إن قرأوا العبارة حتى غدا حالهم كما حال زميلهم، ولم تتحسَّنْ أحوالهم إلا حين وصلتْ مفرزةٌ أمنيةٌ ساقتْ الفتاةُ الصغيرةُ إلى فرعِ الأمن ومنه إلى أحد أقبيته وبعدها إلى سجن النساء. خلالَ مسيرتِها من مدرستها إلى سجنها لم تصدفْ سوى فتيات لسْنَ من جيلها، ونساء من كل الأعمار، ولسببٍ مجهولٍ أُودعتْ في مهجع القضائيات ومنهن قاتلات وداعرات ومحتالات ومهرِّبات مخدرات، ولما كانت في وضعٍ أشبه بكابوسٍ في منام غير قابل للتفسير والعنوان، ولأنها في جهلٍ تام لطبيعةِ تهمتِها وجريمتِها وإجراءات عقابها السابق والحالي واللاحق فإنها حارتْ قليلاً قبلَ أن تقررَ صمتاً طويلاً استغربتْه السجينات اللواتي حِرْنَ أيضاً بالتلميذة القادمة إليهن بلباسها المدرسي الرسمي الذي يكاد يكون طفولياً، فبلَّغنَ السجينات السياسيات. السياسيات تقدميات وأصوليات تصرَّفنَ سؤالاً وتحرِّياً واستنتاجاً قبل أن تجد طالبة المرحلة الثانوية نفسها على مشارف رؤانا .

الفتاة الصغيرة الساذجة غدتْ بعد سنين لماحةً ومهتمةً وقارئة نهمةً ومحاوِرَةً نبيهةً ولافتةً إلى درجةٍ كدنا ننسى أنها لم تكن يوماً منا، ولم تدخل إلى هذا المكان معنا. وحين خرجتْ من سجنها أدهشتْ أهلَها وأقاربها كما جرى سابقاً وأدهشتنا.

***

7- ليلة رأس السنة الـ..

- ❖ في منتصفِ ليلِ رأس السنة الأولى لاعتقالِنا ارتفعَ صوتُ غنائَنا عالياً قوياً بأغنيةِ مارسيل خليفة:

منتصبَ القامةِ أمشي

مرفوعَ الهامةِ أمشي

في كفي قصفةُ زيتونٍ

وعلى كتفي نعشي...

وقد ردَّدَت جدرانُ المهجع العتيق صدى أصواتنا...

- ❖ في منتصفِ ليل رأس السنة الثانية لاعتقالنا غنَينا -أيضاً بصوتٍ حرصنا على إبقائه عالياً ما أمكن- أغنية مارسيل الثانية:

شدُوا الهمة.. الهمة قوية.. هيلا.. هيلا.

- ❖ في منتصف ليل رأس السنة الثالثة لاعتقالنا غنينا بهدوء أغنية فيروز:

عالهدا.. عالهدا.. عالهدا..

حكايات الحب البيقولوا ما أسعدا..

- ❖ في منتصف ليل رأس السنة الرابعة لاعتقالنا لا أعرف ما هي الأغنية التي غنتها رفيقاتي لأني في ذلك المساء كنت حزينة جداً، بكيتُ كثيراً وذهبتُ إلى النوم باكراً .

8- عينٌ قُبالةَ مخرز

لأنها شبَّتّ وسط مفاهيم الحق والعدل والكبرياء المدعمة بمقولةِ (عين بعين وسن بسن)، رأت في اعتقالها ظلماً وجَبَ دفعه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حين سدَّدَ لها المحقق صفعته الأولى؛ لم تُخضِعْ فعلَه هذا لبصيرتها بل لبصرِها، وجاءتْ ردةُ فعلها -بلمح البصر- سريعةً ومفاجئةً لكل الحضور، باغتته بصفعةٍ مدويةٍ لم تخلِّف لديه ألماً بقدر ما خلّفتْ دهشةً، فأمرٌ كهذا لم يكن وارداً في حساباته أبداً .

اقتيدتْ مُعصَبَةَ العينين مقيدةَ الأيدي والأرجل إلى حفلة تعذيبٍ مهولةٍ برهنت أن الحساب والعقاب لا يتناسبان أبداً مع مستوى الخطيئة أو الجريمة، أعادوا فتاتنا مطويةً محمولةً وبحالةٍ رثة خالفتْ أعلى مستويات تصوراتنا عما في قدرة الإنسان أن يفعل بأخيه الإنسان. أعادوا الفتاة الممشوقة الجذابة ذات الرأس المرفوعة، لا كما أخذوها. لا بد أنهم أرادوا تحويلها إلى أنثى أخرى تُمسكُ يدها ولسانها وقلبها لتحفظ جريان أنفاسها في صدرها.

***

أميرة.. تبحث عبثاً

أملٌ جديدٌ يُطِلُ من عيني أميرة، يتألق مع قدوم كل معتقلَة جديدة وكل زيارة لها أو لأخريات. سؤالها التقليدي عنه اسماً ومصيراً أو تحديد زمنٍ ما، ويخبو بريق العينين من جديد. تلوذُ بالصمتِ وتنكفئ، تتقلص، تنزوي بعيداً، ما من خبر أو علم، ليس هناك من رآه أو عايشه أو يعرف إحداثياته (قبل، في، بعد). رؤية أميرة في الأماسي السجنية تُقّطع نياط القلب. كانت تجوبُ الباحةَ الصغيرة وحيدةً، يدٌ على صدرِها وأخرى تحملُ منديلاً على جبينها، دموعٌ دائمة في مآقيها تتزاحم خلفَ نظارتها الطبية. أحسسنا جميعاً أننا بصددِ حدثٍ جللٍ يفوقُ طاقة احتمالنا مجتمعةً ولا يقبل القسمة ليكونَ أخفَّ وطأةً.

مصيرُ زوجها اختزل كلَّ حياتها، تأكدت من اعتقاله وتعذيبه الشديد، وكل ما تلا ذلك كان غائماً قصداً أو عفواً، وكأن إجماعاً ما رأى في الصمتِ لعبةَ مخادعة أو مخرجاً مؤقتاً معقولاً. امتلكنا نحن قدراً أكبر من حيثياتٍ وتفاصيلَ قادتنا إلى افتراضٍ مرعبٍ لم يستطع أحدٌ تأكيده أو نفيه، وقنعنا أو أقنعنا ذواتنا بجهل أو تجاهلِ المصير الحقيقي عَلَّ أعجوبة ما تُكّذِّب الحقائق والظنون، فالخبر حُمِلَ إلينا مهزوزاً ومتعرِّجاً بما يكفي، واللسان يعجز أن يتحرك في فجوته ليصوغ عبارةً بحجم حدثٍ يخصُّ شاباً خلوقاً مثقفاً مميزاً شكلاً ومحتوى، قد سُمعتْ

صرخاته والتقط أنينه وفاق تعذيبه احتمالَ جسدِ حصان، ثم.. ثم.. ثم لم يعد يُرى ولم يعد يُسمع وكأنه (فص ملح وذاب) وتبقّى أملٌ أرفع من شعرة أن يظهر أثرُه في السجن الصحراوي. تقاطعت المعلومات ونفتْ أخبارُ الصحراء ذلك.

دموع أميرة تحفر في وجنتيها أخاديدَ، وتفعل لدينا فعلَ سياطٍ تلسعُ لحومَنا، كانت دموعنا تهدُّ ما تبقى منا، ويوقظ نشيجُها ليلاً كل نزيلات المهجع الكبير.

على دروبٍ طويلة وشاقة، ولسنوات ثلاث تلتْ خروجها من سجنها دأبت أميرة على التردد على فروع الأمن سعياً لمعرفة مصير زوجها، وعقب مقابلةٍ أخيرة قصيرة رسمية سُلِمت ورقةٌ رسميةٌ مختومةٌ ممهورةٌ بتوقيعٍ، فكفَّت شهرين اثنين عن البحثِ عنه حياً، بعدها اجتاحها هاجسُ العثورِ على جثمانه أو قبره، وكان فشلها في هذا ذريعاً، ما بقي لها ولرفاقه وأهله منه اسم يُذكّر بعشيرة عربية أصيلة، وصور فوتوغرافية لشابٍ عرفنا سيرته طالباً ومهندساً وعرفنا عشقه لزميلته في المهنة أميرة، كما عرفنا عشقهما المشترك للوطن والإنسان ولابنتهما وحيدتهما التي ابتعدا عنها بمصيبةٍ ثنائية قسريةٍ انتهت بفقدانٍ يوازي موتاً تراجيدياً أكيداً .

ويحي.. ويحكم. لهف نفسي وأنفسكم. ألا يحق لإنسانٍ أن يعرف كيف قضى عزيزُه؟ وماذا قال أو أوصى قبل أن يرسلَ زفرتَه الأخيرة؟ أفلا يحق لابن آدم وحواء أنْ يحصلَ عند مماته على حفرة تضمُّ رفاتَه؟. وأخيراً، أفلا يحق لأنثاه أن تحمل إلى كومةِ حجر أو ترابٍ زهوراً أو دموعاً؟. ختاماً: قولوا لي بربكم هل نحن جميعاً أولاد آدم؟.

***

ملاحظة: حين أحيينا في العاصمة ذكرى الإفراج الخامسة بدت أميرة

كخيط، واحتفظ زجاج نظارتها الطبية بالغشاوة الدمعية ذاتها... حين نجحنا في جرها إلى الحديث أشارتْ أنها فشلتْ في التصالحِ مع فكرة موتِ إنسانٍ بلا أثر بعد أن كان ملءَ السمعِ والبصر.

حبٌّ تحت المطر

عشقا السيرَ تحت المطر كلٌ على حدة، قبل أن يعشقاه معاً أكثر، ما أنْ تمطر حتى يخرجا للقاءِ بعضهما في المكان ذاته ليَمضيا معاً إلى لا مكان ليعودا مبلَّلين. يهجوه في سكنه الجامعي زملاؤه ويشبِّهونه بكلب الشوارع الذي لا صاحب له ولا مأوى يأويه من المطر. وفي سكنها يسمُّونها قطة شريدة تحت المطر.

ثرثرا تحت المطر طويلاً عن كل شيء وعن لا شيء، ودندنا فيروز ومارسيل، وأسمعا بعضهما أبياتاً من درويش ونزار والنواب. آنذاك كان للمطرِ طعم الحب والفرح، يسيران الهوينا حتى ينتهي المطر أو يدركهما توقيتُ السكن الجامعي فيفترقان ويتوجهان كسهمين كلٌ إلى غرفته مبللَين حتى العظام .

تابع عقب اعتقالها خروجَه المطري ليزرعَ طرقاتهما التي طالما ألفتهما معاً، أمِلَ الحصول على بعضٍ من بقايا طعم حب وفرح وأمل، ولأنه لم يحسْ إلا بملوحة دموعه فقد أدرك أنها لن تعودَ أبداً. أما هي فقد دأبت في أيامٍ ماطرة مماثلة على مخالفة كل رفيقاتها اللائذات بمهاجعهن لتخرج إلى باحة سجنها الصغيرة لتذرعها جيئةً وذهاباً رافعةً رأسها إلى أعلى علَّ حبات المطر تُهديها إحساس الحب والفرح والأمل، إلا أن ملوحة دموعها وحدها كانت بانتظارها دوماً، ولذا اعتقدتْ أنها لن تخرج

من معتقلها أبداً .

في المهجع مازَحْنَها: "قطة شريدة... رومانسية مطرية... حب تحت المطر..." عطستْ مراراً وتمخَّطَتْ وسعلتْ، أرغمْنَها على استبدال ملابسها الخارجية والداخلية وأودعنها زاويةً دافئة وابتعدْنَ، أخرجتْ ورقةً وقلماً وشرعتْ من جديد في كتابة رسائل طويلة مبللة لن تصله أبداً .

***

حكاية ليمونة

مجموعة "الخمسة الصغيرات" هي مجموعتنا التي تشكو دائماً أن موقعها في المهجع أسوأ همومها؛ فهو الأقرب إلى المرحاض حيث يتعثَّر مرور الغائط، وتنتشر فيه بزَّاقات (حلزونات) من طراز فريد نوعاً وضخامةً ونشاطاً يدفعه للتمدد والانتشار المتشعِّب حتى بلوغ فراشنا الرطب دائماً، وللحقيقة أعترف أننا خُيِّرنا -شكلياً- بين الإقامة (تحت) أي تحت الأقدام بعيداً عن المرحاض أو (فوق) أي على المصطبة قرب المرحاض، وقد عزَوْنا تخصيص أحد هذين الموقعين والدفع بقوة باتجاه المرحاض إلى حداثتنا السجنية التي لم تتجاوز السنتين، غير أن رفيقاتنا الأكبر سناً والأزمن إقامةً سجنيةً أَوْرَدْن سببين مختلفين تماماً. أولهما: وضعنا الصحي المُرْضِي مقارنةً مع الأخريات، والثاني: التزامنا الفكري المميز، حيث أننا سنكون الأقرب مجاورةً لزميلاتنا السجينات السياسيات الإسلاميات، وعلى هذا تقبَّلنا المكان بقناعةٍ ورضاً وحرصنا على تحسين ظروفه، وبذا بدونا طليعةً متقدمةً تفدي الأخريات صحياً وتحميهن فكرياً وسياسياً. كنا نتغامز ونتهامس إذ اعتبرنا أنفسنا ثغراً فكرياً متقدماً أمام المختلفات عنا سياسياً وفكرياً حتى حدود الإقصاء، فقد أوصلتنا نقاشات حارة وحادة إلى قناعات مفادها أن هذا الوطن لا يحتمل فكرين اثنين وعلى أحدهما -بالتأكيد- إخلاء الساحة للآخر، ولم يكن لدى أي من الفريقين نية الإخلاء بأي حالٍ من الأحوال، وآنذاك

اعتبرت هذا الاستنتاج مبَرراً ومنطقياً، إلا أني لاحقاً فهمت، والحقيقة فهمتُ متأخرةً جداً أن الوطن يمكنه احتمال كل ألوان الطيف البشري على مبدأ الوطن للجميع، وأن الاختلاف لا يفسد للود قضية، ولم يكن دليلي في ذلك تجربة بلدان أخرى بل بلادنا وأسلافنا بالذات، وفي مطلع القرن العشرين تحديداً، في أواخر عهد الاحتلال العثماني وكامل الاحتلال الفرنسي وعقد ونصف عقد بُعَيد الاستقلال، ومهما تكن الأحوال في أيام خلت فقد تألَّقَتْ مجموعتنا بسبب أمر إجرائي آخر أصبح لعدة أيام مصدر اعتزازنا، حدث الأمر ببساطة شديدة إذ شاءتْ الصدفة أن تخلّفتْ -لدينا- عقب إحدى الزيارات سلعة استثنائية، ليمونة، (ليمونة عليها القيمة)، الأمر الذي بعث في نفوسنا سروراً عارماً جعلنا نتناقلها من يدٍ إلى أخرى، وأنوفنا اندست في قشرتها حتى كادت تخترقها، وسحبنا جميعنا أنفاساً حتى ظننا أن رائحتها غطت أجسادنا، في مساء ذلك اليوم حملنا ليمونتنا العتيدة ومرَّرناها إلى أيدي رفيقاتنا الثلاثين، والتقطنا في عيونهن حسداً بعثَ في نفوسنا سعادةً فوق اعتزاز. قذفتها سميرة عالياً، وستون عيناً لاحقتها خشية وقوعها، ولكنها أمسكتها بشطارةٍ ودسَّتها في صدرها فهاجمناها وانتزعناها عنوةً، حين وصلتْ إلى يد ميساء مسحتها بطرف بلوزتها وقبَّلتها وتظاهرتْ أنها ستقضمها فصاح بها ثلاثون صوتاً معنفاً. قالت: "حسنٌ... أغمضنَّ عيونكنَّ وتخيلّنَّ أني قطعتها بالسكين إلى نصفين"، ومررت يدها على منتصفها، وتابعت: "الآن لدينا ملح كثير، خذْنَ منه ما تردْنَ، وضعن منه على كلِ نصفٍ مشبعٍ بعصير الليمون"، وأشارت بيدها كأنها تفعل ذلك حقاً... "والآن ابدأن بتناول العصير الليموني المملّح مباشرةً بلسانكن من الليمونة"، وشرحت الأمر وكأنها تفعل ذلك حقاً، وفاضت أفواهنا بلعابٍ كثيفٍ كان علينا ابتلاعه كي لا نختنق به، وانفجرنا ضاحكات قبل أن ننهال عليها باللعنات واللطمات. استرددنا ليمونتنا وأخذناها إلى زاويتنا. حرصْنا على

العناية بها حتى مرت أم مازن[45] بنا فحذَّرتنا أنها ستتعفن بعد أسبوع حتى ولو اقتنينا لها براداً خاصاً. صباح اليوم التالي حاولنا تأمين عدة السلطة أو التبولة وفشلنا، كما فشلنا في اليوم الثالث والرابع، ودأبت الرفيقات السؤال عن ليمونتنا وكأنها طفلةٌ نرعاها حتى تكبر فنزوجها.

في اليوم الخامس لمحنا خضاراً في مهجع سجينات الدعارة، ولم نسمح لأنفسنا الاقتراض منهن فصحن السلطة لا يبرر (فتح باب) معهن.

في اليوم السادس اختفت الليمونة، بحثنا في كل مكان، نحن الأربعة. دخنا. ذهبنا إلى المجموعات الأخرى، وسألنا عن ليمونتنا بهمٍ ولهفةٍ وأجاب الجميع بتعاطف وألفةٍ، لم نعثر لها على أثر .

بحثنا من دون كلل أو ملل حتى يئسنا، وحين عادت مجموعة المريضات عادت معهن أميرة خامستنا التي كانت في عيادة (الداخلية)، تلقيناها بالخبر المشؤوم الذي صغناه بشكلٍ مخففٍ خشيةَ إزعاجها بشدة، فصّلنا القولَ وشرحنا أين بحثنا حتى يئسنا، وجومانا ذكرت لها أنها أمَّنت للغد الخضار اللازمة، ولكن اختفاء الليمونة يخرِّب الأمر برمته، وأميرة استمعتْ وهزَّت رأسها وحارتْ، ولم تقلْ شيئاً، طلبت منها أن لا تزعل ولا تهتم. سخرتْ مني سوسن: "لماذا نهتم؟ كل يوم عنا كيلو ليمون حامض". أكَّدتُ أننا سنجدها وسنعمل السلطة بالليمون، وهزَّ الجميع رؤوسهن، وأميرة تنهدت، ونهدتها لم تعجبني ولم تريحني، تبادلتُ والأخريات نظرات وإيماءات، وأميرة لم تنطق بكلمة، سالتُها: "شو القصة؟" أخذت تُرتِب أغراضها، صرختْ جومانا: "شو القصة؟"... وزاغت نظرات أميرة، وقالت إنها تريد الذهاب إلى المرحاض، وقفتُ بطريقها، "شو القصة؟"... جلست القرفصاء، أسندت مرفقيها إلى ركبتيها ورأسها إلى يديها، ولم أستبدلْ لازمتي، كرَرْتها بلا رحمة، ولكن

[45] حُكِمتْ بالإعدام بتهمة سطو مسلح وقتل

بصوتٍ أكثر هدوءاً وأعمق ثقة، ازداد الحضور كثافةً وأحاط بنا كإسورةٍ وأميرة بدتْ في مركز الدائرة والحدث. شملتنا بنظرة وجالت دموعٌ في مأقياها، وصمتنا المطبق ساعد صوتها الضعيف الوصول لأسماعنا، قالت: "إنها أكلت الليمونة". وصل سخط الأربعة الصغيرات إلى ذروته، فانصبَّت عليها أسئلة اتهامية استفهامية استنكارية كرَّستها نبعاً للأنانية والسرقة والكذب والخداع والطعن بالظهر... إلخ... إلخ .

ولما عدِمنا منها أية ردة فعلٍ مناسبة أو مقاوِمة لجأنا إلى شرحٍ أهدأ وأوفى، فذكَّرناها بأن أهلها لم يجلبوا هذه الليمونة، وأنها لنا جميعاً، ثم عرَّجنا على جهودنا اليومية المضنية بالاشتراك معها لتأمين عدة السلطة أو التبولة، التي كادت تنجح لولا (عملتها السودا)، ومعظم الرفيقات تساءل بنسبٍ استنكارية مختلفة "كيف لها أن تفعل ذلك؟". من جديد نطقت أميرة فجاء صوتها بنصف بكاءٍ يُنذِرُ بعويل نخشاه جميعاً، قالتْ: "إنها مجرد ليمونة"، أصوات عديدة أعلاها أصوات "الأربعة الصغيرات" أجابتها: "ليمونة كاملة... ليمونة كاملة... ليمونة كاملة يا ست أميرة". دسَّت أميرة رأسها بين ساقيها وغطته بساعديها ولم نعدْ نرى سوى شعرها الذي استغربنا وجود بضع شعرات بيضاء في أعلى الرأس.

حينها فكَّرتُ أنَّ عليَّ أن أتفقدَّ شعري بانتباه أكبر، وأننا يجب أن نعيد النظر بتسمية الخمسة الصغيرات، فالحقيقة الدامغة ترفس الادعاء الكاذب، فنحن لم نعدْ صغيرات ولكن علينا أن لا نصبح كبيرات بهذه السرعة القياسية..

حين ارتد بصري ثانيةً، استغربتُ تقلص حجم أميرة في المكان حتى بدت بحجم طفلة صغيرة، دخلنا جميعنا صمتاً عقيماً حائراً، "ما العمل؟"، وكيف الخروج من هذا المأزق؟. كانت عندنا مشكلة اسمها ليمونة، وصارت عندنا مشكلة اسمها إنسانة، انسلّت ميساء إلى داخل

الطوق بحذرٍ واقتربت بطيئةً حتى لامست أميرة، مسحت رأسها وانحنت فقبَّلته ثم استقامتْ، بصوتٍ هادئ حنون وخيط سخريةٍ مازحٍ منغوم سألت: "أميرة يا أميرة ولِك لا يقوم أكلتِي كل الليمونة يا أميرة؟"

بدأنّ الابتسام وتنهَّدت أخريات، وأعادت ميساء السؤال وهذه المرة هزَّت رأسها مرتين من دون أن ترفعه، اعترفتْ مرةً أخرى ولكن من دون صوت، أعادت ميساء السؤال بطريقة أكثر طراوة وكوميديةٍ لدرجة أن أميرة رفعت إليها عينين دامعتين ووجه فيه شبح ابتسامة، زاد انفراجنا مع انفراج أميرة، وما إن شرعت بتوجيه سؤالها للمرة الثالثة حتى رافقناها جميعاً كجوقة منسجمة بصوت واحد واعد بانتقال الأمر من المأزق إلى الحل ومن الجد إلى الفكاهة، وابتسمت أميرة وبدأ حجمها بالازدياد حتى جلست ومدت ساقيها وقوَّمتْ ظهرها فطالت رقبتها، قالت أميرة: "إنها أكلت الليمونة كلها عن بكرة أبيها بلحمها وشحمها وبزرها وعصيرها وعظمها وقشورها" واجتاحت الجميع عاصفة ضحك عارمة، أوقفنا أميرة أمام ميساء التي تنحنحت قبل أن تعلن أنها الآن قاضي محكمة الجنايات الذي ينظر في دعوى من أكلت الليمونة كاملة ويجدها مذنبةً ويصدر حكمه عليها كما حكم أم مازن من قبلها بالإعدام شنقاً حتى الموت، صرخت سحر: "يحيا العدل" وصاحت رنا: "هاتو الحبال يا بنات ."

***

اسم.. وهوية.. وقضية

عرجَّت ميٌّ على مدينتي قاصدةً محافظة شمالية شرقية وزارتني؛ تعانقنا وبكينا وابتسم أطفالي، ووافقتْ على مشاركتنا الغذاء، تنّقلنا ما بين الغرفة والمطبخ، واجتررنا ذكريات وأحداثاً جامعية وسجنية وما بينهما، من أسخفها حتى أهمها، ومن أحلاها حتى أمرّها، نقلتْ إليَّ أخبار بعض رفيقات السجن وزميلات الجامعة وعملهن أو سعيهن خلفه أو سفرهن، زواجهن، طلاقهن أو استمرار عزوبيتهن وبدء عنوستهن، ولم نفوِّت الحديث عن رواية أصدرتها مؤخراً إحدى رفيقات سجننا التي طالما بدت حافزاً لصمودنا ورافعةً لمعنوياتنا، بينما كدنا نُجمع أن روايتها التي رصدت تجربتنا السجنية خذلتنا بتركيزها على مثالبنا وهفواتنا وكبواتنا في لحظات ضعفنا الإنساني التي أفتينا بشرعيتها، وقد استحقت رفيقتنا -كاتبتنا- احتجاجنا وسخطنا وحتى مقاطعتنا. فقد سمَّتها إحدانا رواية تصفية حسابات شخصية بائتة مع مُختلِفات معها لأسباب سخيفة في أجواء سجنية أكثر سخفاً، ووصلت الأمور إلى حد أنها لم تدعَ إلى ذكرى الإفراج السنوية التي نحييها في العاصمة دورياً. استدرَكتْ ميٌّ أن هذا كله لا يمنع من اعتبارها رواية جيدة من الزاوية الأدبية، فسارعتُ لتذكيرها بمقولةِ: إن الأدب الجيد ينبغي أن يخدم الفكرة الجيدة. هنا فاجأتني بأقوال حرتُ في تشخيص موقف ميٌّ الحقيقي منها، قالت: إن هذا ينتمي لعصور خلَتْ وعُمرٍ ولى هارباً، فالأدب الآن يخدم الأدب والعلم يخدم

العلم والحرب تخدم الحرب والحب يخدم الحب والمال يخدم المال والرجال تخدم الرجال، وبخبثٍ ابتسمت: (وإذا ما عَجبكْ يا ست سلام روحي انطحي راسك بالحيط). أجبتها: الأسهلَ أن أنطحَها وأُدخلَها بحيطٍ لا تخرج منه أبداً. سمع ابني الطرف الأخير من جملتي (المطبخية الشقية) فسارع لينقل لشقيقته أن أمه ستغدو خروفاً نطّاحاً، وسمعنا ضجةً وصياحاً مرحاً في الغرفة ما أن تبيَّنا سببها حتى غرقنا في ضحك هز أعطافنا وجوانحنا. تعهدتْ ميٌّ بتجهيز السَلَطَة، وتابعتُ الطهو وقلي البطاطا، وركبنا مسالك شكوى هموم الحياة وتحولات الدنيا، وعرَّجنا على الدش، والكمبيوتر والموبايل وآثارهما الإيجابية والسلبية على البشر والأُسر والمداخيل، ثم انعطفنا لنلحظّ تدنِّي المواصفات والقيم والأخلاقيات، وضرائب الحفاظ على نقاء الذات والأولاد قبل أن نعود للشأن العام وهموم الوطن السياسية والاقتصادية والأثنية والطائفية، هنا ابتسمت ميٌّ، أعرفُ هذه الابتسامة جيداً بالشكل والمضمون، فخلف هذه الابتسامة يكمن أمرٌ مشوقٌ ما، خبرية ما، حزورة ما، ليست سطحية، فميٌّ أبعد ما تكون عنها. تساءَلتْ إن كنا لا نزال ننتمي إلى ذات الطينة وذات العجينة المشبعة بحب الوطن والإنسان بغض النظر عن المكان والزمان والجغرافيا والتاريخ والأديان، ابتلعتُ مشروعَ ضَحكةٍ واكتفيتُ بابتسامة ملغومة، هذا هو المدخل، ستدلف عبر بوابة وتصل إلى الباب وستطلب الجواب، ولن أنتظر، علَّقتُ بما يشبه نفاذ الصبر: (الآخرة يا فاخرة؟)، نطقتْ حزورتها الثمينة وكأنها سلسلة جواهر فريدة، بدتْ كلماتها مفرودة، متباعدة وكأن بينها نقاطاً وفراغات وإشارات تعجبٍ تعقبها إشارة استفهام ضخمة، (بتعرفي.. هوية.. سُلاف.. الدينية؟) لا بد أني قطَّبتُ جبيني، فسؤالها بدا لي فاقعاً، وهممتُ برد توبيخيٍ قاس قبل أن أعدلَ محاوِلةً مقايضته بكلمات هادئة لومِيَّةٍ مُقْنِعَة ما لبثتْ أن نطقتْها بدلاً مني، فأوشكتُ الظن أنها قرأتني وأعادت صياغتي بأفضل مما اعتزمتُ أن أفعل. قالت: إن السلطات سجنتنا من

مختلف الطوائف والإثنيات، سنة وشيعة ومسيحين، علويين ودروز واسماعيليين، عرب وكرد وشراكسة وأرمن وآشورين، وأن الدين لله والوطن للجميع، ولا أحد منا اختار دينه فأبوه نام مع أمه وبعد تسعة أشهر تحدَّد اسمه ومذهبه، فلا فضل ولا منقصة لنا في انتماء أسمائنا لنا وانتمائنا لطوائفنا وأعراقنا، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا إكراه في الدين. قامت ميٌّ على التوازي مع عبارتها الأخيرة بحركة مسرحية لافتة، أدخلتْ سبابَتها بأذنيها وشرعت بهز رأسها يمنةً ويسرةً وكأنها تناشدني الكف عن زخها بمزيد من السخافات التي لم أنطقْها بل حاضرتني بها، وقبل أن أوضحَ استحساني لمداخلتها وشجبي لهيئتها المسرحية المستنِكَرة، نصَّبت ذاتَها مدعيةً عامةً أو محاميةً أو قاضيةً أو ثلاثتهن في واحدة واسترسلتْ في دفاعها أو هجومها أو حكمها: (أبداً يا ست سلام فهذا كلام ينتمي إلى غير أيام، فالآن يقولون: الدين لله والوطن لله، والكافر يُحاسب الآن بين يدي نواب الله الأرضين وليس أمام الله، والمختلف معهم مختلفٌ -حكماً- مع الذات الإلهية، والعروبة ليست أمة وإنما الإسلام أمة، والسلطنة العثمانية لم تكنْ لبلادنا سلطة استعمارية بل خلافة إسلامية شرعية، ونضال البشر لأجل حقوق الحريات والتعبير والتنظيم والعيش الكريم غدت جهاداً لإعلاء كلمة الله وتطبيقاً لشرعه وحدوده وإقامة ديار الإسلام بمواجهة ديار الكفر والإلحاد – فسطاط الخير وفسطاط الشر، أما خلافات الفكر الإنساني الحقوقية والأدبية والفنية والجمالية؛ فقد غدت على السفور والحجاب وتعدد الزوجات وملك اليمين وطقوس العبادات وفتاوى الحياة اليومية وشروط الفوز بالجنة ومباهجها وأطايبها وكنوزها وبيان ضراوة التعذيب في جهنم، التي تحفل بها وتحتفل مئات الإذاعات والمحطات الفضائية على امتداد الليل والنهار، وهذه الهموم اليومية لا تنفي ما هو أكثر أهمية وخطورةً، منها الموقف تجاه الطوائف غير الناجية، ومنها دور الفقيه وولايته أو طاعته وعصمته، ومنها إعادة بحث أحقية خلافة رسول الله

التي أودت بحياة ثلاثة من أقرب صحابته وآلت إلى معاوية لتغدو ملكاً وراثياً مع يزيد، ومنها دماء الشهيد الحسين وآله، ومنها العلاقة مع الذمِّيين الكتابيين (المغضوب عليهم والضالين) المنصوص عليها في سورة الحمد والتي تعني وفق (تفسير الجلالين) اليهود والنصارى، ومنها... ومنها... ومنها. بدت ميٌّ في ذروة الأسى والمرارة والخذلان، وبدا صوتها نازفاً علقمياً وعلى حدود البكاء، واختنقتُ حتى تعذر عليَّ النطق. انتقلنا من المطبخ إلى الغرفة مع بعض الصحون الفارغة والبطاطا المقلية والسلطة وشرعنا بترتيب الطاولة بصمت، كنا ننتظر وصول زوجي، ولكن صمتَنا بدا محيِّراً أو حزيناً وانتقلتْ عدواه إلى أطفالي الذين استكانوا وكأن على رؤوسهم الطير، يبدو أن حس الطفل لا يخونه، وكان عليّ أنا بالذات أن أجد مخرجاً يعيد لحاسة السمع دورها، وآثرت الهبوط من (الهضاب إلى سرير النهر)، تسلَّحتُ بابتسامة معقولة، تنحنحتُ، ووزَّعتُ على الصحون الفارغة معالقَ وفي مركز الطاولة ثّبَّتُ الملاحة. قلتْ: "حسناً أنها نجحت في زعزعة معلوماتي عن سُلاف، ولم أعدْ متأكدة أنها مسلمة، ولكن بالتأكيد هذا لن يعني لي شيئاً يجعل من سُلاف شيئاً آخر بنظري". اعتدلتْ ميٌّ في جلستها وقوَّمتْ جزعها، حاولتْ أن تطلقَ ضحكة مجلجلة -فهي عادة تفعل ذلك في مواقف مثيلة- ولكني لم أحصل إلا على غرغرة تنتمي إلى ضحكات مغتصبة تقترب من أداء واجبٍ ثقيلٍ ما، أرادت النطق فأوقفتُها. أفهمتها أني أريد سماع ميٍّ وليس شبحها، وفهمتني، تطلَّعَت بشغف إلى صغاري، سألتْ عن أعمارهم وصفوفهم وتساءلتْ عن شطارتهم والمواد الدراسية التي يحبونها، وانتقلت إلى الهوايات التي يمارسونها. رفعتُ صحناً زجاجياً ضخماً مليئاً بالبطاطا المقلية لأعلى رأسي، وأشرتُ، خُرْسانياً، أني لا بد قاذفته إن لم توقفْ ثرثرتها وتعود إلى سرير النهر، لنتابع حكاية سُلاف، حقيقة الأمر أني لم أكن مهتمة بانتماء سلاف المذهبي بل باستعادة ميٍّ أولاً وبالقصة الطريفة ثانياً. ضحكتْ ميٌّ ضحكتها المعهودة، أنزلتُ

صحني من عليائه فطقطقتْ عليه بمعلقةٍ، واستشارت الأطفال فهزوا رؤوسهم. قالتْ إنها لطالما اعتقدتْ أن سُلاف مسلمةٌ حتى زارتها الأسبوع الماضي في مدينتها أثناء أدائها لمهمة وظيفية في محافظتها، حين شرعتْ بنقل الطعام إلى الغرفة ساعدتْها ابنتها الصغيرة فلّفّتّها صليبها الصغير المعلَّق في عنقِها، وقد فوجئتْ، فاسمها وكنيتها وثقافتها لا توحي بذلك، لحقت بها في المطبخ، وبحماقة نسائية وخبطة من رجلها، (ولِكْ يا سُلاف انتي مسيحية؟). وطرافة الموقف فرضتْ ذاتَها، اندارتْ سُلاف مستغربةً وقد توسعتْ حدقتاها، مسحتْ يديها بفوطة قريبة وقذفتها في وجهها ووضعت يديها في خصرها وبكوميدية عالية: "ولِك يا ميٌّ لا يقوم انتي مسلمة؟"... جلستْ ميٌّ وجلستُ قبالتها، الأولاد مأخوذون برواياتنا وبصحن البطاطا المقلية وساعة الحائط بانتظار وصول (بابا)، يبدو أن دهشة مي تجدَّدتْ أما دهشتي فكانت مضاعفة، وعجزتُ عن التفسير بثقةٍ إلا بُعَيد مَشاركة زوجي اللاحقة وقيامنا -ثلاثتنا- بإعادةِ فصفصةِ الأمور وتقليبها وإعادة ترتيبها مستعيدين أحداث ومواقف وحكايا. الحقيقة أني عاشرتُ سُلاف وميٌّ في الجامعة والمعتَقلات التي مررنا بها لفترات زمنية متفاوتة، كما مارسنا نشاطات سياسية واجتماعية ووطنية ومناسبات فلسطينية قبل ذلك في حقولٍ متقاربة، في الواقع كنية واسم سُلاف وطبيعتها توحي بانتماءٍ ديني إسلامي بعكس ميٌّ وكنيتها ونمطها الحياتي، يا إلهي! كانت مفاجأة ذات دلائل قد يراها المتزمتون الآن مستهجنةً أو مبالغةً، في حين كنا نراها ولا أعرف إذا كنا لا نزال نراها حضاريةً ووطنيةً وإنسانيةً، الأمر الذي بهرَنا أننا اكتشفنا ذلك بعد مرور أعوام عدة ليست بالقليلة، اعترفنا لبعضنا أننا نجهل انتماء معظم صديقاتنا أو رفيقاتنا المذهبي، ولكننا اعترفنا أننا نعلم أصولهن المدينية أو الريفية، يا إلهي! هل هذا خطأ أم صواب في هذه الأجواء المرعبة المحيطة بنا، أجواء ما يسمّونه الآن على القنوات الفضائية بالصحوة الدينية. جاء زوجي، باشرنا طعامنا، والتهمنا

معظم الرز والفاصولياء وكل البطاطا المقلية وزوجي قضى على السلَطَة كلها وامتدحَها ناظراً إليّ بامتنان ملغومٍ غادرٍ فلَفَتَتْ ابنتي انتباهه إلى أن شكرَه ينبغي أن يُوجهَ إلى الخالة ميٌّ، عندها رجاها أن تعلمَني كيف تُصنع السلطة الجيدة، العظيمة، تناولنا الشاي وفصفصنا كومة بزر دوار الشمس، ومع هذا وذاك سردنا له طرفتنا التي حملتها إلينا اليوم (ميٌّ) ولم يضحك كما توقعنا، بل ابتسم بحيادية عالية خذلتني، تشاغل قليلاً وفكر، ثم نطق، إننا للأسف لا نزال وطن المذاهب والعشائر والغرائز ما قبل المجتمعية، أي ما قبل الدولة الحديثة، وصورة الانفلات الطائفي العشائري العرقي المحزن الذي يُمزِّق العراق وأبناءه يُمزِّق قلوبنا وقلوب البشر الأسوياء. تصفَّح زوجي الإنترنيت البارحة فحظي بمقالةٍ مميزة لطالب حمصي في جامعة البعث. خبرية زوجي صبَّت زيتاً في نارنا، يكتبُ الطالب عن كافتريات ثلاث لثلاث كليات؛ أولاها يرتادها الطلاب والطالبات المسيحيون بملابسهم العصرية وصلبانهم في أعناقهم، والثانية للطلاب والطالبات العلويين بمعلَّقاتهم (سيف ذوالفقار) و(خيط الرسغ الأخضر، الخلعة) ولهجتهم الريفية (القافية) والثالثة للطلاب السُّنةِ بملابسهم الفضفاضة البيضاء ولحاهم الطويلة وحجاب الطالبات و(مانطوياتهم) السوداء الطويلة، أما الموسيقى فبدتْ فاقعة الاختلاف، ففي الأولى تصدح نانسي عجرم وطوني حدشيتي، وفي الثانية (حاصودة) علي الديك، وفي الثالثة الأناشيد النبوية، وحين خرج مقهوراً مهزوماً من الاصطفاف الطائفي في الكافتيريات الثلاث صادف أستاذاً جامعياً بملامح آسيوية يسأل عن جامعة البعث، وبدل أن يحظى الغريب بجوابٍ تفاجأ بسؤاله عن دينه، وحين حار الأستاذ الجواب قذفه بنصيحة مبهمة، (إذا كنت بوذياً فلا تدخل الجامعة لأن كافتيريا البوذين لم تفتح أبوابها بعد). أرادت (ميٌّ) التعليق على المقالة الطريفة التي أدخلتْ حزناً بقدر ما أدخلت طرافةً مضحكةً، حقاً شر البلية ما يضحك، لكن زوجي أعلمنا أنه اليوم حظي بمقالةٍ جوابية محترمة في

غاية الروعة، وصاحب المقالة يدَّعي أن عمره وثقافته يسمحان له بعقد مقارنة ما صار إليه زماننا الآن بما كان عليه أيام زمان. ذكرَ أن يوسف العظمة بطل ميسلون -الذي أبى أن يدخل الفرنسيون دمشق إلا على جثته- هو كردي من نسبة سكانية لا تتعدى العشرة بالمائة، وإن قائد الثورة السورية الكبرى عام 1925 كان درزياً من نسبة سكانية لا تتعدى ثلاثة بالمائة، وفارس الاستقلال فارس الخوري، رئيس الوزارة، رئيس البرلمان لدورات متعددة كان ينتمي إلى أصغر الطوائف المسيحية في البلاد التي لم يتجاوز أفرادها المئات، ناهيك عن صالح العلي ثائر الجبال العلوية وفوزي القاوقجي ابن حماه البار وابراهيم هنانو بطل جبال الزاوية... وغيرهم... وغيرهم. أما الشريف حسين المؤمن المسلم فقد أطلق رصاصة الثورة الأولى والأخيرة على رأس السلطنة العثمانية الإسلامية. الدين، المذهب، الطائفة، العشيرة، ماذا بعد؟. حاولت ميٌّ أخذ منحى المحاور المعارض (يقولون إن الإسلام هو الحل). ابتسم زوجي، أي إسلام؟ السني، الشيعي الإسماعيلي، الدرزي؛ بعد غياب الرسول عن الساحة الدينية والدنيوية اغتيل ثلاثة خلفاءٍ من خلفائه الأربعة، وحدثت الفتنة الكبرى التي حصدت آلاف الصحابة، وصار معاوية خليفةً وآلت إلى ابنه ملكاً وراثياً، ولم يأتِ الحل للناس على يد الإسلام الأموي الذي ذبح من آل البيت الكثير وعلى رأسهم حفيدي رسول الله الحسن والحسين، ثم هدم الكعبة قبل أن يصلب ابن الزبير وأصحابه. وعلى يد الإسلام العباسي تم ذبح الأمويين ونُبشت قبورهم وأحرقت جثامينهم، وأضطجع أحد الخلفاء العباسين على سجاديد تئن وتنزف تحتها أجسام رجال ونساء أمويين، وجاء بعدهما حلولٌ إسلامية كثيرة، فقام الإسلام الفاطمي الذي انتهى إلى الحاكم الإله، ثم الإسلام الفارسي ثم التركي، وتخلَّلت هذه الحلول ثورات الزنج والقرامطة وقبلها حركات الردة وبعدها قتال وقتل وحرق وتمثيل وصلب، ألا تذكرين يا مي قصة الحلاج والسهروردي وطريقة تقطيعهما والتمثيل بهما؟. حسنٌ..

حسنٌ هذا عندنا.. ماذا عندنا وعندهم هل نسينا الحروب الصليبية في بلادنا؟ الحروب الأوربية مائة عام بين البروتستانتية والكاثوليكية. ماذا بعد؟ المجتمعات البشرية رأتْ قيام الدولة التعاقدية بين البشر من أجل البشر وفي سبيل البشر وبإرادات البشر، وارتأوا أن يكون الدين والمذهب علاقة وجدانية بين الخالق وعبده وسلوكية راقية بين البشر أنفسهم بما يرضي الله وعبيده الملتزمين بالقانون البشري الإنساني، هل نستفيد من تجارب البشر الناجحة؟ مثلاً الاتحاد الأوربي الذي وضع كل حروبه وخلافاته الدينية خلفه واتجه للتفكير بالإنسان والحياة على الأرض، وهل نستفيد من مآسي العراق ولبنان ورواندا وبنغلادش.. و.. و.. هل نسير بأقدامنا إلى فتنٍ طائفية سنية شيعية مسيحية أم نعلي شأن الإنسان فينا، ونحكَّم الضمير ظل الله على الأرض في مصائرنا وأطفالنا. طالت فترة صمتنا... أنهى زوجي محاضرته المهمة والمفيدة، أنا استمعت إليها بشغف، وأحببت زوجي أكثر، تنهدتْ (ميٌّ) وقالت: إنها ترجو أن يفكر كثيرون كما يفكر زوجي. الأطفال غادروا للنوم باكراً، عرضتُ المبيت عليها بإلحاح، وأحضرت لها بيجامة، أعلنتْ أنها تأخَرتْ، وستذهب الآن وليس بعد نصف ساعة .

قالت كلمات راقية وحميمية قبل رحيلها، أعلنتْ أن رفيقات سجنها شمعات حقيقيات وإنهن في الحقيقة -على الرغم من انتمائهن لمذاهب مختلفة- أخوات في الفكر والروح والوجدان وأَمِلتْ أن يأتي الغد بالأفضل فيرحل الاستبداد المدني والعسكري والمذهبي ويسود الرأي والرأي الآخر ويتمرَّن الناس على ممارسة الاختلاف بالتفكير تحت سقف الوطن والإنسان، وأن الوطن لن يكون بخير حتى يكون إنسانه بخير، وإنه يستحيل بناء وطن حقيقي على بقايا البشر. قبَّلتْ اطفالي النائمين وتعانقنا طويلاً، وشدَّت على يد زوجي، دعتنا للزيارة جميعاً، ووعدتْ بسلطة من طراز يفوق سلطتها اليوم... سافرتْ ميٌّ، وأنا أعلمُ الآن أنها مسلمة ولكني أجهل مذهبها، لماذا لم أسالها؟. ويحي، هل وصل البلٌّ

لذقوننا نحن الذين نقول إن الوطن والإنسان أغنيتان متلازمتان، وأن الإنسان خُلِق وعاش قبل كل الأديان التي جاءت لتهديه وترقى به إلى ما هو جميل ونبيل وجوهري وجيد، وهو ليس ذئباً وعدواً وجلاداً لأخيه الإنسان، وإنما الإنسان أخ والإنسان في كل زمان ومكان.

***

رسالة.. لن تُرسل!

صديقتي الغالية:

كيف أنتِ وكيف هي أحوالك في بلادك الجديدة؟. أنا متأكدة من عتبكِ عليَّ فأنا لم أراسلْك منذ زمن بعيد. اعذريني يا فاطمة فقد كنت مشغولةً أولاً ومشغولةً ثانياً ومشغولةً ثالثاً، شغلني (الهمُّ الوطني الثوري الجامعي)، ثم شغلني المُعتَقلُ الوطني الذي أحالني إلى السجن الوطني، فيما بعد شغلتني لقمة العيش وسبل الحياة ووجوهها الصعبة، وغدتْ حياتي يا فاطمة قاسية حتى المرارة. حسناً فعلتِ إذ هاجرتِ مع أمك إلى بلادها وغدوتِ مواطنة الاتحاد الأوروبي، سأبثك بعضاً من همومي لو سمحتِ، فبلادي يا صديقتي تحرص على تقديم الأسى والألم لي بإصرارٍ عجيب، أرجو أن لا تفهميني خطأً، فأنا متيمةٌ بحب بلادي مسقط رأسي وأجدادي، إلا أن وطني هذا مرّغَ أنفي بالتراب مرات عديدة وما يزال يفعل ذلك حتى تاريخ رسالتي هذه إليكِ، مرةً يوم اعتقلت بتهمة الانتماء لحزب معارضٍ وليد، لأقضي قرابةَ خمس سنوات في (جوف الجب)، ومرةً يوم تخرَّجتُ من الجامعة ولم أجد عملاً لائقاً لأني خريجة سجون، وأخرى يوم اضطررت للعمل بالقطاع الخاص الذي طالما نظرتُ إليه بعين العداء لمتطلباته الكثيرة ومردوده الضحل، ومرات كثيرة يوم أثقلتْ كاهلي وزوجي ديونٌ لا طاقة لنا بحملها على الرغم من عمل زوجي

المضني، ومرات أخرى أكثر مع استمرار رجال الأمن من الفروع المختلفة بقرع باب منزلي لطرح أسئلة سخيفة ومكرورة لا لشيء سوى الإيحاء والتأكيد لي ولمن حولي أنهم موجودون، وأن عليّ أن لا أنسى أن كلفة الخروج عن الطاعة باهظة الثمن، إنهم يا فاطمة في كل مكان وزمان، في الحي والعمل وعلى مواقف الباصات وأسواق الخضرة وداخل التلفونات وفي صناديق البريد والكراجات، يعيشون معنا، يندسّون بيني وبين زوجي وأولادي وأقربائي ومعارفي وجيراني، لقد نجحوا فعلاً في استباحتنا واختراق كل خصوصياتنا، غسلوني ونشروني حتى جففت؛ أصبحت أراقب حركاتي وكلماتي وهمساتي، روحاتي وغدواتي، زرعوا في صدري خوفاً -بحجم أبي الهول- رعى رقابةً داخليةً صارمةً، أنا أنام وهي لا تنام، تعَّودتُ ضبط مفرداتي ودس عبارات الولاء في الكلام، وحرصتُ على تلقين أطفالي التعظيم والإخلاص والوفاء للحكام، وكرهتُ ذاتي، وغدا القرف نمط حياتي وعنوانها وقد يستمر ذلك حتى مماتي، هكذا أعيش، وهكذا يعيش الناس من ذوي الإحساس والعقل من أبناء وبنات وطني، "كل مواطن مدان وتحت الطلب" حسب توصيف طيب تيزيني في سياق وصفه للدولة الأمنية العتيدة وعلاقاتها بالوطن والمواطن. وعلى هذا فإن أهم همومي الشخصية والوطنية دفع اتهامات الخيانة والتآمر والتخريب، بإبداء فروض الطاعة والولاء كما فروض الصلاة، بدءاً بترديد الشعارات وانتهاءً بالانخراط بالمسيرات مروراً بمديح القيادات في تسييرها أمور البلاد مهما بلغت مستويات الفساد، وتأييد سياساتها العربية والإقليمية والدولية مهما أخلَّت بمصالح الوطن والعباد، حتى أحلام نومي يا فاطمة غدتْ كوابيساً، وبتُّ أخشى إغماض عينيَّ، وأحاول العيش بأحلام يقظة علني أحظى بخيط تفاؤلٍ يبدد غيوم حياتي السوداء التي لن ترسل غيثاً أبداً .

مع ذلك، صدقيني، لقد تمكَّنت الاحتمال وكأن الخالق وهبني روحاً مطاطية أو قططية؛ أنا الآن أخطو نحو الأربعين، أم لثلاثة أطفال،

وأنهيتُ جامعتي بعد مرور ستة عشر عاماً على انتسابي إليها، لا أجد عملاً، الفقر يطرق أبوابنا على الرغم من عمل زوجي في مشاريـع كبرى، الزمن يمضي، أخشى الهرم من دون نيل مورد رزقٍ محترم، الغد لا يبشِّر بالخير، تمر أيامي وتغيرني حياتي في بلدي الذي سلبني سنين عديدة وفرصاً كثيرة من عمري ومع ذلك يأبى منحي حياةً معقولةً. لقد فعلتِ خيراً يا فاطمة حين هاجرتِ إلى وطن أمكِ بعد انفصالها عن أبيكِ، عفواً لغلاظتي، هلا تتذكرين معي مسيرتنا من المرحلة الابتدائية حتى الثانوية ومنافستنا على مرتبة الصف الأولى من دون هوادة، أنا أشك أحياناً بأن تلك الطفلة السعيدة الواعدة غدت (أنا) المتعَبَة والمهمومة .

العزيزة فاطمة :

قد نخرَ الحزنُ جسدي وروحي، وأيقنتُ أن الحياة في بلادي تستوجب سبعةَ أرواحٍ فعلية، وأنا أعتقد بأني امتلكتها واستهلكتها جميعها، ولم يتبقَ لي إلا الروح السابعة التي أخشى أن تموت فأموت معها.

لطالما كرهتُ السؤال بشكل عام، وكرهته لغاية شخصية، وتفهمته من أجل الغير، أنا أتجاوز هذا وأسألك، هل لي أن أسألك؟ هل بإمكانك إرسال طلب دعوة زيارة قد نتمكن من تحويلها إلى هجرة لأسرتي قبل فوات الأوان، أشعر بواجب ثقيل تجاه أطفالي، فأنا أنجبتهم ولا أريد خذلانهم، لو خصَّني الأمر وحدي لما طلبتُ ذلك أبداً.

اسمعي (فاطمة)، يبدو أني سأشطب سؤالي وطلبي عند كتابة هذه الرسالة على (المبيَّضة)، أنا مرتاحة لكل البوح أعلاه ولكنني قلقة ومتوجسة من سطوري الأخيرة، سأؤكد مجدداً -وأنتِ تعرفين ذلك على الرغم من عدم اهتمامك بالشأن العام- أنني لن أكف عن حب وطني، أحبه من دون شعارات ولا طبول ولا مسيرات، أحبه بعملي ووجداني وأخلاقياتي ونمط تربيتي لأطفالي، أحبه أكثر من رجال الأمن والجلادين

والسجانين ولصوص الخزائن الحكومية، ربما جريمتي الوطنية أني أحب وطني بجرعات غير عادية أو أكثر من اللازم ف"الزايد أخو الناقص" كما تردد أمي، أخشى إنْ هاجرتُ أن يقتلني الحنين، ولطالما حلم المهاجرون الأوائل أن يعانقوا تراب وطنهم بأجسادهم، أختم رسالتي وأنا حائرة وأرجو نصحي ومساعدتي على اختيار ما هو صائب وسليم.

واسلمي إلى صديقتك المخلصة، سلام.

***

هذه ليلتـي

أحلام النوم غدت كوابيساً مرعبةً، أحلام اليقظة أيقظتْ حواسَه النائمة فأدْمنَها، العفاريتُ تنام بعينين مفتوحتين، مارَسَ يقظةً نوميةً مبتكرةً، اعتاد الجلوس في زاويةٍ والتحديق في أخرى تحت السقف مباشرةً، كلُّ المنى مشروطةٌ ب(إذا، عندما، حين، سَ، سوف..)، المشتهى والمشتهيات والطيبات مرزومة بشريط الإفراج وعالم الحرية؛ أهله، أقرباؤه، أحباؤه، امرأته وفراشهما الدافئ وأغطيته الناعمة حتى الإثم؛ لهذا الجزء الأخير خصَّص مساحات هائلة، المتعة سلكت سبيلَ تدرجٍ خبيثٍ، نظرات عميقة، لمسات رقيقة، معابثات لطيفة، استباحات جريئة، طقوسُ ممارسات عشقية سحرية حتى فقدان الوعي .

من دون مقدمات لفظته الأسوار الإسمنتية العالية وبواباتها الثقيلة المعدنية ووجوهها الصارمة، حل مسالة الشوارع والسيارات والحمام والثياب، وأتبعَها بحل أشواق الأهل والأحبة وحذِرَ المعارف والجيران وعيون المخبرين، بكلِ جلال أحلامه الطيبة ونواياه المهووسة سعى إلى فراش الزوجية، فاندَّسَّتْ معه عشيرةٌ كاملة -بقضِّها وقضيضِها- ضمَّتْ رفاقَه وسجَّانيه من محققين وجلادين وزوارٍ؛ أغراباً وأمواتاً وجرذاناً وفئراناً وصراصيرَ معدةً للبلعِ أو المضغِ وفقَ الأمر، وأحذية تلعقِ وتنظفِ وتلمع باللِّسان، دواليب، عصِّي، وكابلات رباعية أو فولاذية بأسماء

دلعها: (آكلة لحم البشر، تدلل ياكايدهم، نسيانك صعب أكيد، بساط الريح العظيم، الكرسي الألماني الأعظم...)، التعليق من الأيدي، من الأرجل، محاولات انتحار فاشلة أو ناجحة، نوم على السيف رأساً لعقب وبطناً لظهر، كسرٌ لفقرات أو عظام، وكهرباء في أعضاء جسد حساسة، إضرابات طعام، كوابيس رعب جماعية، مساومات واعترافات، تقاطع معلومات وتخاذلات وانهيارات أو صمود أبدي وانتقال إلى عالم آخر، صراخ، عويل، بكاء حار، أنين، خوار، ولاويل، بكاء أطفال صغار أو رضَّع، أحلام يقظة سجنه حولتها دموع فراش زوجته إلى جسد أقرب إلى خرقة، التفَّ، انكمش، انطوى، وبدا وكأنه سيعود طفلاً لا يفتأ يتقلص ويتكوَّر، يندس جنيناً في رحم أمه ويتمتم "ليت أمي لم تلدني". ليتأكد أنه قادر على النطق .

هكذا كانت ليلة المرأة الأولى بعد عودة زوجها من سجنه، وهكذا كانت ليلة السجين الأولى التي طالما حَلُمَ بها سنين طويلة، هذه ليلتهما معاً.

في الصباح بدتْ العيون متعبةً، خجولةً، مخذولة ومكسورة، تابعت الزوجة اغتصاب البسمة تلو البسمة، وروَتْ (نكاتاً بايخةً وأخباراً بايتةً)، اعترضت طريقه في الممر وحاولت تقبيلَه، عرضتْ عليه برنامجاً حافلاً بزيارة الأقارب وأبلغته دعوة صديقتها إلى شاطئ البحر وقالت إنها - بمناسبة خروجه من السجن- قررت إهدائهما أسبوع عسلٍ ثانٍ في الشاليه ليكون لهما فاضياً راضياً، لهما أن يسرحا فيه ويمرحا كما يشاءان من دون رقيب أو عزول، وجاءتْ تعليقاته وابتساماته وكأنها من عالمٍ آخر .

بعد ظهر اليوم الرابع توجَّهَ إلى طبيب الأمراض العصبية، وروى معاناته من ألفها إلى يائها، استمع الطبيب باهتمام مشوبٍ بابتسام، بعدها أجاب بجدية: أنه في بلاد العالم المتطورة يخضع المتعرضون لحوادث أو فواجع أو معاناة طويلة لبرنامج علاج نفسي قد يطول أو يقصر وفقاً

لحجم الضرر اللاحق بالمريض، من دون مواربة أكَّدَ أن حالته غير معقدة فهي واضحة وطارئة، وصف له دواءً ثانوياً وطلب مراجعته بعد أسبوع، قبل خروجه طلب إليه الكف عن يقظته النومية ونومه الصاحي وأحلامه المغرقة في الزمن السابق، وحذَّره من خلط الماضي بالحاضر والمستقبل بالحاضر، ونصحه باستبدال أجوائه الحالية.

استدُعي لجهات أمنية ثلاث، لتثبيت أموره بعد الإفراج... وعلى هامش المكان الذي وُضِبت فيه أدوات التعذيب بشكل لافت ومنعش للذاكرة عُوملَ بلطفٍ واضح ودماثة فريدة، وعلى امتداد سلالم الطوابق الثلاثة التي نزلها في طريقه للخروج، تلقَّفت أذناه أصواتاً وخبطاً وشتائماً وعويلاً اعتاد سماعها سنينَ طويلة قبل أن يعتقد بإمكان نسيانها خلال بضعة أيام .

في المساء بدتْ أنثاه جميلةً حتى الإثم، ولكنه بدا مخذولاً حتى الانهيار. في أيامٍ تلتْ ذلك نشطا كلٌّ على خطِّهِ باتجاهات لم يكونا يعيرانها سوى السخرية.

ذهبت برفقة صديقة طفولتها إلى الأحياء القديمة وطرقا باب الشيخ متعب كاتب الحجب التي لا تخيب، صنعتْ له حجاباً (مطنطناً)[46] دسَّته تحت الفراش. في اليوم الثاني اكتشفه تحت بطانة جاكتته فتجاهلها وتجاهله، بعد أسبوع استدَل إلى شيخ آخر، قصده وهو يُدينُ نفسه سلفاً، سدد للشيخ حسابَه وتردَّدَ في أخذ حجابه، وأجاب استغـراب الشيخ أنـه سيمرُّ به غداً ليأخذه.

حزما أمتعتهما وسافرا إلى شاطئ البحر فبدا هادئاً خلاَّباً، والجو قليل قيظه ورطوبته لأن الخريف على الأبواب، ندرة السابحات والسابحين

---

[46] مهولاً- عظيماً

لم تقلّلْ من تواجد المصطافين ونشاطهم وفعاليتهم، فالعائلات تفترش الأرض أو تعمِّر الطاولات بأطايب المأكولات المشروبات مقابل شاليهاتها وتصدحُ الموسيقى الراقصة، ويرقص الجميع، شبابٌ وشابات كهولٌ وكهلات .

بعثت الأمسية بالنفوس الرضا والمسرة، وبدتْ أنثاه في منتهى الجمال، سحرت عيون الإناث قبلَ الذكور.

في الصباح التالي، حزما أمتعتهما وعادا، قال إنه في منتهى التعب، فأجابت: "وأنا كمان". رنَّ جرسُ الهاتف، على الطرف الآخر كانت أنطاكية، تعتذر منه خالته عن الحضور للسلام عليه بسبب صحي، ولكنها تدعوه بإلحاح إليها مع زوجته، كرَّرت اشتياقها له، وأكَّدَت أن عليه أن يأتي إليها ولن ترضى منه عذراً أبداً، دخلَ ابن خالته على الخط، سلَّم عليه، مازحه، شتمه، وقرَّظه وهدد بإرسال قبضته عبر سماعة الهاتف ليخربط (واجهته) و(يهرَّ أسنانه)، تماماً كما كان يفعل عندما كانا صغيرين، تبادل الزوجان النظرات والكلمات ووعدا خيراً.

أُحيلتْ أوراقُه في إدارة الهجرة والجوازات إلى المحفوظات ومنها إلى الأرشيف، مستثمرُ الكمبيوتر تأمَّله قبل أن يكتبَ شيئاً على استمارته ويترك جهازه ليراجع رئيسه، خرج مع جوابٍ أمنيٍ واضحٍ بمنع المغادرة، لم يعدْ للمنزل، استقلَّ حافلة الشمال وسافر لزيارة صديقه -زميل سجنه- في مدينة القامشلي .

توالت من أنطاكية الاتصالات الهاتفية، اضطرت الزوجة لإبداءِ العذر صراحةً. استغربت الخالة واستنكرت وابنها أيضاً، لكنه وعدَ بحلٍّ.

مساءً اتصلت الخالة بابن أخيها في اللاذقية، وهدَّدتْ أنها ستتبرأ منه إن لم يتدبَّرْ الأمرَ بمعرفتهِ- ابن أخيها اتصَّل بصديقِه الضابط الأمني المرموق، وهذا بدوره اتصَّل بالضابط المسؤول، وذاك بالمسؤول

الأعلى، والخالة وُعِدَتْ خيراً ...

أقنعتْ الزوجةُ زوجَها بعد سبعة عشر يوماً بمراجعة الهجرة والجوازات، وفوجئَ بسماح المغادرة لمرة واحدة فقط، وإلى أنطاكية تحديداً .

قطع الزوجان المسافران الكيلومترات الثلاثمائة من حافلةٍ إلى أخرى، وسارا على الأقدام في اتوسترادات وشوارع وأزقة مزدحمة بأنواع البشر، مليئة بالنساء، محجَّبات وسافرات، بالتنانير أو (الجينزات) أو الفساتين المثيرة التي تختزن أجساداً بجمالٍ لافت، إلا أن انتباه الزوج شدَّته اللافتات الضخمة والشعارات الطنانة والوعود الرنانة وواجهات المحلات الضخمة والأبنية الفخمة والسيارات الفارهة. عندما وصلا إلى (باب الهوى)، اصطفوا كغيرهم في الطابور للعبور.

تفرّس موظف الأمن في وجهه طويلاً وعاين أوراقه بانتباهٍ وارتدَّ إلى كمبيوتره وطلب إليه الانتظار. حين عاد أبلغه أنه ممنوع من المغادرة، الزوجة حاولت النقاش والاحتجاج والإقناع بدا الزوج مكسوراً أكثر من أي وقتٍ مضى، لم يفهْ بحرفٍ بل تابع عرض ابتسامته الصفراوية البلهاء حتى الحافة، نودي على الموظف ثم نُودي عليه، أُبلِغَ أن كتاب حجب المنع لم يصلهم بعد، إلا أن الضابط المناوب اتصَّل بمدينته فأكدُّوا عدمَ منعه، وله أن يتابع سفره بالسلامة.

بدت الحافلة مريحةً ورشيقةً عند انطلاقها، شعوره بحداثتها وفاعلية سيرها نما بعد رؤية لوحة زرقاء كبيرة على يمين الطريق كُتب عليها بالأبيض -الجمهورية العربية السورية- نتمنى لكم سفراً مريحاً آمنا، وإعجابه بالحافلة انتقل ليشمل ركابها جميعاً من دون استثناء، واستغرب عدم ملاحظته نظافة الرجال والنساء والأطفال ولطفهم، وانجذبت عيناه إلى أربعةِ نساء قرَّرَ أنهن في منتهى اللطف والأناقة والحسن، بعد دقائق قليلة رحَّبت لوحةٌ ثانية بالقادمين إلى الأراضي

التركية، وحين ظهر الأمن العام التركي رصدَ بصره موظفةً حسناء أخفق في تجاهلها إلى درجة أنه بالغ في شكرها على بساطة ما قدمته من خدمات تندرج ضمن واجباتها، وحين تابعتْ الحافلة سيرها من جديد انطلق لسانه من عقاله وارتدَّ بصره إلى رفيقات السفر الطويل من الإناث، قرَّرَ أن اثنتين منهما على الأقل تتمتعان بجمالٍ باهر، وحين ضاق صدره باستنتاجه صارح زوجته -رفيقةَ سفره- التي امتعضت لبضع لحظات قبل أن تبتسم بخبث وتجيب: "ونحنا، شوبنا؟". فاجأته حقيقة أن رفيقة مقعده حسناء حقيقية يعزُ نظيرها، وإذ ابتعد بجسده قليلاً وأبعد رأسه كثيراً كي يتمكن من معاينتها عن بعد أكثر، بدت له وجهاً جميلاً وجسداً مثيراً وشعراً تم عقصه على شكل (ذنب حصان) يصل إلى الوركين، بعدها توالت المفاجآت، فاكتشف صدرها البارز وثيابها الحلوة وأناقتها الواضحة ومكياجها البسيط جداً، ابتلع لعابه عدة مرات واضطر لطلب كأسَ ماء، عندها غرغرت بضحكة مناكدة قرر أنها الأجمل منذ ولادته لاحتوائها على مقادير هائلة من الإثارة والجاذبية والإغواء.

حين بدأتْ تتمايل في سيرها مع نوَسان الحافلة المسرعة ساعيةً للوصول للمقاعد الخلفية لتجهيز حقائب السفر للمغادرة قرَّرَ أن مؤخرتها مميزة ومثيرة، وأن مشيتها (مانيكانية)[47] ، وحين جلست من جديد بجانبه التصق بها حتى شعرت أن المقعد أصبح ضيقاً على راكبين بشكل ملحوظ. بدايةً أحاطَ كتفيها بساعدِه وتلمّسَ بأصابعه شعرها ونفذَ منه إلى لحمِ عنقِها، لفتتْ نظره إلى أنهما ليسا وحدهما فالحافلة تعجُّ بالركاب. ضحكتْ وقالت له: "شو صار معنا"، راجع سائق الحافلة ومعاونه واستفسر عن الزمن المتبقي للوصول، وحين استقرَّ في مقعده عاجل الركاب بنظرةٍ خاطفة قبل أن يضع يده على ساقِها وحاول -

[47] عارضة أزياء

بهدوء- رفع طرف فستانها، في اللحظةِ المناسبة أوقفتْ تقدمَ يده، ضربتها، ضبطتها وأزاحتها جانباً قبل أن تعيدها إلى حضنه، همستْ بأذنهِ أنه فاسقٌ وعديمُ الخجل، ضحكا معاً... قال إنه يعشقها، وأجابت بهمسٍ أفقده عقله: "وأنا كمان." في المساء أصغتْ الخالة بشغفٍ إلى غناء أم كلثوم، وترنَّمتْ، غزلت أعين الزوجان كما لم تفعل أبداً، سحبتهما الخالة خلفها إلى غرفة نوم فاخرة مجهزة بالأغطية والستائر الحريرية، وطلبت إليهما الاستراحة من عناء السفر الطويل لأن الغد سيحمل إليهما مزيداً من استقبال الضيوف وزيارة الأماكن الحلوة في أنطاكية، ما كادتْ تغلق الباب خلفها حتى اكتشفا احتواء غرفة النوم على حمامٍ فخم، فاستغرقا في ضحكٍ متواصل وارتميا على بعضهما متعانقين، وأم كلثوم تغني لهما أغنيتها الشهيرة (هذه ليلتي).

***

نبذة عن الكاتب

نحن في سجن النساء منذ أكثر من عامين. بدأت حملة الاعتقالات التي طالتنا مؤخراً منذ أكثر من ثلاث سنوات. قضينا قرابة عام قبلها في فروع أمنية مختلفة ومعتقلاتٍ مرحلية متفرقة في محافظات القطر. أعتقد أن اعتقال الجميع تمَّ بلا استثناء؛ من دعا إلى مظاهرة ضد الغلاء، ومن وزع أو قرأ منشوراً أو من كان عنوانه أو رقم تليفونه في حوزة أحد هؤلاء. فقد مررنا جميعنا تقريباً بالمراحل كلها: (كمين، اعتقال، تعذيب، تحقير، ترغيب، عزل، تقاطع معلومات، مقابلات، مواجهات، مساومات)..

ازدادت إضبارتانا الرقيقة سماكةً مع الأيام، فغدت بدينةً بعكس أجسادنا التي رقَّت حتى غدونا خيوطاً متحركة أو خيالاتٍ كرتوني

حين زُجَّتْ فتاة الإعلان ذات العينين الخضراوين المشهورة بإعلان مبيض الغسيل التلفزيوني في سجننا -بتهمة الدعارة- رسمتْ وجهها بالألوان التي أحضرها أحد ضباط السجن على جناح السرعة، وكرَّرتْ ذلك حين احتفل السجن بمقدم النجمة المصرية المشهورة في عالم السينما بتهمة حيازة المخدرات، وعند خروجها قبلَّتْها ودعتها لزيارة القاهرة بعد الإفراج فقد تصبح نجمةً سينمائية أو فنانة مميزة في مجال الديكور..


ISBN 978-1-990723-05-6
9 781990 723056

